

2020
3.1.2020

جيلبرت سينويه

أنا القُدس

ترجمة: صالح الأشمر

منشورات الجمل

رواية

جيلبرت سينويه

أنا القدس

رواية

ترجمة: صالح الأشمر

منشورات الجمل

جیلبرت سینویہ: أنا القُدس، رواية

جيلبرت سينويه: روائي فرنسي ولد بالقاهرة ١٩٤٧. درس بمصر ثم أكمل دراسته الموسيقية بباريس حيث تحصل على شهادة الأستاذية في آلة القيثارة. صدر له عن منشورات الجمل: ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان، رواية (١٩٩٩)؛ المصرية، رواية (٢٠٠٥)؛ ابنة النيل، رواية (٢٠٠٧)؛ اللوح الأزرق، رواية (٢٠٠٨)؛ أخناتون - الإله اللعين، رواية (٢٠١١)؛ الفرعون الأخير، رواية (٢٠١٢)؛ أنا، يسوع، رواية (٢٠١٢)؛ يريفان، رواية (٢٠١٢)؛ صمت الآلهة، رواية (٢٠١٥)؛ البكباشي والملك - الطفل، رواية (٢٠١٥)؛ الملكة المصلوبة، رواية (٢٠١٦)؛ أريج الياسمين، رواية (٢٠١٦)؛ صرخة الحجارة، رواية (٢٠١٦)؛ يلمون: مملكة ببحرين، رواية (٢٠١٨).

جيلبرت سينويه: أنا القنص، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: صالح الأشمر
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محافظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠١٩
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ - بيروت - لبنان

Gilbert Sinoué: *Moi, Jérusalem*

© Éditions Plon, 2019

© Al-Kamel Verlag 2019

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

القدس ليست ميداناً مغلقاً يتكرّر فيه «صدام الحضارات» وحرب الهويّات الدينية أو القومية.

من خلال الابتعاد عن هذه الفئات المُربّبة لرواية التاريخ الحضريّ الطويل للقدس من البدايات حتى اليوم، مع البقاء مُتنبّهين لروح الأماكن وكذلك لانعطافات الزمن، نكتشف على العكس مدينة - عالماً مفتوحة على أقطار الدنيا الأربعة، والمهد المشترك الذي نشأت فيه تباعاً اليهودية والمسيحية والإسلام، وحيث تعكس الأماكن المقدسة الرمزية التبادلات والتأثيرات المتبادلة وكذلك الصراعات والمواجهات.

القدس

تاريخ مدينة - عالم من البدايات حتى اليوم.

لومير، فانسان

ما هي القدس؟ أماكننا المقدّسة بُنيت على أنقاض الهيكل اليهودي الذي دمّره الرومان. المسلمون أقاموا أماكن عبادتهم على أماكن عبادتنا. ما هو الأكثر قدسية؟ الحائط؟ قبر السيد المسيح؟ ما هو الشرعي؟ لا أحد شرعي. الكل شرعي.

مملكة السماوات

باليان ديبلان

إلى عبيدة ومروان الصايغ
لولاهما لما أبصر هذا الكتاب النور.

إلى صديقي بيار قطّار
الذي لن أستطيع أن أوفي الشاء له على صواب نصائحه
والساعات الطويلة التي تكرم بتكريسها لمراجعة هذه الصفحات.

القسم الأول

(١)

بعد قرون من الصمت، قرّرتُ، أنا القُدُسُ، أن أتكلّم لأروي قصتي الحقيقية، لا تلك التي يشيعها المُماليثون لي، أولئك السُدج الذين يتخيّلون أن لا مناص لي من أن أكون لواحدٍ منهم؛ والذين ينظرون إليّ كعروس يستطيعون أن يضعوها في قفص أو كبغّي تسلّم نفسها لمن يدفع أكثر.

أنا القُدس .

أنا الوحيدة، المقدّسة، الكاملة، وفي حجارتِي تهتز الحقائق الأبدية الثلاث؛ كل واحدة منها مُكملة للأخرى، وغير قابلة للانفصال.

لا تهمني الانتقادات التي لن يفوتها أن تثير مشاعري، ولا شك في أنني بلغت السنّ التي ما عدت أخشى معها الإهانة، والسخرية، سين الرُشد هذه حيث ما عدتُ أخشى شيئاً - هل يجب أن أعترف بذلك؟ ثم إنني متعبة جداً بوجه خاص.

منذ آلاف السنين وأنا أنزف، بابليّون، فُرس، يونانيون، روم، عرب، فرنجة، مماليك، عثمانيون، بريطانيون، كلهم وطئت أقدامهم أرضي، وكلهم أرادوا امتلاكِي بسفك الدماء وليس بمستحيل أن أختفي، ذات يوم، وأصبح رماداً لفرط ما كنت مُشتهاة، ما لم يخرج

الأنبياء الثلاثة عن صمتهم ويقرّروا ألا يكونوا إلا قلباً واحداً لكي يستمر قلبي في الخفقان.

«أرضُ كنعان». هكذا كان الناس، قبل نحو ثلاثة آلاف عام من العصر اللاتيني، يُسمّون هذه المنطقة الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط والأردن. من جهتي كنت دائماً أستغرب اعتماد هذا الاسم الذي كان يُطلقُ على شخص ملعون.

في الحقيقة، جاء في التوراة أنه بعد أن رست سفينة نوح حدث أنّ أحد أبنائه، حام، رأى أباه عارياً وهو في خيمته، فاستشاط نوح غضباً وصاح: «ملعونُ كنعان! عبداً يكون لعبيد إخوته!» لماذا كنعان؟ ما كان كنعان بالمدنّب. كان كنعان ابنَ حام، وإذن فليس هو مَنْ كشف عورةَ نوح، بل أبوه!

إن الكُتب المقدّسة تنطوي أحياناً على مفاجآت.

ذات يوم صعّدتُ نحوي قبائل قادمة من الجهة الشمالية الشرقية. رأيتهم من بعيد، كانوا شعباً سامياً أصله من منطقة جبلِ بِسري، في جنوب سوريا. وكانوا يُسمّون العُمُوريين. وسرعان ما تجدّروا في المنطقة. هل فكّروا في ذلك؟ جميع الغزوات تقريباً اتبعت مسارَ الشمس: يذهبون من الشرق إلى الغرب. الفجر الوردِي يعقب الشفق الأحمر. من بين هذه القبائل أحتفظ في ذاكرتي بمكان مُميّز لليبوسيين^(١)، أليسوا هم الذين قرّروا أين ولدت؟

لماذا اختاروا هذا الموقع على ارتفاع سبع مئة متر؟ لا ريب في

(١) في الأصل jébuséens. اليبوسيون شعب سامي نزع مع الكنعانيين من الجزيرة العربية خلال الألف الثالث ق.م. واستقروا في منطقة القدس. وهم البناء الأوائل لمدينة القدس. وكانت في عهدهم تُدعى «يبوس» (المترجم).

أن السبب هو إدراكهم أن أفضل دفاع في وجه الغزاة هو الدفاع من مكان مرتفع .

كان معظم اليبوسيين رعاة، وكانوا يعيشون في المغاور . بعد ذلك بنوا بعض البيوت وفيما كانوا بينونها شيئاً فشيئاً ابتكروا شرفات ثم توسعوا فيها وأقاموا أسواراً مرتفعة ليحتموا بها، ويحموا ذلك النبع، جيحون، القريب جداً، والذي يطمع فيه الجميع .

ذات صباح، وأذكر ذلك بوضوح، نطقوا باسمي : «أورشاليم» . المدينة التي أسسها الإله شاليم . وهو اسم قريب على نحو مدهش من كلمتي سلام وشالوم، اللتين تعنيان «سلام» . ومع ذلك لم يحدث لمكان يحمل اسماً بهذا الثُّبُل أن كان فريسة هذا القدر العظيم من الحقد .

لم يكن شاليم إله اليبوسيين وحدهم . كان مُبَجَّلًا في المنطقة كلها وكان رمزه نجمة الراعي، أول نجمة تلمع في السماء عندما تغرب الشمس، تلك التي تنير الطريق المؤدي إلى مملكة الموتى . وشاليم وحده كان يُقرَّر من يجب أن يسلك هذا الطريق . ولا ريب في أنهم كانوا يبذلون جهدهم لنيل رعايته بتقديم الأضحيات والقرايين، وفي حالة الخطر الدايم كانوا يضحون بأولادهم .

غالباً ما يفقد الماضي وجهه لمصلحة الذين يأتون بعده؛ عندئذٍ يتكرون له وجهاً آخر . ومن أنفتهم يصوِّرونه في كثير من الأحيان فظاً وبدائياً، لكي يبرهنوا لقومهم ولأنفسهم كم كانت جهودهم وبسالتهم ثمرة .

أحتفظ، أنا، بصور مؤثرة للسكان الأوائل الذين عاشوا وماتوا في أحضاني . لم يكونوا مهووسين بأفكار العظمة وكانوا يعيشون ببساطة . كانوا يلبسون ثياباً مصنوعة من القنب الذي ينسجونه ومن

جلود حيواناتهم الأليفة، ويكتفون في غذائهم بما تنتج قطع الأرض التي يزرعونها في أرباضهم بالفاصوليا والكراث والبازلاء والعدس. وكان لديهم القليل من الماشية التي يقترون في استهلاك لحومها مفضلين الحفاظ على أبقارهم ومعزهم وزعاجهم من أجل حليبها. وكانوا يصطادون، نعم، ويأكلون بذلك البط والأوز. وكان الأولاد الذين لا يحملون الأقواس والسهام العائدة إلى آبائهم حصراً يُغنون أحياناً موائد العائلة بحجلة أو دجاجة بريّة كانوا قد اصطادوها مستخدمين المقلاع بكثير من البراعة وقليل من الحظ.

كنت أراقبهم بحنان. كانت الفتيات يتزوجن في سن مبكرة جداً. ما إن يبلغن حتى تتركز عليهن نظرات البالغين. وعندما تُرَقَط النيران ظلمة الليل ويتحلّق حولها الناس كنت أعلم أنهم يتمّون مراسم زواج أو يحتفلون بولادة طفل بكر. عندئذٍ كنت أسرّح النظر بحثاً عن العروس أو الأم: إنها في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة حتماً. في الحالة الأولى كانت هي الأكثر صمتاً وسط الجمع، وفي الحالة الثانية هي التي تحيط بها النسوة أكثر من غيرها.

أحياناً تعلق صرخة طفل في الليل:

- ساري، أعطه ثديك!

كنت أغصن عينيّ لأراقب الرضاع. كان صدر الأم لا يكاد يتسع لهذه المهمة، عندئذٍ تتولى إرضاع الطفل امرأة من الجماعة أكثر بدانة ونضجاً على مرأى من الأم المتأثرة.

- سوف ترين، في ما بعد سيكون لك أنت أيضاً صدر كبير،

كان يقال لها على سبيل المواساة.

فيمَ كانت الأم الصغيرة تفكر حينذاك؟ هل كانت قد مدت نظرها إلى رجل آخر غير زوجها في ليلة الزفاف؟ كان ذلك ممنوعاً عليها

حتمًا، وكانت تعلم أنها تنتمي إلى عائلتها وعشيرتها.
كم مرّة رأيت الملابس الداخلية الدامية معلقة على الباب في
الصباح الباكر لتشهد على فضّ بكارتهن.

أذكر أيضاً مظاهر الولاء التي كان اليبوسيون يقدّمونها إلى
إلههم، شاليم. في غالب الأحيان كانوا يقدّمون حيوانات يقطعون
رقابها على حجر ضخم منصوب قرب النبع، وكان المحفل يرتل
المزامير. وما زلت أسمع ضحك الأطفال المتوجّجين بأكاليل الزعفران
وأزاهير الصخور.

شاليم، ما كنت أعلم شيئاً عن هذا الإله سوى أنه إله غيور. ولم
يكن الكلام عنه مسموحاً إلا للكهنة وحدهم وكانوا لا يتحدثون عنه
إلا في ما بينهم. آنذاك كان الرجال، وحتى أجلّهم، لا يتكلمون عن
الآلهة، وماذا كان بوسعهم أن يقولوا وهم لا يعرفون عنهم شيئاً؟
فالإله هو من حيث المبدأ خالد وغامض. تلك حِقبة سعيدة كان
الناس فيها يعفون أنفسهم من الثرثرة في شأن يجهلون.

لم أحصِ عدد الأنفس التي كانت تعيش بين ظهرانيّ قبل ألف
وثماني مئة سنة من عصركم، لكن لا ينبغي أن يتجاوز بكثير الألفين
وخمس مئة نسمة. كانت تجمّعاتهم السكنية قريبة من مُلتقى طريقين
كبيرين، أحدهما يمتدّ من أريحا^(١) إلى البحر الميت والآخر من
حبرون^(٢) إلى شكيم^(٣).

(١) Jéricho، أريحا مدينة فلسطينية تاريخية قديمة تقع على الضفة الغربية
بالقرب من نهر الأردن شمالي البحر الميت، يعود تاريخها إلى ١٠ آلاف
سنة قبل الميلاد وهي أقدم المدن الفلسطينية (المترجم).

(٢) Hebron، حبرون، الخليل حالياً، مدينة فلسطينية تقع في الضفة الغربية إلى
الجنوب من القدس بحوالي ٣٥ كلم (المترجم).

(٣) Sichem، شكيم، الاسم القديم لمدينة نابلس أو لمدينة كانت تقع في =

وعلى مدار الأيام بدأت بالظهور بيوت مبنية بالحجر والقرميد في وادي حبرون، من دون خفافيش متدلّية من السقوف ولا أفاع في الثقوب؛ قامت هناك ضيعة. وأخذ الرعاة يهجرون مغاورهم رويداً رويداً. وتولّدت لديهم فكرة تدعيم الأسوار وتكثيفها، وعن قريب سوف أصبح، أنا أوورشاليم، مكاناً منيعاً برجال يحملون السلاح لحفظ النظام في المنطقة. يقظة جديرة بالثناء نظراً إلى انتفاء الوحدة بين السكان المقيمين في أرض كنعان هذه التي تُؤوي أناساً قدموا من كل مكان تقريباً، لا يتكلمون نفس اللهجات أو اللغات ويأبون العيش في وئام مع الجوار. وكان أول نزاع يقع بين القبائل من أجل مرعى أو تقاسم ماء بئر سرعان ما يتحوّل إلى حرب إبادة.

حوالي العام ١٥٠٠ قبل عصركم بان في الأفق غُزاة جُدد كانوا يُسمّون الشاسو^(١). كالوحوش الضارية برزوا فجأة من شرق الأردن، من جنوب كنعان، من منطقة مجدو^(٢)، من بيسان^(٣) وكانوا قوماً مروّعين، بطاشين ودّهاة. كانت لديهم استراتيجية واحدة: التدمير، وهم خرّبوا ونهبوا العديد من المدن الساحلية وحتى قرية

= الطرف الشرقي لمدينة نابلس الحالية، أسّسها الكنعانيون في أواسط الألفية الثالثة قبل الميلاد. كلمة شكيم تعني المنكب أو الأرض المرتفعة (المترجم).

(١) Shasous، الشاسو، قبائل بدوية كانت تسكن صحراء النقب وسيناء منذ القرن العشرين قبل الميلاد، عندما غزوا مصر أطلقت عليهم تسمية الهكسوس (المترجم).

(٢) Megido، مجدو، مدينة كنعانية تقع شمالي فلسطين، يعود تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد (المترجم).

(٣) Beth-Shean، بيسان، من أقدم مدن فلسطين التاريخية، تقع اليوم على مسافة ٨٣ كلم شمال شرق القدس (المترجم).

قِدرون^(١) المجاورة لي دمّروها .

عندما أقول «هم»، افهموني . أنا أتكلّم عن الرجال . أما النساء فكُنَّ ينتظرن من بعيد نهاية النهب والتخريب، وكانت مهمّتهن حراسة الأطفال والقطعان بقدر استطاعتهن . فلطالما كانت المرأة وما زالت في الكثير من المناطق، حتى هذه الساعة التي أكتب إليكم فيها، كائناً مُستعبداً . هي امرأة ترضع النسل من ثديها، وتُحسن طهيّ الطعام، ويمكنها عند الاقتضاء أن تحمي الفراش الذي يُشبع عليه الذكر رغباته الأخيرة في النهار: اللذة الجنسية والنوم .

استمرت الحرب أياماً، وأشهرأً، وسنوات .

لحسن الحظ كان لكنعان جاراً قوي في ما وراء سيناء: مصر . وهي مملكة في غاية التحضّر، يحكمها ملوك يلقّبون بـ«الفراعنة» وهم الذين خلّصونا من الشاسو في نهاية المطاف . وما إن استتبّ الهدوء والأمن ثانيةً حتى قدّم المصريون أنفسهم كـ«حُماة» لمدن كنعان التي كانت ممالك . حماية مدفوعة الأجر طبعاً وما كانوا يمزحون في موضوع الجزية المطلوبة . ولم يكن أمام الملوك الصغار وزعماء القبائل من خيار إلا الخضوع وإذا ما تمردوا فإن الحكام المصريين المتمركزين في أماكن حصينة مع وحداتهم العسكرية لا يلبثون أن يردّوهم إلى الانتظام فوراً . ومع ذلك كان لديّ ملك هو عبدي هيبا . لكن كلمة ملك كبيرة عليه، إذ لم يكن سوى رئيس أورشاليم، حتى أنني باعته ذات مساء وهو يكتب رسالة إلى سيّد مصر، المدعو أمنحنب الثالث . كان يقول له: «أرجو من الملك أن يهتمّ ببلاده،

(١) Cédron، قِدرون كما ورد اسمها في التوراة . تقع في وادٍ يحمل اسمها شمال القدس، يعرف اليوم باسم وادي ستي مريم (المترجم) .

وأن يتذكر أن مدينة تؤدي له الجزية يجب أن يدافع عنها جنوده. إن لم يعد هؤلاء الجنود قبل نهاية السنة فإن ما يعود لمليكي سوف يخسره».

بوضوح، كان هذا يعني: «تعالوا لحمايتنا وإلا سوف نشهد أوقاتاً عصيبة».

ساد السلام مدة من الزمن، وكان سلاماً نسبياً.

في ضوء ما تقدّم، عليّ أن أُلطف حكمي على الشاسو فهم لم يكونوا مجرد أفظاظ. كانوا يستغلون مناجم النحاس في المنطقة، بالقرب من إيلات، في الوقت الذي كان الناس فيه ينتقلون من العصر البرونزي إلى العصر الحديدي. وهم أيضاً كانوا يبجلون إلهاً كان اسمه مؤلفاً من ثلاثة حروف، غريبة: يَهوه^(١) ويُلفظ: يهو^(٢)، حتى أنهم أقاموا له مذبحاً في منطقة سعير - تسمى اليوم شبه جزيرة سيناء. هذا التماثل بين إله الشاسو وإله العبرانيين في ما بعد لم يكف عن إذهالي. ألا يتعلّق الأمر بألوهية واحدة مرسومة بحرف زائد الحرف «ه»، يَهوه^(٣)؟

تعاظمت حيرتي عندما اكتشفت، بعد سنوات كثيرة، هذا المقطع في أحد الكتب المقدّسة: «أقبل يهوه^(٤) من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وسطع من جبل فاران»^(٥). فاران معروف في أيامنا هذه على

(١) في الأصل الفرنسي YHWH.

(٢) في الأصل الفرنسي Yahve.

(٣) في الأصل: La lettre «hé»YHWH?

(٤) في الأصل الفرنسي Yahvé. لكن في العهد القديم بالفرنسية ترد لفظة L'Eternel.

(٥) سفر التثنية، ٣٣ - ٢، الكتاب المقدّس، لكن لا ترد لفظة «يهوه» في النسخة العربية للتوراة بل «جاء الرب» أو «أقبل الرب».

أنه جبل سيناء، المكان نفسه الذي سيتلقى فيه موسى لَوْحِي الشريعة. في هذه الحالة أَيْكون الشاسو هم الذين أوصلوا إليه قوانين الشريعة هذه؟ وليس على لوحين من حجر، بل مكتوبة على ورقة بَرْدِي؟ ولماذا كان هذا النبيّ يدعى موسى، أو موشي في العبرية، علماً بأنه كان قد احتُضِن وتربّى على يد أميرة مصرية من المُحال أن يُعزى إليها بعض المعرفة بعلم الاشتقاق في اللغة العبرية. والأغرب كيف يمكن أن يكون النبيّ هو مؤلّف الأسفار الخمسة المنسوبة إليه ما دام سيفر تشية الاشتراع يصف بأدقّ التفاصيل لحظة موته بالضبط والظروف التي اكتنفته.

بعد قرون كثيرة سوف يشكك طبيب أمراض نفسية شهير في أن اختيار هذا الاسم موسى يعود إلى أنه «أُنقذ من الماء». ويقول إن هذا تفسير باطل لأن كلمة موسى أكثر ما يمكن أن تدلّ عليه هو «المعكف». ويوضح أن لفظة موس^(١) في لغة الفراعنة تعني ببساطة «طفل». وهي اختزال لبعض الصّيغ الأكمل للكلمة نفسها، مثل «أمون - موس» أي «أمون - طفل» أو «بتاح - موس»، أي «بتاح - طفل»^(٢). حتى أن بعضهم يؤكد أن هذا الشخص كان من كبار كهنة الفرعون أخناتون - مخترع الإله الوحيد - وقد اضطرّ إلى الهرب من مصر مع أتباع آخرين عندما هزّت الثورة البلاد. ثورة انتهت بمقتل الفرعون وزوجته نفرتيتي. إلى أين هرب موسى؟ بكل بساطة إلى سيناء. وحمل معه عناصر أساسية لإيمان إسرائيلي المستقبل: الخِتَان، ومنع تسمية الإله (لسبب وجيه كان اسمه أتون) ومنع

(١) في الأصل: Mose.

(٢) في الأصل: «Amon-mose», ou «Ptah-mose».

تصويره. بيد أنني أوقف تفكيري عند هذا الحدّ، مدركةً أنه يمكن أن يبدو تجديفياً في نظر البعض. ما أنا إلا مدينة. ولا أمتلك علم البشر وليس لي أن أتدخل في معتقداتهم.

(٢)

كانت الشمس تسقط في الأفق وتغطي الحجارة والأشجار والرمال باللون الباستيل العذبة .

كان اسمه خُوفي، وهو أحد أفراد الكتيبة المصرية المولجة «حمائتي». وعلى غرار معظم رفاقه في السلاح كان مولوداً في طيبة ولديه ميزة خاصة مجهولة من قبل رؤسائه ومُهَمَّلة من رفاقه هي أنه قلماً يتكلّم . كانت هذه الميزة جديرة بأن تلفت انتباه الآخرين أكثر مما يُعتقد، فهي وإن دلّت على طبيعة مفكرة يمكنها أيضاً أن تعكس مزاجاً قابلاً للمشاعر والأفكار خارج المألوف؛ أي أنه متمرد .

كان خُوفي بخلاف أترابه من الفتيان - لم يبلغ العشرين من العمر - يجهل كل شيء تقريباً عن الطبيعة الأنثوية . وكان يمقت معاشرة البغايا ذوات الوجوه الملوّنة اللواتي كنّ يأتين مرّتين في الأسبوع ويأخذنّ في الطواف بمحاذاة الجدران عارضات أنفسهنّ لرفاقه مقابل مكافآت مالية، معتبراً ذلك عملاً بهيمياً .

ذات يوم بينما كان يقوم بالحراسة على باب الشكّنة الصغيرة، المقامة بالقرب مني في السهل، لمح خوفي خيالاً يمر على بُعد خطوات منه، خيال امرأة ملتحفة بمشلع من قماش أبيض وتحمل جرّة على رأسها، ولا تكاد تتجاوز السادسة عشرة من العمر . من

خلال طريققتها في اللبس عرف على الفور أنها تنتمي إلى قبيلة
المديانيين كما كان المصريون يسمّون الكنعانيين.

لم يرَ خوفي مثل هذا الجمال من قبل. كانت ملامحها دقيقة.
أنف صغير، وشفتان حمراوان وعينان نجلاوان داكنتان. كانت جميلة
كالبدر. وفي الحال اعتراه انفعال شديد اكتسح جسده وقلبه. خطا
بضع خطوات لكي يُنعم النظر في المرأة المجهولة. ولا بد أنها
أدركت ذلك إذ أدارت رأسها نحوه خلسة لتراه.

هل تباطأت؟ رفع خوفي يده وفتح فمه، غير أن المرأة سرّعت
خطاها وكأنها خائفة. ولما عاد الشاب إلى معسكره حاول أن ينام
ولكن من دون جدوى، وعندما تمكن أخيراً من أن ينام حلم بأنه
يعانق الجميلة المجهولة ويجرّدها من ثوبها، واشتدت معاناته في
اليوم التالي عندما مرّت في الوقت ذاته. هذه المرّة توقّفت لحظة لكي
تحدّق في خوفي. وتلاقت نظراتهما. جازف بأن همس لها:
- غداً، في نهاية الشارع...

في نهاية الشارع يمتد حقل نحو الغرب تجتازه طريق تؤدي إلى
غزّة، هل فهمت؟ لم تجب، لكنها ابتسمت وتابعت سيرها. أدرك
خوفي فجأة المخاطر التي قد يتعرّض لها لتجرّته على مغازلة امرأة
مديانية. لو علم رئيسه بذلك لكانت عقوبته قاسية. لكن هل الحياة
هي خدمة السلاح فقط؟ إنه يريد هذه الفتاة، ولا يريد غيرها، وقد
ألهب جسده فعلاً.

في اليوم التالي شكّ في مجيئها. غير أنه ذهب إلى مواعده معها
بعد غروب الشمس. هناك كانت في انتظاره مفاجأتان. الأولى
بهرته، والثانية أفزعته. كانت الفتاة تسير نحوه في الضوء الخفيف
الذي يتلو الشفق. لكنها لم تكن وحدها، كان يرافقها رجلان.

- ما اسمك؟ سأله أحدهما، وكان قوي البنية ملتحمياً.

- خوفي.

- ماذا تريد من راني؟ نحن أخوها.

تُدعى راني إذن.

- أنا...

- أجب! أمره الرجل الثاني.

تلعثم خوفي:

- أريد... أريد... أن تكون زوجتي.

ساد الصمت بُرهة، وعلى عكس المتوقع، أعلن القوي

الملتحمي:

- الثمن بقرتان.

بقرتان! من أين له الإمكانات اللازمة لشرائهما؟ كان رصيده ضئيلاً. التفت نحو راني متوسلاً علامة، ذرة من حنان. في الظليل المتنامي، مَيَّز مشروع ابتسامة بدا أن شفيتها تهْمَان بِإِكمالِه.

- ماذا؟ هل أنت موافق؟ إن لم توافق نمنعك بحزم من الاقتراب

منها وإلا ندمت.

قال كالمتوسّل:

- امنحاني قليلاً من الوقت، بضعة أيام.

- أسبوع فقط، ولا ساعة أكثر. في هذا المكان نفسه فجراً.

كنتُ الشاهد الأخرس ورأيت الرجلين والمرأة يغادرون، تاركين

خوفي لليل. كنت أعلم ما يفكر فيه غير أنني أجهل ما الذي قرّر أن يفعلِه.

كان خوفي متحمّساً ومحموماً في آن، متحمّساً لإمكانية أن

يحتضن بين ذراعيه أجمل فتاة في العالم، ومحموماً لأن عليه أن يجد

سريعاً البقرتين المطلوبتين لتحقيق أمنيته، فلم يستطع أن يغمض عينيه في تلك الليلة. لكن في اليوم التالي رسخت في ذهنه فكرة: لا يستطيع أن يشتري البقرتين؟ طيب، سوف يستولي عليهما.

في المساء الرابع، رأيته في العتمة خارجاً من الثكنة مخاطراً بسلوك الطريق المؤدية إلى مخيم قبيلة من الشاسو. كان المصريون يعضّون الطرف عنه لأن المخيم منزوع السلاح وسكانه من النساء والأطفال خاصة. كان الناس نياماً. والماشية أيضاً نائمة في السهل. وسرعان ما ألقى خوفي نفسه أمام الحظيرة المسيجة حيث تنام الأبقار والخراف والبعال. كان اجتياز السياج سهلاً كلعب أطفال إذ لم يكن مغلقاً إلا بحبل لم يكن معقوداً حتى. هل يرونه؟ لا، كان الظلام حالكاً. لبث واقفاً بلا حراك للحظات مترصداً أقل ضوءاء تكشف عن حضور بشري؛ لا شيء. كان هناك خمس بقرات، جرّ إحداها بالزمام وأبعدها عن القطيع، ثم جرّ الثانية. وبعد وقت قصير أصبح على الطريق عائداً في الاتجاه المعاكس وهو يسرع الخطى بقدر ما يمكن للبقرتين أن تسرعا. كانت لديه خطة: سوف يخبئهما في مستودع للحصيد حيث خزنوا العلف في فصل الشتاء الماضي. وكان السقف قد انهار وتبلّل العلف بالماء تحت المطر الأخير فأخليّ المستودع. هناك خبأ ثمن مهره.

كانت تفصله عن فجر اللقاء مع المرأة التي اختارها قلبه ثلاث ساعات. مدة طويلة عليه في أثنائها أن يغذي البقرتين بالعشب الذي انتزعه من المروج متعرّضاً في كل لحظة لخطر أن يراه أحد سكان المدينة، والأسوأ أن يراه أحد رفاقه في السلاح.

منذ أن بدأتُ بمراقبة الناس قلت في نفسي إنهم يدهشونني دائماً. هذه العاطفة التي يشعرون بها طوال حياتهم والتي يسمّونها

الحب تبيع لهم تحقيق مآثر باهرة، وبذل أعظم التضحيات؛ في هذه اللحظات يصبحون قادرين على تجاوز أنفسهم، وألا يكونوا هم أنفسهم، وأن يرتفعوا. سواء أكان حب رجل لامرأة أو العكس وخصوصاً حب الأم لأبنائها. هذا الشكل من الحب لا يعرف قانوناً ولا حدوداً، وقادر على إزالة كل شيء من طريقه. وفي الوقت عينه يمكن لهؤلاء الناس أن يتحوّلوا إلى برايرة بلا قلب، ولا روح، من دون تسامح وبلا شفقة، متعطّشين للدماء يتحوّلون فجأة إلى وحوش ضارية بل أشد ضراوة من الوحوش.

بعد ثلاثة أيام ساق خوفي بقرتيه متجهاً نحو مكان اللقاء في الوقت المحدد. لم تكن راني وأخواها وحدهم: كان يرافقهم رجل آخر. تقدّم هذا من البقرتين فتفحصهما وهزّ رأسه راضياً.

- جيّد، قال، إنهما سليمتان.

إثر ذلك توجّه الجميع نحو القرية المديانية، ولأول مرّة منذ أن رآها سار خوفي إلى جانب راني يقشعر بدنه كلما واجهته بابتسامة خاطفة من زاوية فمها، ابتسامة ما أحفلها بالوعود.

فجأة برز رجل آخر لا تتمّ هيئته عن دمائه، تقدّم نحوهم. كان في العقد الرابع من العمر، مسمّر البشرة من لفح الشمس.

بعد أن تبادل الرجل كلمات مع الشابين، تفحص خوفي مُجِلاً في النظر من قدميه إلى رأسه، واستمر في ذلك وقتاً غير قصير قبل أن يعلن:

- اسمي آرام، أنا والد راني، أهلاً وسهلاً بك.

بعد ذلك جرى كل شيء بسرعة. رتل صوتٌ باللغة الكنعانية عبارات غريبة، لم يفهم خوفي منها شيئاً إلا عندما سكت الصوت وأيقن أنه وراني قد أصبحا زوجين. زغردت النساء. تقدمت امرأة

بدينة وبشوشة من خوفي واحتضنته . كانت تلك والدة راني . ثم قُدمت للحضور طاسات مليئة بعصير العنب . وعزف موسيقيّ على قيثارة . أما أنا فكنت أبتسم ، وأقول في نفسي لو كان لخوفي جناحان لطار حتماً . ومع حلول الليل كنت أتخيّل نشوته حين يضع يده على حلمه وقد تجسّد . وفيما كنت أراقب العروسين رحت أصليّ في الخفاء أن يبقىا سعيدين مدة طويلة ، لأنني كنت قد لاحظت أن التمتع بالسعادة يقلّل السعادة .

كان يمكن على أي حال التفاؤل لهما بأن يقضيا أيامهما الأولى هادئين ، بيد أن ذلك ينسينا أننا مدينون لأعمالنا وعاجلاً أو آجلاً سوف تطرق بابنا الضريبة التي علينا أن ندفعها .
في اليوم التالي دُعرتُ لرؤية راني تركض نحو الشكنة حيث كان خوفي قد التحق بمركزه .

- حبيبي ، يجب أن تهرب . جيراننا الشاسو سُرقت لهم بقرتان وهم يزعمون أنهما البقرتان اللتان قدمتهما مهرأً لي . إنهم يطالبون بإعادتهما إليهم . لكن أبي يرفض . ونظراً لكونهم مجردين من السلاح ، ولا يستطيعون قتالنا ، قرّروا أن يشكوك إلى رئيسك ، وهم في الطريق إليه .

لم يكن خوفي بحاجة إلى وقت طويل لكي يدرك حراجة الموقف : كانت السرقة من بين الجنح الأكثر خطورة . ولن يتردد رئيسه في الحكم عليه بالإعدام بدل أن يدخل في نزاع جديد مع الشاسو . فما من شك في أن قبائل أخرى في الجوار سوف يأتون لنجدة إخوانهم وسوف تستعر الحرب .

لم يبق سوى حل وحيد : الهرب ، الهرب ، الرحيل .
سألها :

- أتحييني؟

باغتها السؤال فتأخرت لحظات قبل أن تجيب:

- طبعاً. أحبك أكثر من حياتي.

- هل أنت على استعداد لتبعيني حيثما أذهب؟ وأن تركي

أهلك؟

تردّدت المرأة الشابة.

- أنا...

- أجيبي، يا راني. الوقت يضيق!

مرّة أخرى تأكدت من أن هذه العاطفة التي يتعذّر كتبها لدى

البشر تتجاوزهم حتى لتنسيهم كل صواب.

- نعم. حيثما تذهب.

- انتظريني قرب نبع جيحون. أسفل قدرون، سوف آتي.

انتظريني.

لم يمض وقت طويل حتى كان خوفي يمتطي حصاناً ويندفع نحو

النبع مُرخياً العنان. توقف ريثما يساعد راني على الصعود إلى السرج

وانطلق نحو الغرب. لم أرهما أبداً بعد ذلك.

هكذا كانت قصص الحب في معظم الأحيان آنذاك وتتلخّص في

كلمات قليلة: خطف، اغتصاب، هروب، إرادة ملكية.

أين ذهب الهاربان؟ أظن أنهما ذهبا نحو الساحل الذي بدأ يعمر

بأناس سأحدث عنهم أدناه، أعني الفلستيم^(١) أو (الفلستينيين).

لكنني أعلم أن النزاع الذي نشب بين العائلتين، تلك التي سُرقَت منها

البقرتان وأهل راني، تفاقم حتى تحوّل إلى حرب عشائر. وبعد

استنفاد كل الوسائل تدخّلت الحامية المصرية.

(١) في الأصل: Les Philishtîmes.

(٣)

عام ١٣٤٠ قبل الميلاد.

- هل تعلمون؟ سألت تالام ملقياً نظرة على الجماعة التي تشكل نصف دائرة حول نار المخيم.

كانوا خمسة. رجال ذوو ملامح قاسية، وقسمات حادة كأنما نُحِتَتْ بسكين، ووجنات سودتها اللحي، وسحنة كامدة. معظمهم رعاة وبينهم فلاحون أيضاً. كل واحد منهم كان يمكن أن يُقال إنه سليل خوفي، الجندي المصري الشاب، وراني، حبيته. بعد فرارهما علمتُ أنهما أقاما في الساحل، كما كنتُ قد توقّعت.

- نعلم ماذا؟ سألت أحد الرعاة وكان يستعد لأن يشكّ في سيخ حمامة كان قد اصطادها من قبل.

- علمت من رجال القافلة أن فرعوناً جديداً اعتلى عرش مصر.

- نعم، ثم ماذا؟ الفراعنة يتغيرون، والنجوم تموت، وأطفال يولدون. ماذا ينجم عن ذلك؟

- نجم أن الكتيبة المصرية التي تحمينا رحلت منذ يومين وسوف تتمركز في غزّة.

- ماذا؟ صاح رجل قصير القامة، بدين، برأس عجيب ، يُدعى ساري، وما السبب؟

أجاب تالام وهو يذكي النار:

- وفقاً لما قاله تاجر قادم من طيبة فإن فرعون مصر الجديد، واسمه أخناتون، قرّر أن على المصريين من الآن فصاعداً ألا يعبدوا إلا إلهاً واحداً، هو الإله رع. وقد استشاط الكهنة غضباً ومعهم كل الذين يعبدون آلهة أخرى بعد أن كَفّ الناس فجأة عن تقديم العطايا للمعابد ونشبت نزاعات انتشرت حتى في أوساط الجيش. وانتهزت بلاد المديانيين الفرصة للتخلّص من الوصاية المصرية.

- ما قصة هذا الإله الوحيد؟ صاح ساري متعجباً.

- لا بد أن عقرباً التهمت دماغه، سخر الذي بجواره، وكان فلاحاً بشعر طويل ومجعد.

- لا أعلم عنه شيئاً، ردّ تالام. لكنني أخشى أن نذهب نحن، هنا في أورشليم، ضحية هذا النزاع.

تعالت دمدمات من هنا وهناك. كانوا يرفعون أيديهم نحو السماء، ويتنفسون الصُّعداء. بعضهم حاول التقليل من شأن هذه القضية، لكن من دون اقتناع. كان قلقهم مشروعاً. وما قاله تالام كان صحيحاً.

بعد رحيل الحامية إلى غزّة وجدّنتي مجدداً عُرضةً للهجمات، سواء من قبيل العُزاة الجُدُد أو من المدن المجاورة؛ ولا سيما الجزر^(١) وحبرون وشكيم. في الواقع كان هؤلاء الثلاثة، وبخاصة

(١) في الأصل: Guézer. مدينة قديمة في فلسطين، تعرف اليوم باسم تل الجزر. تقع على بعد ٨ كلم جنوب شرق مدينة الرملة (المرجم).

عشيرة لاباجا، ملك شكيم، يطمعون في مياهي العذبة. لحسن الحظ ما لبثت العاصفة التي أطلقها أختاتون أن هدأت، واستعاد الآلهة أماكنهم وشعائرهم في معابد مصر.

رَع، الإله الوحيد الذي دعا إليه أختاتون، لم يحدث الاضطراب في حياتي اليومية. في المقابل جرت الأمور بخلاف ذلك في ما بعد. طبعاً، أنا غير قادرة على اختبار الأفكار الروحية، فما أنا إلا مدينة من حجارة، من حجارة وخصوصاً من رموز. ومع ذلك فقد وُهِبْتُ عقلاً ولا تُعوزني الحكمة.

لِمَ كانوا يحدسون أنني سأكون مأوى لقلب الأديان التوحيدية الثلاثة: اليهودية، والمسيحية، والإسلام؟ لن أعرف ذلك أبداً. بيد أنني صُعِقت بما عاينته من اقتتال الناس باسم إيمانهم، وكم سعوا كلهم لامتلاكهم بشراسة لا نظير لها، ولتجزئتي، وتقطيع أوصالي، بينما كان يكفي أن يُعطى كلُّ دين من الأديان الثلاثة جزءاً مني. وما كان يجب أن يكون نعمة تحوّل إلى لعنة. كم من مرّة أردت أن أصرخ في الناس «لا! أنا لست لأحد، ولكن. للكل!». لكنني لم أمتلك يوماً هذه القدرة. لقد قُيِّض لي أن أكون شاهداً بلا قدرة. ويؤسفني ذلك.

عادت الحياة في كنعان إلى طبيعتها، أحياناً هادئة، وأحياناً صاخبة، وكنت أنا أكبر.

حوالي العام ١٣٠٠ قبل عصركم، رأيت ذات صباح وصول شعبين، الأول قديم من البحر، ربما من تلك الجزر المعروفة في أيامنا هذه بأسماء قبرص، رودس، كريت وغيرها. هل كان هؤلاء من سكانها أم أنهم توقّفوا فيها فقط؟ لا أحد كان يعلم ولا أحد يعلم حتى الآن حقاً؛ اليقين الوحيد هو أنهم كانوا بحّارة. وقريباً سوف

يُعرفون باسم الفلسطينيين^(١)، أو الفيلستيم^(٢)، وحتى البِلَسْت^(٣) أيضاً. وذات يوم، بعد وقت طويل، سوف يُطلق على جميع أرض كنعان اسم «فلسطين».

فلسطين. نعم، أنا أدرك تمام الإدراك المحتوى العاطفي لهذا الاسم، اسم يكرهه البعض ويُجلّه البعض الآخر. سيكون لدينا متسع من الوقت للكلام مجدداً عن هذا الاسم.

لمحُتُ بين الوافدين الجُدد عائلة مؤلفة من أب يدعى غالات، وأمّ تدعى إيشا، وبنيت في العاشرة من العمر اسمها لَميا، وأخ لها في الثانية عشرة اسمه مارن.

ما زلت أرى بوضوح ملامح غالات. لَم يتجاوز الثلاثين من العمر، كامد البشرة، مغضن الوجه، عيناه سوداوان، وعلى خده الأيمن أثر جرح يمكن تبيّنه تحت لحية كثة. زوجته إيشا في مثل سنّه تقريباً، كان لها على ما أذكر وجه يشع حناناً، وبشرة بيضاء ولها شعر رائع ينسدل حتى خصرها.

عندما كان غالات يستكشف هذه البقعة من الأرض التي تمتد أمام ناظره كانت الكلمات الأولى التي نطق بها:

- هنا ينتهي تيهنا. على هذه الأرض سوف نعيش نحن وأبناؤنا، وأحفادنا أيضاً سيعيشون هنا حتى انطفاء الشمس.

قريباً سوف يستقر الفلسطينيون حول أراضي. أقاموا بيوتاً، وخبيماً، وحفروا آباراً. ولن يتأخروا في تأسيس مدينتهم الأولى:

(١) في الأصل: Les Philistins .

(٢) في الأصل: Les Philishtims .

(٣) في الأصل: Les Pelesets .

جرار، الكاتنة شمال شرق بئر سبع^(١).

الوافدون الآخرون كانوا يسمّون الخابرو^(٢)؛ هذه الكلمة المستعملة في الشرق الأوسط كله ليست اسماً بل صفة، تعني «نهابون» أو «بدو رُحّل».

من أين جاؤوا؟

كتابهم المقدّس، الذي أعرفه عن ظهر قلب، التوراة، يؤكد أنهم قدموا من ضيعة تُدعى حاران. هناك يُعتقد أن رئيسهم أبرام^(٣)، من عشيرة تارح^(٤)، سمع، على غرار أختاتون، صوت إلهه، المسمّى «إيل»، الذي أمره: «إنطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك. وأنا أجعلك أمةً كبيرة وأباركك وأعظم اسمك، وتكون بركة، وأبارك مُباركك، وألعن لاعدائك، ويتبارك بك جميع عشائر الأرض»^(٥).

لدى البشر عبقرية ماهرة تجعلهم يدقّقون في ما يقوله الآلهة أو على الأقل في ما يعتقدون أنهم سمعوه من أفواههم. ربما كان أبرام قد سمع صوت إيل في حاران، لكن الخابرو لم يأتوا من حاران. لم تكن حاران سوى ضيعة، على نهر بليخ، عند الحدود بين تركيا والعراق حالياً، وكانت محطة للقوافل. والحقيقة أن الخابرو جاؤوا من أراضي أور المدينة الكبيرة في العراق.

(١) تماثل تلّ حرور في الوقت الحاضر.

(٢) في الأصل: Hapirous، كانوا نزلاء وجنوداً وعبيداً يعتقد البعض أن العبرانيين منهم كما ورد في قاموس الكتاب المقدس (المترجم).

(٣) في الأصل: Abram. الاسم الأول لإبراهيم (المترجم).

(٤) في الأصل: Terach، وتارح هو أبو إبراهيم (المترجم).

(٥) سفر التكوين، ١٢، من ١ إلى ٣ (المترجم).

في تلك الحِقبة كانت أور مدينة غنية وباهرة، تقع على مسافة ٢٠٠ كيلومتر جنوب بابل، قريباً جداً من التقاء نهري دجلة والفرات حتى أنهم حوّلوا مجرى الفرات لكي تحيط ضفافه بالزقورة^(١) العظيمة التي كانت بالتأكيد برج بابل. تلك المدينة، وهي إحدى أقدم المدن في العالم، كانت عاصمة السُلالة الثالثة من الملوك السومريين بعد الطوفان وكانت زينة سومر، الحضارة التي اخترعت الكتابة. وغالباً ما كنت أطرح على نفسي السؤال: لماذا قرّر الخابرو فجأة أن يغادروا مدينة غنية بقدر ما هي قوية؟

من جهتي، أعتقد أن السبب كان نزاعاً دينياً. وجدير بالذكر أن الناس في مدينة أور كانوا يعبدون آنذاك آلهة متعددة منها إله القمر، وكان تارح، والد أبرام، يصنع تماثيل لهذا الإله ويريد أن يُنشئ في بيته مذبحاً يعرضه فيه. وهذا مؤكد في الكتب المقدسة اليهودية حيث ورد: «منذ زمن بعيد كان أسلافنا، ولا سيّما تارح والد أبرام وناحور، يسكنون في الجانب الآخر من نهر الفرات ويعبدون آلهة أخرى».

تمرّد أبرام لمّا تبين له أن إله القمر بارد وصامت، بينما كان هو قد سمع صوت «إيل» الذي خضع له. وذات صباح حطّم تماثيل والده، وفي أثناء الشجار الذي تلا ذلك، قام بحركة مخيفة: لقد ضرب والدّه. والحال أن هذا الفعل كان يُعتبر في أور، كما في كل مكان، حتى أيامكم هذه، خطيئة لا تُغتفر؛ أُجبرت هذه الفعلة الابن على الهجرة إلى المنفى. لكن بعد التفكير العميق لا يبدو لي أن

(١) Ziggourat، الزقورة معبد مدرّج، وأكثر ما كانت الزقورات تُبنى في بلاد ما بين النهرين (المترجم).

نزاعاً عائلياً بين نحات وابنه يمكن أن يُفسّر هذه الهجرة. ولا ريب في أننا لن نعرف أبداً حقيقة هذه القصة.

هذا الإله «إيل» الذي أصغى إليه أبرام لم يكن مجهولاً لديّ، والسبب: أن الملك الذي كان يحكم أورشليم آنذاك كان كبير كهنتها. وكان اسمه ملكيصادق، ما يعني: «إلهي عدالة». في ذلك الحين كان «إيل» معبوداً من كنعان إلى مصر حيث كانوا يعتبرونه إله الخير وعدوّ سيّئ، إله العواصف. وكان معروفاً بالاسم نفسه في اللغات الآرامية والفينيقية والكنعانية.

عندما ترك أبرام مدينة أور مع أهله، حوالي العام ١٧٦٠ قبل عصركم، اتجه جنوباً وتوقّف في مدينة حبرون في أرض كنعان، عازماً على الإقامة بها وكانت عشيرته مؤلّفة من بضع عشرات من الأشخاص، بمن فيهم العبيد.

حينما رأى غالات، الفلسطينيين، وقومه وصولهم أوجسوا منهم خيفة.

- مَنْ هم هؤلاء الغرباء؟ تساءلوا. هل هم مسالمون؟ أم لديهم ميول حربية؟

- كونوا على حذر. مع كل هذه القبائل المهتاجة سرعان ما تقع المواجهة.

حاولت زوجته إيشا أن تطمئنّه.

- هيا، يا حبيبي، إهدأ. سرعان ما يضطرب قلبك خوفاً.

غير أن غالات لم يكن مخطئاً في تخوّفه.

إذا كانت كنعان مزدهرة وتحترس من الحروب المكلفة فالتنافس كان محتدماً والرغبة في امتلاك مزيد من الأراضي تتحكم بالعقول. واليوم بعد مرور قرون طوال أرى أن لا شيء تغيّر وأن الأرض التي

أعيش عليها ما زالت تذكي تلك الرغبة. ومهما كان من أمر ففي اليوم الذي نشب فيه نزاع ألقى أبرام وصحبه أنفسهم متورطين فيه .

خمسة من ملوك منطقة البحر الميت، هم ملوك سدوم، وعمورة، وأذمة، وصبوتيم^(١)، وبالع^(٢) تمردوا على كدولا عومر، ملك عيلام^(٣)، وفي الحرب التي تلت خطفوا رجالاً من بيت أبرام، بينهم لوط ابن أخيه، ونساء، وكل الماشية.

أخبر هارث من الحرب أبرام بما حدث، وكان آنذاك مقيماً في أرض ممرا، في حبرون، فتعقب الخاطفين مع حلفائه الأموريين. لم يكن من المتوقع أن يكون له حلفاء كهؤلاء: فالأموريون كانوا أكثر سكان كنعان عدداً، ومثله جاؤوا من أور؛ وكان ممرا منهم. ولحق أبرام بالجناة وكسرهم واسترد لوط، وبقية الأسرى، والماشية، واستولى على أموال المهزومين.

خلافاً لكل توقع خرج ملكيصادق، كاهني الأكبر، لملاقاة أبرام العائد إلى مخيمه. قصة هذه الملاقاة، المستغربة على الأقل، وردت في سفر التكوين، أو أسفار التوراة. وجاء فيها أن ملكيصادق أخرج لأبرام خبزاً وخمراً وباركه باسم «إيل».

أعترف بأن الحادثة حيرتني. تقدم الخبز والخمر هذه من قبل الكاهن الأكبر لمنتصر، في أعقاب معركة مهما كانت مرهقة، لا تشبه أياً من الشعائر والطقوس الدينية المعروفة. علاوة على أن إعطاء ملكيصادق العُشر من كل شيء غنمه أبرام أمرٌ مُحيرٌ هو أيضاً: فالعُشرُ

(١) مكان مندثر حالياً، يقع في وادي سدّيم، جنوب البحر الميت.

(٢) يسمونها المدن الخمس لسهل سدّيم.

(٣) أسماء هذه الأماكن والملوك كما وردت في التوراة (المترجم).

إناوةً يقدّمها تابعٌ لِسَيِّدِهِ. غير أن أبرام وملكيصادق لا يعرف أحدهما الآخر. هل كان أبرام يدرك أنه يمثّل أمام الملك كتابع له؟ ليس الأمر بمستبعد، لأن ذلك يؤمّن له حماية غير متوافرة للعبرانيين. أم أن ملكيصادق كان قد عرض على أبرام أن ينضمّ إلى مجتمع شاليم؟ لم أعرف الإجابة أبداً. يبقى أنه منذ ذلك اليوم نشأت علاقات بيني وبين العبرانيين.

بعد هذه الأحداث عاد أبرام إلى مُخَيِّمِهِ على الأرض التي اشتراها من مَمْرًا ومكث فيها. هناك حفر داخل مغارة تدعى «المَكْفيلة» قبراً لِيُدْفَنَ فيه هو وزوجته سارة عندما تحين وفاتهما. وهناك دفنه ابناه إسحاق وإسماعيل.

ذات صباح - لا أدري متى على وجه الدقّة - غيّر أبرام اسمه، كما أمره ربُّه، من أبرام إلى إبراهيم، وهذه صيغة مُدَعَّمة لعبارة «أبرو رهام» ومعناها «أبو أمم كثيرة» ومعنى أبرام «الأب الرفيع».

ما أنا إلا مدينة، وأسرار الآلهة كانت عصيّة عليّ دائماً. على سبيل المثال، لم أفهم أبداً لماذا أمر يَهُوَه إبراهيم، من دون سبب واضح، أن يأخذ ابنه إسحق ويصعد معه إلى إحدى التلال المجاورة ليذبحه هناك. أليس هذا طلباً في منتهى القسوة؟ قتل طفل؟ يبدو أن ذلك لم يكن سوى خدعة استعملها يهوه لكي يمتحن حُبَّ إبراهيم. وما هذا بالأمر المستحيل، ففي اللحظة الأخيرة أمر ملاكُ الأَب أن يُبقي على ابنه. مع ذلك أجد هذا السلوك صادمًا. والمكان الذي كانت ستحصل فيه هذه المأساة يُعرف اليوم باسم جبل الهيكل الكائن في نطاقي الجغرافي.

أما المصريون فقد استمروا في السيطرة على كنعان، وذلك لسببين: الأول أن أرض كنعان كانت تشكل منطقة عازلة بينهم وبين

الغزاة الدائمين القادمين من الشمال، والثاني أن الكنعانيين بصفتهم أتباعاً للمصريين كانوا يقدمون لهم جزية قيمة نظراً إلى الازدهار الذي يعمّ البلاد. وثمة سبب ثالث هو أن كنعان كانت خزاناً لليد العاملة لأن المصريين كانوا بُناة ناشطين.

كان مشهد الجنود المصريين السائرين على دروب كنعان مألوفاً لديّ كما هو مألوف لدى الكنعانيين، من أكثرهم افتخاراً إلى أكثرهم تواضعاً.

عندما شرع رمسيس الثاني، أحد الفراعنة الأقوياء، في إعادة بناء وتوسعة أفاريس، القلعة التي بناها الهكسوس على ضفة بحيرة المنزلة، وجعلها مدينة لمجده، كان بحاجة إلى عمّال فأمر بجلبهم من كنعان. حدث ذلك نحو العام ١٢٦٠ قبل العصر الحديث، وبعد حوالي خمس عشرة سنة وقع حدثٌ جدير بأن يُروى: فهو يعطي لمحة عمّا كانت عليه العقليات في ذلك الوقت.

بعد أربع سنوات على اعتلاء رمسيس العرش قرّر أن يحارب الحثّيين أعداء مصر الوراثيين. تواجه الجيشان في قادش على الضفة الغربية لنهر العاصي. وانتهت المعركة بانتصار المصريين، لكنه انتصار ملتبس إذ بدلاً من استئناف الأعمال العدائية بين الخصمين كانا من الحكمة أن عقدا معاهدة صداقة.

في ذلك الحين أصابت مملكة الحثّيين موجة جفاف رهيبية، لا مطر، ولا ثلج، والمحاصيل لم تعد كافية، وأوشك الحثّيون أن يموتوا من الجوع.

عندئذ اتخذ ملكهم حتّوسيلي الثالث قراراً أعتقد أنه فريد من نوعه في تاريخ الزيجات الملكية: عرض على رمسيس الثاني أن يزوجه ابنته إن هو تدخّل لإصلاح... المناخ! لكن كيف؟ بأن يشفع

لهم عند الإله سبت، سيد العواصف. قبل رمسيس الثاني. واستقبل في بررمسيس^(١) الفتاة التي يبدو أنها كانت جذابة والتي أصبحت «الزوجة الملكية» وهو لقب من أعلى مراتب الشرف، حتى أنه أعطاهما واحداً من أكثر الأسماء طولاً وتعقيداً هو «مات حورس نفرو رع».

والأكثر غرابة ما حدث بعد هذا الزواج، إذ صلح المناخ وعاد إلى طبيعته في المملكة الحثية.
ربما كان لست سلطان على المناخ، بعد كل شيء؟

(١) في الأصل pi - ramses بررمسيس: العاصمة الجديدة التي بناها رمسيس الثاني، ومعنى اسمها: بيت رمسيس محبوب أمون المعظم بانتصاراته.
(المترجم)

(٤)

- هيّا! تقدّموا، تقدّموا!

غمامة الحرّ التي تغطي صحراء سين تجعل الهواء غير قابل للاستنشاق، وكل خطوة تتطلّب جهداً فوق الطاقة.

- تقدّموا! أمر الرجل مجدّداً وهو يقوم بحركات تدلّ على نفاذ

الصبر.

كم كان عدد الذين يتبعونه منذ انطلاقهم من وادي النيل؟ بضع مئات؟ ألفاً؟ لم يكونوا أكثر من ذلك أبداً على الرغم من أن كتابهم المقدّس يقول: «ثم رحل بنو إسرائيل من رعمسيس^(١) إلى سُكّوت^(٢) بنحو ستّ مئة ألف ماشٍ من الرجال ما عدا العيال»^(٣).

يمكنني أن أطمئنكم أن هذا الرقم بعيد الاحتمال جداً، لأنه إذا ما أضفنا عدد النساء والأطفال لا يقل العدد الإجمالي عن مليوني نسمة أي حوالي خمسين في المئة من مجموع السكان المصريين المقدّر عددهم في القرن الرابع عشر قبل عصرنا (بأعلى تقدير) بأربعة

(١) رعمسيس أرض في مصر، أسكن فيها يوسف أباه يعقوب وإخوته، كما أمر فرعون. انظر سفر التكوين ٤٧-١١ (المترجم).

(٢) اسم أول محلّة وقف فيها العبرانيون بعد خروجهم من مصر (المترجم).

(٣) سفر الخروج، ١٢، ٣٧ (المترجم).

ملايين نسمة^(١). وحتى إن لم تذكر الرواية التوراتية تاريخاً معيناً فإننا نجد فيها معلومات تسمح بتقدير الوقت الذي جرى فيه هذا الحدث: أي في زمن الفرعون أمنحوتب الرابع، المعروف باسم أخناتون، أو ولي عهد رمسيس الثاني بين عامي ١٣٠٠ و ١٢٠٠ قبل عصرنا. هذه على أي حال الفرضية المقبولة أكثر من غيرها في وسط علماء الآثار، لا يوجد أبداً أي مؤشّر على حصول هجرة بهذه الكثافة في تلك المرحلة. من ناحية ثانية، من غير المعقول أن تتمكن جماعة بهذا الحجم الكبير من الإفلات من الرقابة المصرية، ومن عبور الصحراء والدخول إلى أرض كنعان، تكفي دورية من خمسين جندياً لفرض الهدوء إذا ما قامت ثورة كنعانية.

- أيها المتراخون! تقدّموا.

ويتقدّم الخابرو.

يمكن أن نتساءل ماذا كانوا يفعلون في مصر؟ لماذا تركوا أرض كنعان حيث كانوا يعيشون سعداء في أيام إبراهيم؟ الجواب ببساطة لأن مجاعة رهيبية أخرجتهم من كنعان ومن أجل الحصول على الطعام لجأوا إلى مصر حيث أخذوا كعمّال وعبيد.

بعد أن استنزفوا عرقاً ودماً في بناء المدينة - المرفأ الكبرى بررمسيس، وعانوا من معاملة المصريين لهم بقسوة، وسئموا العيش في العبودية والمهانة، قرّر الخابرو أن يتبعوا رجلاً كان قد وعدهم بإعادتهم إلى أرض كنعان حيث يعيشون حياة أفضل وأنبل.

(١) يقترح عالم الآثار والمصريات باري كمب رقم المليون في نهاية مرحلة ما قبل حكم السلالة (نحو ٤٧٠٠ ق.م) وخمسة ملايين في المرحلة الرومانية (٣٠ ق.م) انظر أيضاً آدم فرنسوا جومار، مبحث في عالم السكان المقارن لمصر القديمة والحديثة.

شخصية مدهشة! قامه وسيطة، عينان يقظتان، سحنة مسرّمة، بشرة باهتة مثل جميع المصريين. لم يكن الرجل معروفاً إلا بنصف اسمه «موسيس»^(١)، الذي يعني «ابن كذا». وهو اسم مشترك شائع، مثل «توت - موسيس» أو «أه - موسيس»، أي «ابن توت» و«ابن أه». كان يشغل وظيفة رئيس العمال؛ رئيس عمّال رحيم؛ لأن أفراد الطبقة المهيمنة يأفنون التعامل مع العمال.

اخترعوا له قصة في غاية الرومانسية: حين كان طفلاً ابن عدة أيام، وربما ابن ساعات، وجدته أميرة متروكاً في سلّة من البرديّ عائمة على النيل. أشفقت عليه السيدة النبيلة وأخذته إلى البلاط حيث كبر. عندما سمعتُ بهذه القصة فكرتُ في قصة الملك سرجون، ملك آشور في الألف الثانية قبل عصركم، الذي عُثر عليه في مهد عائم هو أيضاً... لكن على الفُرات. ربما كانت هذه مصادفة مثل غيرها من المصادفات في تاريخ البشر. على أي حال يمكن لهذه الحادثة أن تفسّر لماذا أطلق عليه اسم موسيس، ابن... لا أحد.

لم يكن موسيس، أو مُوس، المصري يعرف هوية الإله الذي كلّفه بقيادة شعبه نحو كنعان. كان قد لقيه ذات يوم أمام عُليقة مشتعلة. وكانت المحادثة المروية التي لم أشهدا مؤثرة جداً.

قال الربّ: «إني رأيتُ مَدَلَّةً شعبي الذي بمصر، وسمعتُ صُراخه بسبب مُسَخَّرِه، وعلمتُ بآلامه، فنزلتُ لأنقذه من أيدي المصريين وأصعده من هذه الأرض إلى أرض طيبة واسعة، إلى أرض تدُرُّ لبناً حليباً وعسلاً إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحوّيين واليبوسيين»^(٢).

(١) mosis في الأصل.

(٢) الخروج ٣ / ٧-٨ (المترجم).

فقال موسى للربّ: «ها أنا ذاهب إلى بني إسرائيل، فأقول لهم: «إله آبائكم أرسلني إليكم، فإن قالوا لي: ما اسمه، فماذا أقول لهم؟».

فقال الربّ لموسى:

- «أنا هو مَنْ هو».

وأضاف:

- «كذا تقول لبني إسرائيل: أنا هو أرسلني إليكم»^(١).

«أنا هو مَنْ هو». هذه الكلمة الرباعية «أ ه و ه» تُكتب في العبرية «يَهُوَه». هذا المشهد جرى في سيناء، وكما قلتُ آنفاً، كان يَهُوَه من قَبْلِ إله الشاسو ومعظم الناس الذين كانوا يعيشون في كنعان.

الأيام تتبع الليالي والليالي تتبع الأيام.

هذا العبور الذي حُذِّد تحت اسم «الخروج» كان صعباً. بحسب التوراة دام أربعين سنة، لكننا نعلم أن الأعداد في هذه الكتابات رمزية وأن «أربعين سنة» تعني «طويلاً جداً»، وسنرى في ما يلي لماذا كانت هذه الرحلة طويلة جداً.

هذه المسيرة التي لا تنتهي أنهكت العبيد السابقين الذين كانوا يتضوّرون جوعاً فأخذوا يتذمّرون على موسى وأخيه هارون، وكانوا يصرخون:

- ليتنا مُتْنَا بيد الربّ في مصر، حيث كُنَّا نجلس عند قِدر اللحم ونأكل من الطعام شُبَعْنَا، في حين أنكما أخرجتَمانا إلى هذه البرية لِيُتِمِّتَا هذا الجمهور كله بالجوع»^(٢).

(١) الخروج ٣ / ١٣-١٤ (المترجم).

(٢) الخروج، ١٦ / ٣ (المترجم).

لكن حدثت معجزة وأمطر عليهم الرب خبزاً من السماء.

ذات مساء، فيما كانوا مخيمين تُجاه جبل في قلب سيناء، أملى هذا الرب ذاته جملةً من الأحكام على موسى. والمدهش أننا نجد فيها العديد من التشابهات مع قانون أخلاقي يعود إلى عام ١٧٥٠ قبل عصركم وضعه حمورابي أحد الملوك القدماء لأور حاضرة بلاد ما بين النهرين حيث عاش إبراهيم. ومن ضمن ما نجده فيها هذه الوصايا: «لا تسرق، لا تشهد شهادة زور، لا تقتل».

في الواقع إن مسير الخابرو في الصحراء أعادهم إلى نقطة الانطلاق: لم يجدوا يَهُوَهُ فقط بل وجدوا أيضاً بعض المحرّمات التي كانت مألوفة لديهم. قبل بضعة قرون جاؤوا إلى كنعان من الشمال وها هم يعودون إليها من الجنوب. وكان موسى قد أنجز مهمته ولم يعد له من دور يلعبه. على هذا النحو أفسّر واقعة تأمله من قمة جبل نيبو الأرض الموعودة لسلفه البعيد إبراهيم والتي لن يدخلها أبداً.

هؤلاء الرجال الذين غابوا عن كنعان طوال سنوات عديدة أصبحوا الآن غرباء فيها. وإذا أرادوا الإقامة بها من جديد فعليهم، ويا للمفارقة، أن يفتحوا أراضي تكون وطناً لهم. كان هذا دور «يشوع» واسمه اختصاراً لعبارة يهوشوع التي تعني «يَهُوَهُ خلاص» والذي سيصبح «يسوع» في اللغتين العبرية والآرامية.

عليّ أن أخبركم أن ما رواه من بقوا على قيد الحياة من زمن الخروج عن هذا الفتح مبالغ فيه، وكان يمكن ألا تصدّقوني لو أن علماء الآثار في القرن العشرين لم يعيدوا الحقيقة التاريخية إلى نصابها.

بعيدة مني فكرة صدم أيّ كان، غير أنني أذكر فقط أن الوثائق

المصرية - التي تسجّل أقلّ الأحداث الإدارية شأناً في المملكة الفرعونية - لم تحتفظ بأي ذكرى عن ذلك الحضور اليهودي. ولا شيء أيضاً عن الخروج الذي كان لا بدّ أن يترك بعض البصمات. إن «هروب» الخابرو نحو أرض كنعان يبدو، في حدّ ذاته، بعيد الاحتمال. فكما شرحنا من قبل، كانت بلاد كنعان في ذلك الحين خاضعة كلياً لسلطة المصريين. ومن ثمّ كان سعي الخابرو هذا مثل الهروب من موسكو إلى فارسوفيا في العهد الستاليني.

ثم إن الشمس لم تتوقف في السماء بأمر يشوع. فمن وجهة نظر فلكية كان ذلك توفيقاً لأن معجزة كهذه كان من شأنها إحداث كارثة كونية.

في ما يخص سقوط الأسوار المنيعة بصوت الأبواق التي نفخ فيها جنوده أرى أنه يعكس الخيال الحربي لمؤلفي تلك الحكايات أكثر من سرد وقائع حقيقية. في تلك الحقبة (حوالي العام ١٢٥٠ قبل العصر الحديث) لم يكن ثمة أسوار حول أريحا بكل بساطة، والأبواق لم تكن مُصمّمة إلى هذا الحدّ، لأنها كانت مصنوعة من قرون الكباش المجوّفة التي يقتصر صوتها على الخُوار. يمكنني تأكيد هذا الأمر لأنني رأيت تلك القرون وسمعتها.

يُروى في صفحات التوراة أيضاً أن الخابرو هاجموا مدينة العيّ الحصينة، على بُعد عشرين كيلومتراً تقريباً غرب أريحا، وأن «يشوع أحرق العيّ وجعلها ركاماً للأبد». والحال أن العيّ إن كانت قد دُمّرت فقد حدث ذلك قبل ألف سنة من مجيء يشوع! وعندما وصل إليها كانت المدينة مخربّة. ومن المسلي ملاحظة أن كلمة «عيّ» في اللغة العبرية تعني «خراب».

أمراء المدن الكنعانية (الذين يقدّمهم لنا سفر يشوع كأعداء

أشداء) كانوا في الواقع ضعفاء يُرثى لهم. وثبتت الحفريات الأثرية أن مدن كنعان آنذاك لم تكن «المدن» التي ستصبح عليها في وقت لاحق. لم تكن على الأكثر سوى مواقع قوية تُؤوي المرافق الإدارية ونخبة البلاد الصغيرة. وما من أسوار ولا تحصينات تحمي المدن الكنعانية الرائعة الموصوفة في حكاية الفتح.

ويبدو أن حماية مصر، التي تسهر على استتباب الأمن في المقاطعة، لم تكن تشتمل على أسوار دفاعية. وهذا سبب إضافي، ذو طابع اقتصادي، يفسّر عدم وجود التحصينات في غالبية المدن الكنعانية. وذلك أن الضرائب الباهظة التي كان على أمراء كنعان أن يدفعوها للفرعون كانت تمنع المسؤول المحلي الصغير من الشروع في تنفيذ أشغال عامة ضخمة.

مع ذلك ثمة أمر مؤكّد: لا بدّ أن الفاتحين الجدد كانوا مطلعين جيداً على الواقع السياسي في زمنهم. إذا كانوا قد اجتازوا صحراء سيناء من أقصر الطرق فالأراضي التي حاولوا فتحها هي الواقعة جنوب أرض كنعان، أي مُدن حبرون، وبيت لحم، أو أورشليم أيضاً. لم يكن الأمر كذلك؛ لأنّ الخابرو كانوا يعلمون علم اليقين أن الأراضي الواقعة غرب البحر الميت كانت تحت سيطرة المصريين، ولم يكن بإمكانهم مواجهتهم من دون سلاح، ولا عربات، ولا أحصنة. والحال أنهم تجنّبوا تلك العقبات فمرّوا من الشرق حيث لا توجد حامية مصرية. هكذا وصلوا إلى أريحا شمال البحر الميت. ولهذا السبب أيضاً استغرق تجوالهم مدّة طويلة.

هؤلاء القوم القادمون أو بالأحرى «العائدون» من مصر، والذين يتكلمون لغة كنعان كما كانوا قبل رحيلهم، ويؤمنون بالدين نفسه، وينتمون إلى الأصول العرقية ذاتها، انتهى بهم المطاف إلى الاندماج

في اتحاد القبائل التي تُشكل سكان كنعان، كما يؤكد سفر القضاة في التوراة.

في أيام يشوع، كان يحكمني ملكٌ كاهن يُدعى أدوني صادق، ومعنى اسمه «سيد العدل» وهو مركَّبٌ من كلمتي أدوني ومعناها «سيد» (كلمة كان العبرانيون يستخدمونها عندما يريدون أن يتجنبوا النطق باسم يَهُوه) وصادق بمعنى «عدل» كما رأينا في اسم ملكيصادق^(١). ومثل هذا الأخير كان أدوني صادق خادماً للإله «إيل».

جدير بالذكر أن يشوع لم يحاول فتحه. أفترض أنني لم أثر انتباهه من وجهة نظر استراتيجية أو أنه رأى أن احتلاله صعب جداً. مع ذلك لاحظت ذات صباح أنه يُقيم معسكره في شكيم، إلى الشمال.

أحداث كبيرة توشك أن تقع.

بعد نصف قرن على عودة الخابرو إلى حبرون، ظهر على المسرح ممثلون جدد، كانوا يسمونهم «شعوب البحر»، ومثل شعوب كثيرة في تلك المرحلة كان اسمهم غامضاً لسبب وجيه هو أن الناس آنذاك كانت لديهم أفكار أقل رسوخاً حول هوياتهم؛ كانوا لا يستعجلون اتخاذ أسماء جماعية عند تشكُّل الأقسام. اعتقدت أنهم كانوا قادمين من سواحل الأناضول أو من جُزر بحر إيجه، وأنهم كانوا بحارة محتكين، وفاتحين. لكن لا شيء يُفسِّر لماذا يرتمي آلاف الأشخاص على الطرق البرية والبحرية بحثاً عن مواطن جديدة.

(١) ملكيصادق، ملك أورشالم الذي أخرج خبزاً وخمراً لإبراهيم، ومعنى الاسم «ملك البر» (الترجم).

حوالي العام ١٢٢٠ قبل العصر الحديث نزلت «شعوب البحر» هذه على شواطئ فينيقيا واجتاحوها، مدمرين واحدة من كبريات المدن الفينيقية هي صيدا، ومجبرين السكان على الفرار إلى صور. ثم إنهم انحدروا صوب مصر وهدّدوا ممفيس، عاصمة الدلتا. ولو لم يتمكن مرنبتاح، الابن الثالث عشر لرمسيس الثاني، من صدّهم لما كنت أجرؤ على تخيل ما الذي كان سيحلّ بالمنطقة كلها.

لدى عودة مرنبتاح إلى مصر خلّد انتصاره بنقش نافر على جدران معبد طيبة: أمر بأن يُنقش أنه هزم «شعوب البحر»، واستعاد مدينة عسقلان واستعبد شعباً يظهر اسمه للمرة الأولى في التاريخ: «أرض كنعان مفتوحة، عسقلان سجيّنة، غزّة مربوطة، تلّ الجزر مدمّرة، إسرائيل مُكتسح ونسبه انقطع».

إسرائيل.

لماذا تبنّى اتحاد القبائل المذكور في سفر القضاة هذه التسمية: «إسرائيل» التي تعني: «يصارع ضدّ إيل»^(١)؟ يؤكدون أن ذلك كان بأمر إلهي. إن تدخّلات الكُلّي القدرة تُبسّط بالفعل القصص المعقدة. حدث أنه فيما كان يعقوب يستعد لمواجهة الجيش الصغير التابع لأخيه عيسو الذي كان على خصام معه، تصارع طول الليل مع خصم مجهول، في مخاضة يَبوق. رفض المجهول أن يعلن اسمه، ولما بزغ الفجر تبين يعقوب أن المجهول لم يكن سوى . . الربّ. وقد قال له: «لا يُدعى اسمك يعقوب فيما بعد، بل إسرائيل، لأنك صارعت الله»^(٢).

(١) في قاموس الكتاب المقدس: إسرائيل اسم عبري معناه «يجاهد مع الله» أو «الله يُصارع». وقد أُطلق هذا الاسم على يعقوب ونسله جميعاً (المترجم).
(٢) تكوين، ٢٨/٣٢ (المترجم).

يذهب بعض ذوي العقول الباردة أو المبالغة في طلب الدقة إلى أن هذا التفسير كان استفزازياً، أولاً: لأنه يعني أن بإمكان المرء أن يصارع ضد الله من دون أن يلقي العقاب، وبالتالي لأن اتخاذ اسم يمثل هذه الصفاقة يمكن أن يعرضه لغضب قومه. وأكتفي بملاحظة أن اسم «يعقوب» هو عكس اسم «يَبوق»^(١)، ما يُشبه بالأحرى تلاعباً قَبْلانياً.

لم يكف الفلسطينيين والإسرائيليون عن الاقتتال. إحدى أهمّ المعارك وقعت في «ابن - ها - إيزر»^(٢)، وكانت في منتهى العنف وانتهت بهزيمة العبرانيين ومقتل حوالي ألف من جنودهم. حدثوني عن ثلاثين ألف قتيل ولكنني أعرف هذا النزوع الطبيعي إلى المبالغة لدى سكان هذه المنطقة.

النتيجة الأكثر خطورة لهذه المعركة الخاسرة لم تكن عدد الضحايا بل الاستيلاء على أقدس شيء عند الإسرائيليين: تابوت العهد، أو تابوت الرب! بعد انتهاء المعركة نقله الفلسطينيون المنتصرون إلى مدينة أشدود ووضعوه في معبد إلههم، داجون، لأن الفلسطينيين كان لهم هم أيضاً آلهتهم وكان داجون^(٣) إله الحبوب والزراعة عندهم. حينذاك حدثت أمور غريبة، ما إن وُضِع التابوت

(١) في الأصل يَبوق اسم النهر المعروف الآن بنهر الزرقاء، ينبع بالقرب من عمان. ومعنى يَبوق: متدقق كما جاء في قاموس الكتاب المقدس.

(٢) هي بلدة كفرقاسم اليوم. بعد بضعة قرون شهدت هذه البلدة مساء ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٦، عشية اجتياح سيناء، إقدام الماغاق حرس الحدود الإسرائيليين على قتل ٤٧ مدنياً عربياً بدم بارد بينهم ١٥ امرأة و١١ طفلاً أعمارهم ما بين ٨ و ١٥ سنة.

(٣) داجون، معنى هذه الكلمة باللهجة الكنعانية هو الحنطة (المترجم).

عند تمثال داجون حتى ضربت المدينة سلسلة من البلايا والأمراض لدرجة أن الفلسطينيين قرروا نقل غنيمتهم الثمينة إلى مدينة أخرى من حواضرهم هي عَقْرُون على مسافة حوالي ٣٥ كلم مني. لكن هناك أيضاً ضربت البلايا السكان من صغيرهم إلى كبيرهم و«انبعث فيهم البواسير».

وصرخ أهل عَقْرُون وقالوا «قد أتوني بتابوت إله إسرائيل ليقتلني أنا وشعبي»^(١). عندئذٍ ردّ الفلسطينيون التابوت إلى الإسرائيليين آسفين. أين تبدأ الأسطورة وأين تنتهي الحقيقة؟ أحياناً أسمح لنفسي بالتفكير أنه عندما يطرح هذا السؤال من المستحبّ اختيار الأسطورة.

حوالي العام ١٠٢٥ قبل عصرنا أراد بنو إسرائيل أن يكون لهم ملك. كان لهم ملك إلا أنه لم يكن إسرائيلياً بل أحد أفراد سبط بنيامين، ابن المدعوّ قيس، واسمه شاول. لقد رأيتُه ويمكنني التأكيد أنه كان طويل القامة حسن الهيئة. كان رجلاً جميلاً، يفوق جميع الإسرائيليين الآخرين طولاً. وكان سريعاً في السباق ويتمتع بقوة نادرة.

ملك؟ صاح صموئيل عندما أخبر برغبة الشعب في أن يكون لهم ملك، وألقى فيهم على الفور خطبة من أشدّ ما قيل في ذمّ الملكية. قال:

«هذه أحكام الملك الذي يملك عليكم: يأخذ بنيكم ويخصّهم بنفسه لمركبته وخيله، فيركضون أمام مركبته. ويخصّهم بنفسه كرؤساء ألفٍ ورؤساء خمسين لِحَرِّته وحصاده وصُنْع أدوات حربه وأدوات مركبته. ويأخذ أفضلَ حقولكم وكرومكم وزيتونكم ويعطيها لِخِصْيانه

(١) سفر صموئيل، ٥ / ١١ (المترجم).

وعبيده. ويأخذ أفضل خدامكم وخادما تكم وشبّانكم، ويأخذ حميركم، ويستعملهم في أعماله. ويُعشّر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً، فتصرخون في ذلك اليوم بسبب ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم، فلا يُجيبكم الربُّ في ذلك اليوم»^(١).

لكن لا أحد أصغى إليه طبعاً.

تُروى أشياء كثيرة غير معقولة عن شاول، كالقول إنه جلس على العرش وعمره سنة وحكم سنتين. وتُفيد رواية أخرى أنه اختير ملكاً بالقرعة. وما إن جرى تنصيبه حتى أعلن الحرب على الفلسطينيين، ثم على الموآبيين، والعمّونيين، والأموريين^(٢) والأدوميين، والآراميين، والعماليق، وباختصار على كل من كان حوله من الأعداء.

كان شاول شخصية منهكة عصبياً وعنيفة مُعرّضة للاكتئاب العميق، ووفقاً للتوراة اقترف جريمة رهبة: في أثناء المعارك ضد العماليق أخذ ملكهم أجاج أسيراً وأبقى على حياته مثيراً غضب يَهُوه الذي لعنه. في الواقع يبدو أن هذا الربّ كان يأمر بإبادة الأعداء المهزومين حتى آخر رجل وامرأة وبهيمة.

لماذا التركيز على شاول؟ لأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمصريي لكي يداوي شاول كاتبه كان من عادته أن يستدعي عازف قيثارة حتى إذا ما أسمعته أنغامه تحسّنت حاله. كان هذا العازف فتى جميلاً جداً

(١) سفر صموئيل، ١، ١١ - ١٨ (المترجم).

(٢) أو العمّوريون، من أقدم الشعوب السامية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية إلى سوريا الوسطى وفلسطين بعد الكنعانيين (المترجم).

من سبط يهوذا مولوداً في بيت لحم يُدعى داود. ولم يكن داود جميلاً
وجذاباً فحسب بل كان بطلاً أيضاً.

حدث ذات يوم في وادي البطم أن تواجه الفلسطينيين
والإسرائيليون للمرة كذا لكي يقتتلوا، وكنت قد توصلت إلى قناعة
بأن هذين الفريقين لن يعرفا السلام أبداً، لا هما ولا نسلهما.

كان لدى الفلسطينيين سلاح سري: محارب هائل الحجم يدعى
جوليات^(١). طوله ست أذرع وشبر، أي ثلاثة أمتار من مقاييسكم
اليوم. لما رأى داود استحققه وتحدها بأن يبرز لقتاله. قبل الفتى
وتقدّم مسلحاً بمقلع لمواجهة هذا العملاق الذي يلبس درعاً ويحمل
رمحاً سنانُه وحده يزن سبعة كلغ. كان داود رامياً ماهراً وبعد أن
تبادلا بعض الشتائم، أخذ حجراً كبيراً وأرسله بالمقلع فأصاب جبهة
جالوت وسقط على وجهه إلى الأرض، فتقدّم داود وقطع رأسه. أمام
هذه المأثرة دبّ الرعب في الجيش الفلسطيني فتراجع.

كان يمكن الاعتقاد أن القضية تنتهي هنا. لكن هذا قد يكون إذا
لم يؤخذ في الاعتبار ما لدى البشر من طبع بالغ التعقيد. بعد هذا
الانتصار خرجت النساء من جميع مدن إسرائيل وهنّ يُغنينّ ويرقصنّ
بدفوف وهتافات ابتهاج في استقبال شاؤل الملك. فأنشدت النساء
الراقصات وقُلن: قتل شاؤل أُلوفه وداوُد رِبواته^(٢) فغضب شاؤل
غضباً شديداً وساء ذلك الكلام في عينيه وقال: « جُعِلَ لداوُد
رِبوات، وأما لي فُجِعِلَ أُلوف، فلم يبقَ له إلا المملكة^(٣) ».

سرعان ما أصبح لداود شعبية كبيرة حسده عليها شاؤل حتى أنه

(١) أو جالوت (المترجم).

(٢) الربوات جمع رِبوة، وهي عشرة آلاف.

(٣) سفر صموئيل، ١٨/٦ - ٨ (المترجم).

حاول قتله مرتين . عندئذ أثر المسكين داود السلامة ونأى بنفسه إلى مكان آمن حيث ترأس عصابة من المرتزقة وأخذ يغير بهم للسلب والنهب في أرجاء الصحراء وفي المنطقة الجنوبية من مرتفعات يهوذا بعيداً عن قبضة شاول الساخط .

ولحسن حظ داود ذهب شاول للقتال في جبل الجلبوع شمال شرق السامرة حيث هُزم وأصيب بجراح خطيرة .

فقال لحامل سلاحه : «استلّ سيفك واطعنيّ به لثلا يأتي هؤلاء القُلْفُ ويطعنونني ويُشنعوا فيّ . فأبى حاملُ سلاحه فأخذ شاول سيفه وسقط عليه»^(١) .

عندما علم الإسرائيليون الذين كانوا في الجانب الآخر من نهر الأردن بهزيمة شاول تركوا مُدنهم وهربوا فاحتلّها الفلسطينيون وأقاموا بها . وفي الغد أتى الفلسطينيون ليسلبوا القتلى فوجدوا شاول وثلاثة من بنيه صرعى فقطعوا رأسه ونزعوا سلاحه ووضعوه في معبدهم وعلّقوا جسّته على سور بيت شان^(٢) .

عندما علم داود بما حلّ بشاول سارع في الذهاب إلى مدينة حبرون حيث أعلنه الشعب ملكاً . وهناك أسّس مملكة حوالي المرتفعات المهجورة واتّخذ من حبرون عاصمة . أذكر أننا كنا آنذاك في العام ١٠٠٥ قبل عصركم . وبعد سبع سنوات قرّر أن يزحف نحو الشمال وأن يستولي عليّ ، أنا أورشاليم .

مهمّة صعبة لكنه تمكن من إنجازها بفضل . . . الماء . كان الماء

(١) صموئيل ، ٣٠ / ٤ (المترجم) .

(٢) بيت شان هي مدينة بيسان في فلسطين اليوم . كان الفلسطينيون يعبدون الإلهة عشتار وقد وضعوا سلاح شاول في معبدها المسّمى بيت عشتار ، كما ورد في سفر صموئيل ، ٣١ / ١٠ (المترجم) .

هو الذي ساعد على ولادتي وهو الذي أتاح لداود أن يحتلني .
سأوضح ذلك .

كان نهر جيحون الذي يروي وادي قِدْرُون يؤمّن قُدْرَتِي على الصمود في حالة حصار طويل الأمد . وكان اليبوسيون قد حفروا في صخر جبل صهيون أنفاقاً وآباراً تمكّنهم من التزوّد بالماء مهما كان ضغط المحاصرين . ثم إنهم كانوا على ثقة بقدرتهم على الصمود . وبعد أن صدّوا عدّة هجمات عانى المحاصرون خلالها من العطش فانسحبوا . وقد أتاحَت شبكة الأنفاق هذه تكوّن بركة عُرفت فيما بعد باسم «بركة سلوان»^(١) . وكان لهذه الشبكة ممرّ خارج أسواري يُفضي إلى قلب الحصن^(٢) .

وكان داود يعلم بوجود هذه الشبكة .

عندما مثل أمام أسواري على رأس جنوده (بضع مئات من الرجال) هزّ اليبوسيون أكتافهم غير مكترئين . هذا مُدّع آخر . غير أن داود كان واسع الحيلة . أرسل قائده يوآب وأفضل محاربيه إلى منفذ أحد الأنفاق فصعدوا حتى مدخل الشبكة داخل أسواري ، وعندما وصلوا إلى هناك لم يكن عليهم إلا أن يفتحوا الأبواب للجيش الذي كان ينتظرهم عند أسواري . كان يُخشى أن يعمد داود إلى ارتكاب مذبحة باليبوسيين ، ولحسن الحظ بدا رحيماً تجاه المهزومين فلم يفعل بهم شيئاً وتركهم أحياء .

(١) هو المكان المذكور في التوراة وفي العهد الجديد باسم «حوض حزقيّا» يقع إلى الجنوب خارج أسوار مدينة القدس القديمة (المترجم) .

(٢) في عام ١٨٦٧ ، كشف النقيب في الجيش البريطاني تشارمز ويرين الممر المذكور عندما زار نبع جيحون .

وما كاد سيدي الجديد يستقرّ حتى أمر بتعزيز أسواري، وبناء قصر ملكي، وبالأخص أحضر شيئاً خرافياً: تابوت العهد الذائع الصيت، وهو صندوق مقدّس صنّع أيام كان الخابرو تائهيّن في سيناء، ومُصمّم بأمر الربّ، وبحسب تعليماته، ويقال إنه يحتوي على «الشهادة»، أي الوصايا العشر محفورة على لوحين حجريين.

ثم أمر داود بإقامة مذبح على تلّ عُوفل لتقديم القرابين إلى يَهُوه.

هكذا أصبحت، أنا أورشاليم، مدينة مقدّسة.

(٥)

مدينة جرار^(١)، على السهل الساحلي لبلاد الفلسطينيين .
- ما رأيك في الملك الجديد؟ سأل غالب الفلسطيني وهو يُدكي النار في الموقد.

- أظن أنك تتحدّث عن داود! أجب حالم . كل ما أعرفه أنه ليس ملكنا بل ملك من يعبدون يَهُوه . وإذن، لا يعنيني الأمر .
غالب الذي يقترب من سنّ الأربعين، ألقى نظرة غاضبة على ابنه، وهو شاب في السادسة عشرة تقريباً، بشعر كثيف أسود براق ووجهة عريضة .

- لماذا هذه المראה؟

- قلتُ لك : هو ليس ملكنا، بل ملك من يعبدون يَهُوه .
- ها أنت تفتقر إلى التمييز على نحو قاسٍ، وقلّد ابنه ساخرأً :
- «لأنه ليس ملكنا، بل ملك من يعبدون يَهُوه» . في هذه الحالة، لماذا يكون إلهنا، الإله داجون، أرفع من إله الإسرائيليين؟
غمغم حالم مرتبكاً :
- لأن . . . لأنه إلهنا!

(١) مدينة قديمة في جنوب شرق غزّة، لعلّها المكان المعروف اليوم باسم خربة أم جرار . معنى الاسم جرّة بالعبرية وجرار جمعها بالعربية (المترجم) .

- هل تستحقه أنت؟

- ماذا تعني؟

- هل قاتلت للمطالبة به كما فعلت؟ أنت تعبد الإله داجون،

لكن لو أنك ولدت إسرائيلياً فأى إله كنت لتجلى؟ أجب.

عندئذ تدخلت أختُ حالم الصغيرة التي كانت تصغي إليهما

صامتة:

- يَهُوَه، طبعاً!

- أهنتك يا ابنتي.

واستأنف كلامه إلى حالم:

- ولو أنك ولدت في عائلة أدوميّة، فمن يكون إلهك؟

تذمّر حالم:

- لا أدري يا أبي.

- الإله قيس، بكل بساطة، بناء على ذلك، يا ابني، تذكّر جيداً

أن إجلالك لآلهتنا وليد الصدفة. أنت ثمرة الصدفة، كان يمكن أن

تُبصر النور في قبيلة غير قبيلتنا وتصلّي لإله أو آلهة أهلك، هذا كل ما

في الأمر، نحن لا نختار الآلهة، ولا هم يختاروننا. والحال أن

رفض إله الإسرائيليين فوراً لا معنى له. مَنْ يدري؟ ذات يوم قد يميل

قلبك إلى فتاة من تلك القبيلة، فإن أنت رفضتها لأنها تعبد يَهُوَه وأنت

تعبد داجون، فاسمح لي أن أقول لك إنك ستكون أحق.

لم يعلّق حالم وتجنّب نظرة أخته الساخرة.

على أن كلام غالب لم يكن مُحالاً إلى هذا الحد. فقد كان عدد

كبير من الكنعانيين والفلسطينيين ما زالوا يعيشون على مقربة من

الإسرائيليين وكان الزواج المختلط عملة رائجة تقريباً.

أكانت تلك العائلة تعلم أن أسلافها كانوا غالات، وإيشا،

ولميا، ومارن، هؤلاء المسافرون الذين وصلوا إلى أرض كنعان قبل بضعة قرون؟ طبعاً لا. كنتُ أنا وحدي مَنْ يعرف نسبهم، في أفضل الأحوال، كانوا يعرفون أسماء آباء أجدادهم مع تفصيل لا يمكنهم نسيانه: كانوا فلسطينيين.

كانت شهوة داود للمجد كبيرة: ولا ريب في أن هذا هو السبب الذي جعله يقرّر ذات يوم توسيع نطاقه ومن أجل ذلك استعان بمهندس فينيقي يدعى حيرام، ملك صور. لم يكن حيرام موسى، ولا بوذا، ولا المسيح، ولا محمّد خاتم الأنبياء. ولا يمتلك أيّاً من الصفات التي ينبثق منها دين، أو تيار فكري. كان حيرام بناءً في المقام الأول، لا يعتمد على الكلمات بل يتخذ الحجر وسيلة للتعبير. كان هو نفسه قد بدأ العمل على توسيع حاضرتة، صور، من خلال تكبير مرفأها وربطها بقناة تخترق المدينة. ثم بنى معابد لمعبوديه الإله ملكارت والإلهة عشتروت، وسرعان ما بلغت شهرته داود. لم أحفظ في ذاكرتي تاريخ لقائهما على وجه الدقة لكنني أتذكر أنه كان بين أسواري، حوالي العام ٩٠٠ قبل العصر الحديث. كان عمر حيرام خمسة وأربعين عاماً، وكان داود في الخمسين. حالما التقى الرجلان عبّر داود عن رغبته فوراً:

- أريد هيكلًا! أكبر، وأروع، وأعظم، من جميع الهياكل!
ابتسم ملك صور.

- وفي أي مكان تودّ أن يُبنى الهيكل؟

- على أعلى تلّ في أورشاليم! جبل المريّا في المكان نفسه حيث كان إبراهيم على وشك أن يضحي بابنه إسحق طاعةً لربّه.
مظّ حيرام شفّته تشكّكًا. لا ريب في أنه لم يسمع بهذه القصة الغربية أبدًا.

- لِمَ لا؟ أجاب. لكنّ بناءً بهذه الضخامة يكلفّ غالباً، ألدّيك
الإمكانيات؟

- طبعاً، لقد جمعت ما يكفي من الكنوز لبناء ثلاثة هياكل!

- هل تترك لي ملء الحرية؟

- حرية تامة.

بعد أن فكّر برهة، ختم حيرام:

- في هذه الحالة، أقبل. سأبني لك أجمل هيكل لم يره إنسان

من قبل.

في الحقبة التي دار فيها هذا النقاش لم أكن سوى قلعة من قلاع
كنعان، أصغر بكثير من مدينة حاصور^(١) ومن بابل.

فكرة أن أصبح مقرّ هيكل من ألف ليلة وليلة لم تكن لتسوءني.

لكن المرء ليس سيد مصيره؛ ما هو إلا المحاسب له.

عندما انحدر داود بفعل التقدّم في العمر انحدرتُ أنا أيضاً مرّة
أخرى. تحكّمت الانقلابات العائلية في مصير المدن. بدأت
الصعوبات مع المنافسات العنيفة بين أبناء داود لخلافته؛ وكان هؤلاء
الأبناء كثيرين: سبعة صبيان وبنات. كان المرجّح بينهم ثالثهم،
أبشالوم، وكان رجلاً جميلاً جداً هو أيضاً، محبوباً من الشعب. بعد
أن قتل أخاً له غير شقيق يدعى أمّنون كان قد اغتصب أخته تامار لم
يجد أفضل من أن يثير تمرداً في حبرون لكي يضمن ألا يأخذ أحد
مكانه على العرش بعد موت داود. ولأسباب لا أجد لها تفسيراً جاء
كل إسرائيل وكل سبط يهوذا ليزيدوا عدد المنضمين إلى أبشالوم،

(١) عاصمة مملكة الكنعانيين في شمال فلسطين أحرقتها يشوع وأعيد بناؤها
(المترجم).

ولم يعد بإمكان داود أن يعتمد على أحد غير حرسه وبعض المجتدين
فهرب حاملاً معه تابوت العهد.

لكن توجد في بعض الأحيان عدالة فورية. لقد توقفت مسيرة
أبشالوم نحو السلطة وانتهت نهاية بشعة في أثناء معركة جرت في
بلدة تقع شرق نهر الأردن وهُزم فيها جيشه هزيمة نكراء. وبينما كان
المتمردون يفرون دخل البغل الذي كان يركبه أبشالوم تحت أغصان
بلوطة عظيمة فعلق شعره الطويل بالبلوطة وبقي معلقاً بأغصانها.
وكان داود قد أمر رجاله أن يترفقوا بالفتى الذي كان بكر أبنائه غير
أن قائده يوآب تجاوز الأمر. أخذ ثلاثة أعواد وغرسها في قلب
أبشالوم وكان لا يزال حياً فقتله. بعد قمع التمرد عاد داود راضياً
إلى أورشاليم وأعاد إليها تابوت العهد طبعاً. لقد مات أبشالوم،
فمن يخلفه؟ اتفقت إحدى زوجاته، بَثْشَابِع، مع النبي ناتان على
دسيسة تحمل داودَ على أن يُسمَّى ولده منها، سليمان، ولياً للعهد
في حياته.

جدير بالذكر أن بَثْشَابِع كانت زوجة قائد حِثِّي؛ ما يدلّ على أن
داود لم يمارس قطّ مبدأ النفي من دون محاكمة الذي توصي به أسفار
التوراة.

ومات داود ذات صباح ربيعيّ حوالي العام 970- وكان مُلكه
أربعين سنة.

أين دُفن؟ يقول بعضهم في جبل صهيون قرب دير البندكتيين،
أي المكان الذي أقيم فيه العشاء الأخير للسيد المسيح مع حواريه.
يبدو سليمان الذي خلفه على العرش كشخصية أسطورية، غير
أنني، وأقول لكم ذلك بكل ثقة، لا أدري إن كان يلقي في أيامكم
النجاح نفسه. أحتكم إليكم: إن رمز الحكمة هذا بدأ حكمه بأن أمر

بقتل أخيه غير الشقيق أدونيًا وأجرى عملية تطهير عنيفة لأتباع أبيه الأوفياء. كذلك لم يكن زهده نقطة قوة له: كان حريمه يتألف مما لا يقل عن سبع مئة زوجة وثلاث مئة سُرّيّة! غير أنه على الرغم من التزاماته الزوجية وجد متسعاً من الوقت لتأليف ثلاثة آلاف مثل، منها مثل حفظته: «أنا الحكمة، أقيم في الخديعة».

ثمّ إنه كان ذا ميل جامع إلى الأبّهة التي يشهد عليها قصره أولاً، ثم... الهيكل. ذلك المعبد الشهير الذي طلب داود من حيرام أن يبنيه ولم يعش لينهيه، فكان أن عاد هذا الشرف الرفيع إلى سليمان. استغرق بناء هذا الصّرح سبع سنوات وجاء كما تخيلّه داود: أحد أعظم وأبهى الصروح في تلك المرحلة، وأعجوبة من أعاجيب العالم. وُضِعَ فيه تابوت العهد في قُدس الأقداس يحميه ملاكان من الذهب المُضَمّت. ويُروى أن سليمان قدّم لخدمة الهيكل خمس مئة دِرْع من الذهب. أنا شخصياً لا يمكنني أن أوكد ذلك إذ لم يُتَحَ لي النظر إلى داخل هذا المكان المقدّس. مهما كان الأمر فقد أُنجِز البناء في عام ٩٥٧ قبل العصر الحديث.

لا أدري ماذا كان ليفكر إبراهيم في هذا العرض الفخم وخصوصاً في تسامح، وحتى احترام، الملك تُجاه الأديان الأجنبية. والغريب أنه سمح بانتشار أديان وثنية في حاشيته، وفي شيخوخته تمكنت نساؤه من إمالة قلبه نحو آلهة أخرى.

غير أن عهده كان بالتأكيد إحدى المراحل الأكثر أبّهة ومجداً في تاريخي. هذا الملك الكبير عزّز دِفاعات المدينة ومدّ نفوذه على القسم الأكبر من كنعان. والقلعة اليبوسية الصغيرة التي كنتها أصبحت إحدى أشهر مدن الشرق.

والمفارقة أن سليمان لم يأخذ في الاعتبار أبداً لعنات الأنبياء

والكتابات المقدسة مثل: «ولا يُقيموا في أرضك كيلا يجعلوك تخطاً إليّ»^(١).

وتجلّت عظمة عهده بما لا يدع مجالاً لقول في الزيارة التي قامت بها إلى بلاطه مملكة ليست كسائر الملكات هي ملكة سبباً. لقد اجتازت إليه صحارى وجبالاً تتبعها قافلة تحمل هدايا لكي تتحقق من صحة ما اشتهر به من حكمةٍ وغنى. من أين جاءت؟ من المكان الذي توجد فيه اليمن المعاصرة تقريباً. مملكتها المرتبطة بالحبشة على الجانب الآخر للبحر الأحمر كانت قد اغتنت بفضل تجارة التوابل والمحاصيل الغريبة النفيسة المستوردة من الهند. وتذهب أسطورة إلى أن علاقة هذه الملكة بسليمان تعدّت حدود المجالات الدبلوماسية، وأنها أنتجت أثناء تلك الزيارة صبياً يدعى منليك، وكانت بشرته سوداء مثل الملكة.

عهد هذا الملك الكبير الطافح بالازدهار والمجد عصفت به في النهاية رياح التمرد والرفض، وقد تحمّلتُ أنا نتائجها طبعاً. رعاياه الرازحون تحت نير الضرائب والسُّخرة لم يكونوا راضين، وكذلك أتباعه أيضاً. هذا الرجل المرموق الذي عُرف بأنه منارة العدالة والحكمة كان في الحقيقة طاغية غير محبوب من شعبه. كان قد أنشأ جيشاً من ٨ آلاف رجل مستخّرين لقطع الحجارة الضرورية لمشروعه العمراني الضخم، كما أنشأ جيشاً آخر قوامه ٣٥ ألف رجل مجبرين على القيام بأعمال شاقّة في فينيقيا. علاوة على ذلك فرض عقوبة مكروهة بنوع خاص، هي الجلد بالسياط. إثر موته في عام ٩٣١- بعد أن حكم أربعين سنة، وعندما خلفه

(١) الخروج، ٢٣ / ٢٣ (المترجم).

ابنه رَحْبَعَام كان الوضع أسوأ. طبعاً، لم يكن الابن ناضحاً بالأمثال والحكمة المزعومة لأبيه: عندما طالب الشعب بخفض الضرائب أجاب: «أبي أدبكم بالسياط، وأنا أوذبكم بالعقارب»^(١). وازدادت سلطته وهناً.

لكن الأخطر هو الأزمة السياسية التي حدثت قبل عام وأدت إلى تقسيم البلاد إلى مملكتين منفصلتين. في الشمال قامت مملكة إسرائيل التي تضمّ عشرة أسباط وعاصمتها السامرة. في الجنوب مملكة يهوذا التي انضوى إليها سبط بنيامين ويهوذا وعاصمتها أورشاليم.

ما الذي حدث لكي ينقسم الخابرو ويصلوا إلى هذا الانشقاق؟ طُرح عدد من النظريات، وأنا أعرف الحقيقة. إنها قصة تنافس. لقد انتهى الخابرو بتشكيل أسباط يواجه بعضها بعضاً. هكذا أصبح سبط إسرائيل معادياً لسبط يهوذا الذي يعتبره قوياً جداً.

كان قد مضى على موت سليمان تسع سنوات عندما زحف على كنعان فرعون من الأسرة الليبية يدعى شيشاق، ووصل إلى أسواري. لم يكن رَحْبَعَام على مستوى المواجهة. ولكي يتجنّب الهزيمة عرض على شيشاق ذهبَ الهيكل يأخذه غنيمة. أنا لم أزن ذلك الذهب، غير أن نقوشاً تركها خليفة شيشاق توحى بأنه يزن ٣٨٣ طناً! لا أريد أن أدخل في سجال مع علماء الآثار لكنني أعتقد أن هذه الكمية مبالغ فيها كثيراً، فضلاً عن بقاء كثير من الذهب في ذلك الهيكل، كما سنرى في ما يأتي.

كان يمكن أن أصبح فقيرة لكنني لم أفتقر. لأنني في أثناء ذلك كنت قد أصبحت مدينة تجارية كبرى، وكانت سفن يهوذا تجوب

(١) صموئيل، ١٢ / ١٤ (المترجم).

البحر الأحمر، وكان الكنعانيون قد أقاموا عندي مناطق تجارية خاصة بهم.

للأسف، لم تقف معاناتي عند هذا الحد.

عندما ملك أحاب على إسرائيل في عام ٨٧٥- خرج على كل القوانين الدينية فتزوج أميرة فينيقية تعبد الإله بعل تُدعى إيزابل. ويبدو أن اسمها معناه «أين هو الأمير؟» وهي عبارة طقسية كانت قد قيلت في مراحل السنة عندما كان الإله بعل في العالم السفلي. وسرعان ما حملت هذه السيدة زوجها على عبادة إلهها وإقامة مذبح له في المعبد الذي بناه في السامرة، ودبرت قتل الأنبياء وأولادهم. فاسدة، فاسقة، حقودة، بهذه الصفات كان لا بد أن تستثير إيزابل سخط النبي إيليا الذي كانت قد حاولت اغتياله.

حين توقفت عبادة يَهُوه كإله وحيد امتلاً هيكل سليمان مرة أخرى بتماثيل آلهة أجنبية تضاعف عددهم على التل الذي سُمّي في ما بعد باسم جبل الزيتون. كل امرئ كان يمكنه أن يقدم قربان إلى الإله، الذي يعجبه، عشروت أو أشيرة إلهة الخصب، ملكوم إله الطبيعة، هدد إله القمر، كامور إله الطقس الحسن، مولوخ إله الطقس الرديء...

وفي المعابد التي بُنيت لهم كانت بغايا مقدّسات يقدمن خدمات «خاصة» جداً.

هكذا عُرفتُ، أنا أورشليم، بُعيد ذلك على أنني مدينة الفساد، والفجور، والقتل.

حوالي العام ٨٥٣- حدث أن استفاقت آشور من سباتها الطويل وقرّر ملكها شَلْمَنْصَر الثالث أن يستولي على مملكتي الحثيين والأراميين. إثر ذلك تحالف الأراميون مع مملكتي يهوذا وإسرائيل

لمقاومته، فخرج أحاب، ملك إسرائيل، لقتال شَلْمَنْصَّر على رأس جيش من عشرة آلاف جندي راجل وألفي عربية، وتمكّن من هزيمة شَلْمَنْصَّر في معركة قرقر. غير أن هذا النصر لم يعد عليه بالخير، ذلك أن التحالف بين مملكتي إسرائيل ويهوذا قد انفكّ وتمرد أتباعهما، وتوالت المعارك الأخوية يُذكيها قائد إسرائيلي يدعى ياهو مستاء من انحلال المملكتين. هل أصبح ياهو مجنوناً؟ كان يمكن أن يتساءل الناس عندما قتل في اليوم نفسه ملك يهوذا وملك إسرائيل، لأن رسولاً للنبي إيليا تنبأ أن مملكة شعب يَهُوَه ستكون له. وثالثة الأثافي أن ياهو أصبح بالفعل ملك إسرائيل العاشر.

لَمَّا أبصرته إيزابَل من أعلى قصرها، وقد جُنّت من الغضب، صاحت: «يا قاتلَ سيِّده!» عندئذ صعد إليها رجال ياهو وقتلواها. ثم أمر بلقائها من النافذة وداستها الخيل وعجلات العربات وأكلت لحمها الكلاب. هذا الموت الفظيع ألهم بعد بضعة قرون كاتباً فرنسياً كبيراً هو راسين الذي أعطى هذه البائسة إيزابَل مكاناً في مسرحيته: أتالي^(١).

لم يصل ياهو إلى ما كان يأمله، فعلى الرغم من انتصاره في قرقر أصبح تابعاً لشَلْمَنْصَّر، ويظهر في مسألة سوداء، أعلم أنها في لندن اليوم^(٢)، محاطاً بخدم يحملون الهدايا وهو راکع عند قدمي

(١) في الأصل Athalie. مسرحية تراجيدية بطلتها عَثْلِيَا زوجة يورام ملك يهوذا وابنه أحاب وزوجته إيزابَل. كانت تتصف بصفات أمها إيزابَل. ولما قتل ياهو ابنها الملك أخزيا قتلت هي كل أبناء ابنها ما عدا واحداً للتخلص من منافسيها على عرش يهوذا (المترجم).

(٢) اكتشفها أوستن هنري لايارد عام ١٨٤٦ في موقع نمرود في العراق وتوجد اليوم في المتحف البريطاني.

سَلْمَنْصَر. وينبغي القول إن ياهو هذا كان داهية. لكي يُظهر دفاعه عن يَهُوه، إله إسرائيل، دعا عبّاد البعل وكهنته إلى أحد معابدهم في السامرة معلناً أنه سيقدم بنفسه ذبيحة عظيمة للبعل فلما حضر جميع عبّاد البعل أمر بقتلهم وإحراق المعبد.

لم تكن إيزابيل الزنديقة الوحيدة في هذه القصة المجنونة، كان هناك أخريات أذكر إحداهنّ وهي على وجه الدقة عَثْلِيَا، تلك التي أصبحت فيما بعد بطلة مسرحية راسين أتالي. كانت زوجة يورام ملك يهوذا بين عامي ٨٤١-٨٤٨، وارتبط اسمها بالقضاء على كل النسل الملكي لداود مع أنها تنتمي إلى هذه السلالة! ونظراً لعدد زوجات سليمان السبع مئة وسُرّيّاته الثلاث مئة فالمذبحة كانت هائلة ربما. الناجي الوحيد كان رضيعاً يُدعى يوأش أخفي في أعماق الهيكل مع أن المبنى كان ممتلئاً بتماثيل بعل وآلهة أخرى أقامها الكهنة في خدمة عَثْلِيَا. بعد ست سنوات على ولادته دعا الكاهن الأكبر لِيَهُوه بقية الكهنة وأراهم يوأش وحلفهم يمين الولاء له وهتفوا بأعلى الصوت: «يحفظ الله الملك».

نُبّهت التظاهرة عَثْلِيَا فأسرعت إلى المعبد صارخة بأن ثمة مؤامرة عليها. عوملت بقسوة وجرّها الحرس إلى خارج الهيكل، وأخرجوها من المدينة وقتلوها. بعد ذلك طُرِدَ كهنة بعل من الهيكل أو تعرّضوا للإيذاء، وحُطّمت تماثيل آلهتهم وألقيت في الشارع.

في تلك المرحلة تصوّرتُ أن إيزابيل وعَثْلِيَا كانت تجمعهما نقطة مشتركة: كلتاهاما تُبغضان بغضاً شديداً العبادة الحصرية لِيَهُوه، وكلتاهاما حاولتا أن تستبدلا به آلهة أجنبية. وغالباً ما كنت أتساءل حول هذه الفرادة: أكانت هاتان المرأتان تكتّان حقاً كراهية خاصة لِيَهُوه، وفي هذه الحالة، لماذا؟ أم أنهما كانتا تحقدان على الكهنة

لأن هؤلاء كانوا من الذكور حصراً ويُبقون النساء بعيداً عنهم. السؤال جدير بالتأمل .

منذ أن اغتنت المدينة وتكاثر سكانها، أي منذ نهاية عهد داود، كنت مقرأً للتجمعات المنظمة؛ وهو ما يُسمى في اللغة المعاصرة «مجتمع». كانت في المدينة طبقتان: الأغنياء الذين يقيمون في الأعالى بالقرب من القصور الملكية كثيراً أو قليلاً، والمتواضعون أو الفقراء الذين يعيشون في سفوح التلال. كان الأغنياء أكثر انفتاحاً على الأفكار التحررية والحداثة؛ وكان الفقراء أكثر تعلقاً بالتقاليد. الأقوياء كانوا موضع انتقاد أو مديح. وكان أمرٌ ما قد ترك أثراً على كل المنازل، الغنية أو الفقيرة، بخصوص العدد الخارق للنساء اللواتي وضعهنّ سليمان تحت تصرّفه علانية. أولاً، كان القسم الأكبر منهنّ أجنبيات، الأمر الذي صدم التقليديين، تالياً، كانوا كثيرات بشكل غير معقول. ولاسيّما أن وفرة المخلوقات هذه تكشف عن احتقار سليمان للنساء اللواتي لم يكن يعتبرهن كائنات بشرية بل أشياء للمتعة. أما الكهنة فكانوا لا يرون في ذلك ما يستوجب اللوم. ألم تكن المرأة في نظرهم كائناً ثانوياً؟ ألم يخلقها يَهُوه بعد آدم؟ وبرهانٌ قاطع على التفوق الذكوري: أن يهوه لم يكن امرأة بل رجل، في التقليد الديني الذي جهدت في تكوينه المملكتان، يهوذا وإسرائيل، والذي ما إن دُوّن على رَقٍّ حتى أصبح «الأسفار الخمسة» حيث الرجال وحدهم جديرون بالاحترام.

غير أن الأمر مختلف في الأديان الأخرى. كان لديها آلهة من النساء مثل عشتروت أو أشيرة، والخدمة الإلهية كانت تقوم بها النساء.

لكن مع ذلك كانت هناك نسوة مميزات، مثل إيزابل وعَثليا،

عملن بجدّ لإدخال الطقوس الأجنبية إلى أورشليم والسامرة. هل كان اندفاعهنّ لتحقيق ذلك مستحقاً للوم؟ ما أنا إلا مدينة، وأترك الحكم للبشر.

في هذه المرحلة من سردي يجدر أن أوضح بعض النقاط. عندما أستعمل كلمة «مملكة» فإنما أفعل ذلك على سبيل التبسيط. في الحقيقة أن الأمر يتعلّق بكيانين مميّزين مؤلّفين من عشرات من القرى الفقيرة في الجنوب، بينما كانت الزراعة مزدهرة في الشمال الخصيب. ولا ينبغي في أي لحظة تصوّر أن داود وسليمان كانا يحكمان مملكة واسعة أنا مركزها وتضم مجموع الأراضي^(١). كذلك لم توجد في أي لحظة دولة - في مفهومكم الحديث - ذات بُنية تنظيمية. وأخيراً لم تشكّل المنطقة المسماة يهوذا في يوم من الأيام قاعدة سياسية واجتماعية واقتصادية قبل التوسّع الإمبريالي الآشوري في البلاد.

(١) يؤكد تاريخ الكربون ١٤ أن الهيكلية التنظيمية للمنطقة لا تعود إلى حكم سليمان بل إلى «مملكة» إسرائيل في الشمال. في الواقع لا يوجد أي أثر لهذا الملك الأسطوري الذي تصف التوراة ثروته مقارنة بثروات الحكام الإمبراطورين البابليين أو الفرس الأقوياء. الاستنتاج الذي لا يمكن تجنّبه والمزعج يدل على وجود كيان سياسي في يهوذا في القرن العاشر ق.م والمقصود مملكة صغيرة قبلية في أورشليم كانت عبارة عن قلعة محصنة.

Cf. Israël Finkelstein, Neil Asher Silberman, La Bible dévoilé.

(٦)

على مرّ الأيام بعد ولادتي شهدت ثمانية قرون من الحروب بين ممالك كنعان، ومن الدسائس والمنافسات الشخصية بين أسيادها، ومن المذابح التي تعرّض لها رعاياهم .

أنا التي كنت قد رأيت، وقلبي طافح بالحنان، الأولاد يركضون بين أشواك الأدغال، ويجنون الرنّد والقلقاس، بعد محاولتهم التقاط اليرابيع والقنابر، كان عليّ أن أشهد إعدامات جماعية بدافع الجشع والتعصّب .

آنذاك كان الشرق يتشكّل في التشنّجات مثل بقية أنحاء العالم طبعاً . كان الناس يتكاثرون، والممالك تكبر وتصبح إمبراطوريات، وأهواء أسيادها تتأجج .

أما أنا وقد رُقيتُ إلى مصافّ المُدن الكبرى، حتى وإن بقيت بابل أو صور أو ممفيس أكبر مني وأقوى، فصرت أكثر جذباً للمطامع . وكان الهيكل هو السبب الرئيسي . ومن يسمع الأحاديث التي كانت تدور في الأرياف والمُدن المجاورة يظنّ أن الهيكل يحتوي على كنوز العالم كافة . أكان سليمان قد أدّى لي خدمة بجمعه هذا القدر العظيم من الثروات في بيت الربّ؟ أفلا يمتلك هو، خالق الكون، ما يدّعون أنهم يقدمونه له .

حوالي العام ٧٢٣- رأى أحاز، ملك يهوذا، أن من حُسن التدبير أن يرسل إلى ملك آشور، تغلث فلاسر الثالث، قسماً كبيراً من ذهب الهيكل. كانت آشور تقف كالعملاق في الشمال، وأراد أحاز تهدئته بهذه الهبة.

غير أن مملكة إسرائيل كان لها رأي آخر وقررت أن تحمل السلاح وهذا ما يسمى في أيامنا هذه «الحرب الوقائية». وكان ذلك ضرباً من الحماقة: الملك سرجون، الذي خلف تغلث فلاسر الثالث، أنشب مخالفه فوراً وضمّ إلى مملكته التخوم الشمالية والشرقية. ولم يتوقف عند هذا الحدّ فساق رعايا مملكة إسرائيل البالغ عددهم ٢٧ ألف نسمة إلى إقليم عوزانا في بلاد ما بين النهرين. هكذا كنت شاهدة على أوّل إجلاء للسكان في التاريخ. بينما كان اليهود يساقون إلى المنفى كان مستعمرون موالون للتاج الآشوري، عبدة أصنام، يستقرّون في السامرة وفي الأراضي المجاورة آخذين بذلك مكان المنفيين.

حَزِنْتُ لما حلّ بهم. رأيت لاجئين من الشمال يتوافدون إليّ وكهنتهم يحملون معهم أولى الرقوق التي دوّنوا عليها أساطيرهم ليضمّوها إلى أساطير يهوذا.

لا تزال أسواري تردّد صدى حكايات الخوف والبؤس التي كان يرويها رجال ونساء وهم يتحلّقون حول النار. كم من عائلات دُمّرت! والحبل الذي كان يفصل منذ قرون بين مملكتي إسرائيل ويهوذا انقطع في تلك المحنة ولم يبقَ له من أثر إلا في أذهان بعض الكهنة والأعيان.

كان ثمة زوجان، من نسل حالم، إن لم يكن من نسل تسورياه (الفتاة التي سخرت من معركة داود وجوليات) لم يشهدا تلك

المأساة، لكنهما سمعا بها: كانت الشائعات سريعة الانتشار في هذه المنطقة من العالم. هذان الزوجان، على غرار عدد من إخوانهما وأخواتهما، لم يكونا ينتميان لا إلى مملكة يهوذا ولا إلى مملكة إسرائيل، فضلاً عن مملكتي أدوم وموآب.

كانا قد أقاما، مثل عدد من أبناء جلدتهما، في الشريط الساحلي لجنوب غرب أرض كنعان، أي في منطقة تحاذي البحر الأبيض المتوسط، من قطاع غزة إلى يافا اليوم.

لا أدري إن كان هؤلاء القوم سعداء. لكنني واثقة من أنهم كانوا يشكرون آلهتهم كلَّ صباح لأنهم ليسوا من أتباع يَهُوَه، مع استشعارهم أن طائفتهم لن تتأخر عن الذوبان في هذا المجتمع الفوضوي.

هؤلاء الذين كانت مدنهم حتى ذلك الوقت تغلب على الشريط الساحلي سوف يجبرون عاجلاً أو آجلاً على الخضوع للإمبراطوريات الإقليمية وسيأتي يوم لا أحد يتكلم فيه عن الفلسة، الاسم الذي أطلقوه على شعبهم.

كان يمكن الاعتقاد أن الهدوء سيسود أرضي مجدداً. لكن هذا من سوء فهم جنون الناس، جنونكم.

بعد وفاة سرجون تربع على عرش آشور ملك جديد هو سنحاريب. كان مغترّباً بنفسه إلى أقصى حدود الغرور تشهد على ذلك النصوص التي أمر بنقشها على ألواح الخزف:

«أنا سنحاريب، الملك الكبير، السيد القوي، قائد العالم، ملك الجهات الأربع، الراعي الصالح، محبوب الآلهة... من البحر العلوي إلى مغرب الشمس، من البحر السفلي إلى مشرق الشمس، ما من كائن بشري لم يركع أمامي».

كان يجدر به أن يتباهى على هذا النحو ففي غضون قرن تقريباً كانت آشور قد أصبحت قوة عظمى تمتد من الخليج الفارسي إلى قبرص غرب دلتا النيل، أي كامل المنطقة التي سُميت من بعد باسم الهلال الخصيب. كانت غنية، تعتمد على زراعة واسعة وتجارة مزدهرة، وكانت جيوشها ضخمة وجيدة التسليح. أخيراً، لا بدّ من الاعتراف بأنه كان قائداً عسكرياً مُحْتَكاً. عندما نزل على طول السواحل الشرقية للبحر المتوسط، عام ٧٠١- لم يَقوَ أحد على مقاومته، أو لا أحد تقريباً.

غالباً ما أسمع أناساً يُبدون سخطهم من قساوة شخصيات معاصرة، وما ذلك إلا لأنهم نسوا أو تجاهلوا المذابح التي ارتكبتها سنحاريب في أيامه. أترك له الكلام:

«لقد أجريت دماءهم في الوديان وفي منحدرات الجبال. قطعْتُ رؤوس المهزومين وكوّمتها أمام مدنهم. أحرقْتُ كل منازلهم. لم أترك أي أثر يدلّ على أنهم كانوا أحياء. أقمت عموداً أمام باب المدن سجنْتُ فيه إلى الأبد بعض النبلاء، وخوزقتُ آخرين. كلُّ النبلاء سُلِخَتْ جلودهم أحياء. كثيرون بُتِرْت أذرعهم وسيقانهم، وفي بعض الأحيان قُطعت أيديهم فقط، أو أنوفهم، أو آذانهم. وأمرت بإحراق أبنائهم وبناتهم.»

وفي بعض الأحيان كان جميع السكان يختفون نتيجة بطش جيوشه. والحكايات التي تروى عن هذه المجازر والتي نقلتها المخطوطات إلى الأجيال التالية تملأ صفحات وصفحات. أتوسّل إلى الناس في عصركم أن يتراجعوا عن الحنين إلى الماضي.

أنا، أورشليم، رأيت الكثير من مشاهد الرُّعب حتى لأقول أحياناً إنني لو كنت عمياء وخرساء لكنت أكثر سعادة.

في قائمة تَبَجَّحات سنحاريب التي لا تُحصى تَبَجُّحٌ واحد لم يجرؤ على أن ينطق به، وهو أنه لم ينجح في الاستيلاء عليّ. غير أن ذلك لم يمنعه من الإعلان:

«أخذت من حزقيّا ملك يهوذا وأورشاليم الثالث عشر مئتي ألف أسير، صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، أحصنةً وبغالاً وحميراً وجمالاً، وماشيّةً كثيرة لا حصر لها. وجعلته سجيناً في أورشاليم، مقرّه الملكي».

قلّما تتّصف كائنات السلطة بحسّ الدقة: لم يوجد هذا العدد من الناس في كل مملكة يهوذا. في المقابل أقام عليّ الحصار الذي يتباهى به، لكنه اضطرّ إلى رفعه بعد ذلك. كان الانسحاب غير قابل للتفسير على ما يبدو، لكن ثمة قصة مفضّلة في السرديات الشعبية تقدّم، في اعتقادي، مفتاح اللغز: كان جيش من الفئران قد هاجم الآشوريين. بمعنى أن وباء الطاعون اجتاح معسكراتهم.

ذات صباح، رأى سكاني من أعلى الأسوار مئات الجثث مطروحة في الأسفل وحفاري قبور يسقطون أحياناً في الخنادق التي كانوا يحفرونها. أما الأحياء فكانوا لا يقوِّضون المعسكر بل يولّون الأدبار تاركين خيمهم.

كان فصلاً باذخاً للنسور والجِدّان.

أخيراً أخلّى الدُّعر شوارعِي. وللمرّة لأولى أمكن للعائلات أن تجتمع مساء لتناول طعام العشاء من دون أن تفكر في أنه قد يكون العشاء الأخير.

استؤنفت التجارة مع الجزيرة العربية واستطعنا أن نستعيد شيئاً من الرخاء. لكن لا أحد كان مخدوعاً: أوّل نفّي للسكان أظهر لنا أننا أصبحنا قوة من الدرجة الثانية في الشرق. وعلى الرغم من كل

لعنات الأنبياء لم يستطع ملوك يهوذا وإسرائيل أن يرفضوا لسادة نينوى عبادة الآلهة المبجلين في آشور. هكذا بُنيت مذابح وحتى هياكل جديدة على التلال المحيطة بي وكان المؤمنون يقدمون فيها قرابين لشمس، إله الشمس، وعشتار، إلهة السماء، وبعل وآلهة أخرى. حتى أن مَنْسَى الذي خلف حِرْقِيَا أباه كان مجبراً على أن يقيم تمثالاً للإلهة عشتروت في بهو هيكل الإله الأوحد.

كان بإمكان الأنبياء، مثل أشعيا، أن يعلنوا النهاية القريبة لمملكة آشور، وكانت لا تزال بعيدة.

«إذا كان المساء حلَّ الرُّعب، ثم لا يطلع الصباح إلا وقد زال، هذا نصيب ناهينا وحظُّ ساليينا»^(١).

في عام ٦٨١-، بعد أن قتل أسرحدون أباه سنحاريب - كان ذلك من العادات المألوفة - وخلفه على العرش، هبط إلى مصر واحتل مصر السُّفلى. وأصبحت ممفيس مدينة آشورية. وبعد ثلاثين سنة جاء دور طيبة لتكون من ضمن الإمبراطورية الآشورية الممتدة حتى النوبة.

لا أنا ولا سكاني كان يمكننا أن نتجاهل هذه الأحداث لأن مصيرنا قد يتوقف عليها. كنا نستمع وقد انعقدت حناجرنا إلى حكايات وأخبار التجار القادمين من الجزيرة العربية التي كنا نتاجر معها، ونبقى أحياناً غير مصدقين: الآشوريون في مملكة سبأ؟ كان العالم قد تغيّر على نحو مذهل. وكان زمن الخروج بعيداً بالتأكيد. لكن بقيت نبوءة أشعيا.

(١) نبوءة أشعيا، ١٤/١٧ (المترجم).

في عهد الملك آشور بانيبال أصبحت الإمبراطورية الآشورية كبيرة جداً حتى لتتعدّر السيطرة عليها: هاجمها ثائران هما ساكسار الميدي، ونبوخذ نصر البابلي. احتلّت بابل. وفي عام ٦٢٥ أصبح نبوخذ نصر، القائد الكلداني، ملكاً عليها، كما أصبح ملك عيلام وبلاد ما بين النهرين وسوريا وكنعان كلها.

دُمّرت نينوى الزاهية عاصمة آشور، كما دُمّرت المدن الآشورية كلها، بما فيها حرّان، حيث سمع إبراهيم صوت الربّ. نينوى خراب؟ لم تكن يوماً مدينة صديقة، غير أن مصيرها روّعي.

عادت الليالي البيض تؤرقنا. إن لم تستطع آشور الدفاع عن مَدنها، فكيف لمملكة يهوذا الضعيفة أن تحميني؟ لن يكون بوسع ملوكها الدّود عني. كان مَنْسَى قد عزّز دفاعاتنا وأسوار المدينة، غير أننا لم يساورنا الوهم حول مقدرتها على الصمود أمام هذه الجيوش الضخمة التي تتدفّق من الشمال. وابنه آمون الذي كان يعبد بعل حكم أقلّ من سنة، قبل أن يتأمّر عليه خدمه ويقتلوه في بيته، وكان ابن أربع وعشرين سنة.

خلفه ابنه يوشياّ وبه بدأ عهد يمكن لبعضهم أن يعتبروه رمز القساوة والتعصب، في حين يعتبره آخرون العهد الأكثر ورعاً وتقوى. ما إن تولّى الحكم حتى أمر بتدمير كل المعابد والتماثيل العائدة لآلهة أجنبية لا في يهوذا وحدها بل في ما تبقى من مملكة إسرائيل أيضاً. ثم نبش قبور الموتى المجاورة وألقى عظامهم للكلاب. وفي غمرة اندفاعه أمر بقتل كهنة الطقوس الأجنبية وإحراق جثثهم على مذابح يَهُوه. هل أذعن يوشياّ سريعاً ومن دون تبصّر لإيعاز الأنبياء إرميا وناحوم وحبقوق الذين أرادوا تطهير البلاد من كل تأثير أجنبي،

لاسيما تأثير مصر وآشور؟ من جهتي، قدّرتُ أن هذه الممارسات لا تفيد إيمان ولا تسامح المؤمنين بيّهوّه. لكنني كنت على خطأ حتماً، لأن التوراة تعتبر أنّ هذا الملك هو الأتقى والأكثر إحساساً بشريعة موسى من جميع مَنْ سبقه من الملوك.

ومع ذلك كان الفرعون نخاو الثاني قد نبّهه: العدو الحقيقي هو بابل وليس الآلهة الأجنبية. غير أن يوشيا المولع بالاستقلال الديني والسياسي لم يُصغ إليه. ولم يبقَ له إلا أن يتلو نحيب إرميا: «لا تبكوا على المَيّت ولا ترثوه، بل ابكوا على الزاهب الذي لا يرجع بعدُ ولا يرى مسقط رأسه»^(١).

تميّز عهد يوشيا بحدث خارق ومن أجل ذلك كان اسمه هو الأكثر شهرة بين ملوك يهوذا. كان قد صمّم على ترميم الهيكل، وفي عام ٦٢١ وقع على اكتشاف مُذهل: وجد في كهف لم يكن موضع شُبّهة قط كتاباً مجهولاً يتضمن شريعة يّهوّه وهي ما يُسمّى اليوم سفر التثنية. وكان منسوباً إلى موسى.

(١) نُبوّهة إرميا، ١٠/٢٢ (المترجم).

(٧)

ذات يوم سوف يؤلّف حَوَارِيٌّ يهوديٌّ متمرّد على سلطات الكهنة المُفرطة كتاباً رهيباً هو «نهاية العالم»^(١) يحدّد فيه مكان هذه النهاية. نهاية عالمٍ حدثت بالفعل في مَجْدُو.

كان فرعون مصر نخاو الثاني قد أعلن الحرب على بابل. والحقيقة أنه أراد أن يُنجد الآشوريين الذين اجتاحتهم الجيوش البابلية بقيادة نبوبولاصر^(٢)

للوصول إلى العدو، اجتاز ساحل كنعان وفينيقيا. هل ظنّ يوشيا ملك يهوذا أنه يتعرّض للهجوم؟ مهما يكن من أمر فقد سار على رأس الجيش لمجابهة المصري في . . . مَجْدُو، على مسافة ١٣٠ كيلومتراً شمال أسواري. خسر الشقيّ المعركة وحياته معاً ولم يجد المنتصرُ أية صعوبة في اقتحام أسواري. ثم أقام على العرش يوياقيم ابن الملك المقتول، وتابع تقدّمه نحو الشمال وكان ذلك في عام ٦٠٩ قبل العصر الحديث.

بعد أربع سنوات، قام خليفة نبوبولاصر بهجوم مضاد وهزم

(١) المقصود سفر إرميا أو نبوءة إرميا، في التوراة (المترجم).

(٢) أحد ملوك الإمبراطورية البابلية الثانية، ووالد نبوخذ نصر (المترجم).

المصريين في كركميش^(١) ببلاد ما بين النهرين .

اسم هذا الخليفة يعرفه الجميع : نبوخذ نصر الثاني . حتى أن مؤلفاً موسيقياً إيطالياً شهيراً ، يدعى فيردي ، كرّس له أوبرا «نبوخذو» التي سُررت بسماعها عندما أتاح لي أحدهم الفرصة لذلك .

في بابل ، أمر هذا الملك ببناء معبد للإله مردوخ ، حامي المدينة ، على شكل هرم من سبع طبقات يُعرف بزقورة مردوخ و«البيت - الأساس بين السماء والأرض» . هذا الصرح لا يزال موضوع أساطير كثيرة : من بينها أنه برج بابل . وهذا خطأ بالطبع . صحيح أنهم كانوا يتكلمون فيه بالسنّة كثيرة ، هي لغات البلدان الخاضعة لسيطرة بابل ، لكن الجميع كانوا يتفاهمون . وكان التآكل الذي أصاب هذا الصرح بفعل الزمن هو السبب الوحيد لاندثاره .

أنا ، كنت في حالة ذهول . كان العالم السياسي ، والديني ، والعقلي ، الذي تشكّل ببطء منذ أيام داود يتداعى . وكان ملوك أجانب ووثنيون ينصبّون على عرش مملكتنا من يشاؤون من أتباعهم . لكن هل كان قد بقي لكلمة «مملكة» من معنى ؟ ولما كانت آشور ، الدولة التي تحكمتنا بالفعل ، قد غرقت في هاوية التاريخ ، أصبحت بابل هي التي تسيطر علينا الآن .

لم يدم ملك يوأخاز ، ابن يوشيا وخليفته ، أكثر من أربعة أشهر وعمل على إعادة الشعائر الوثنية لملوك يهوذا القُدماء . ثم عزله الفرعون نخاو الثاني ونفاه وأقام يوياقيم أخاه مكانه . وكان هذا أيضاً طائشاً أعمى البصيرة عن واقع الشرق ومُغترباً مثل كثير من الملوك . أمر ببناء قصر جديد لأن قصر سليمان لم يعد يكفيه . واليوم لم يبق

(١) Kerkemish كركميش هي جرابلس . مدينة سورية تقع في نقطة عبور هامة على نهر الفرات بين تركيا وبلاد الشام (المترجم) .

من ذلك القصر سوى أنقاض على طريق بيت لحم. وكان يويقيم هو أيضاً مولعاً بالنبوءات والمعتقدات السلفية والخرافات، فقرر إحراق نبوءات إرميا. وأضاف الإذلال إلى الكُفر بفرض الجزية على الشعب لإرسالها إلى نخاو الثاني.

لا يُخدع الربُّ بالبُلهاء: نزل نبوخذ نصر من سوريا التي كان قد بلغها وسار بجيشه على طول السهل الساحلي للبحر المتوسط مجتاحاً في طريقة المدن الفلسطينية الغنية. ولم تؤدِّ نداءات الاستغاثة التي أطلقها يوياكين (الذي خلف أخاه الذي مات فجأة) للحصول على مساعدة المصريين إلا إلى زيادة الهشاشة السياسية لملك يهوذا الجديد هذا.

أطبِق الفُحَّ البابلي عليّ.

مصائب ونكبات!

نبوخذ نصر بذاته هاجمني فيما كان ضبَّاطه يحاصرونني. ولم يكن أمام يوياكين من خيار سوى الاستسلام، هو، وأُمُّه، وضبَّاطه، وحاشيته، وخصيانه، وأمر ملك بابل بسجنهم.

ما إن استقرَّ أسيادي الجُدد حتى شرعوا في تدمير قُدس أقداس الإسرائيليين: الهيكل! كانت تلك على وجه اليقين أكثر اللحظات مدعاة للحزن في تاريخهم. لقد استولى البابليون على جميع كنوز الهيكل وحطموا نفائسه.

وفي الوقت نفسه أخذ نبوخذ نصر يوياكين وأسرته وحاشيته وجميع النبلاء أسرى إلى بابل وكان عددهم حوالي عشرة آلاف نسمة. وأخذ معهم الحدادين وصنَّاع الأقفال وجميع الرجال القادرين على حمل السلاح حوالي ثمانية آلاف نسمة. ولم يُترك في البلاد إلا أكثر السكان فقراً.

حدث ذلك في العام ٥٩٧-.

الأحياء العُليا من مدينتي حيث كان يقيم الأغنياء خلت من أهلها فجأة. في الماضي كان هؤلاء الرجال الذين يُساقون إلى المنفى أرباب أسر، وموظفين في الدولة، وتجاراً، أي أنهم كانوا مُعيلين لأسرهم. كانوا يتركون وراءهم نساء وأطفالاً لم تعد لديهم وسائل لتحصيل القوت. رأيت أمهات أسر يبعن ما تبقى لهنّ قبل أن يصبحن فقيرات يبحثن عن مورد رزق. ولم يكن ما حلّ بنا سوى حدثٍ عابر قياساً على ما كان ينتظرنا.

أقام نبوخذ نصر مكانَ يواكين المنفيِّ صِدْقِيَا الذي أُجبر على الذهاب إلى بابل لتقديم مراسم الطاعة لسيّده. وعندما اكتشف صِدْقِيَا عظمة وقوّة عاصمة بلاد ما بين النهرين أدرك ما كان ينتظر مملكة يهوذا: السحق الكليّ.

كانت للأنبياء حصّة الأسد في ذلك الوقت، على الرغم من عدم توافقهـم دائماً في نظراتهم إلى المستقبل. كان منهم اثنان على الأخص تباريا في إطلاق اللعنات والتكهنات المتناقضة. أحدهما كان يدعى حَنّيا ويدّعي أن يَهُوَه أنبأه أنه سوف يسحق ملك بابل «من الآن إلى سنتين سوف يعيد الربُّ جميع الكنوز المسروقة إلى أورشليم ويعيد في الوقت نفسه النساء والرجال والملك المنفيين».

النبي الآخر هو إرميا الذي ذاع صيته عبر الزمن، والذي سخر قائلاً: «آمين! ليحقّق الربّ الكلمات التي نطقت بها وليُعيد إلى هذا المكان أواني الهيكل وكذلك المنفيين». لكنه سارع إلى القول إن الوحيد الذي سيعود هو نبوخذ نصر، ليستولي على كل ما لم يكن قد أخذه. واشتدت الخصومة بين الرجلين لدرجة أن إرميا أنبأ حَنّيا أنه سيموت في تلك السنة؛ وهو ما حصل فعلاً.

عندما رجع صِدْقِيًّا من بابل أخذ بوجهة نظر حَنْثِيًّا الذي أوصى بالتحالف مع مصر لمقاومة نبوخذ نصر، بل للقضاء عليه. أما إرميا الفلق على بقاء المملكة فأوصى بالتحالف مع بابل.

لا ربَّ في أننا يَبِّنا على وجه اليقين أن الأنبياء كانوا في الواقع الناطقين الرسميين باسم الأحزاب السياسية أكثر من كونهم ناطقين باسم الربِّ.

لسوء حظي كان رأي حَنْثِيًّا هو الراجح: دعا صِدْقِيًّا المصريين لنجدته. كان يعتقد، على غرار يوشيا وآخرين، أن القوة العسكرية للفراعنة لا يمكن مقاومتها كما كانت من قبل. وعندما وصلت الأفواج التي أرسلها الفرعون تدهور الموقف جداً، فالقوات البابلية التي علمت بتمرد صِدْقِيًّا اقتربت على نحو خطير من قلعتي لاكيش وعسقلان.

أما سُكَّاني، الذين كانت حالة الحصار الذهنية عندهم قد سبقت حالة الحصار العسكرية فكانوا نُهبَةً للقلق إذ لم ينقض أكثر من عشر سنوات على استيلاء نبوخذ نصر على المدينة. كان بعضهم يريد أن يهرب وبعضهم الآخر يخزن المؤن. واتَّهم إرميا بالفرار والخيانة لصالح نبوخذ نصر وأُلقي في السجن. وكان ذلك أحد الفصول الأكثر عبثية في حياتي الطويلة: إرميا متهم بالتحالف مع واحد من أسوأ الطغاة في التاريخ!

في غضون ذلك تحققت نبوءاته. بعد أن حوّل الجيش البابلي لاكيش وعسقلان إلى رماد عاد نحوي. عندئذ أخرج صِدْقِيًّا النبي من سجنه وسأله:

- أما زال الرب يكلمك؟

- نعم، قال لي إنك ستقع في يد ملك بابل.

استشاط أعداء إرميا غضباً وأقسموا أنه يستحق أن يُلقى في بئر،
فسمح صديقاً لهم بذلك .

الجوع، لا، بل المجاعة كانت تعيثُ فساداً. أمام عيني
المخضلتين بالدمع رأيت عائلات اقتصر غذاؤها على حَساء القش
المغلي. وكان ثمة نساء قانطات يخرجن ليلاً ليعن أجسادهن لجنود
العدوّ مقابل بعض الأقوات. وأطفال يموتون على رُكب أمهاتهم.
عندئذ أدركت أن لا أحد يستطيع بعدُ أن يدافع عني .

مَنْ لم يعيش حالة الحصار لا يعرف ما تعنيه: أن يُدفن المرء حياً
في قبر .

كان العسكر البابلي ينهب الحقول، والمدن الريفية تسقط
الواحدة تلو الأخرى. مرّ صديقاً وجماعته من بابي الجنوبي، قُرب
بركة سلوان، غير أن الجنود البابليين رصدوه، وكان على ملك يهوذا
السابق أن يشهد عاجزاً قطع رؤوس أبنائه قبل أن تُسَمَل عيناه .

في المقابل أمر نبوخذ نصر جنوده أن يُحسنوا معاملة إرميا . ربّما
كان يُكرمه لحكمته؟ وعندما وجدوا النبيّ العجوز في بئرهِ خيروه بين
أن يذهب إلى بابل أو أن يبقى في وطنه فأثر البقاء .

يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع، كنت أفكّر في هؤلاء
التعساء الذين يسلكون مجدداً الطريق الذي سلكه من قبل إبراهيم
وأهله وهذه المرة ليس من أجل الحصول على الحرية وفتح البلاد بل
للسقوط في العبودية. كانت مدة أسرهم طويلة، لأن نبوخذ نصر
حكم أربعاً وأربعين سنة ومات بعد أربع وعشرين سنة من تدميري .
كان حِسُّه الملكي أكثر تطوراً من حِسِّه العائلي: وجد ابنه عامل
مردوخ غير جدير به فألقاه في السجن. هذا الابن لم يتبوأ العرش
أبداً .

أُطِيعَ بِالسَّلَالَةِ الْمَلِكِيَّةِ . وَالْمَلِكُ الْجَدِيدُ نَبُونِيدٌ^(١) آخِرَ مَلُوكِ بَابِلَ ، أَطَاحَ بِالْإِلَهِ بَعْلَ - مَرْدُوخَ مِنْ عَرْشِ السَّمَاءِ وَأَحْلَى مَكَانَهُ سَيْنَ إِلَهَ الْقَمَرِ . هُنَا تَدَخَّلَتْ مَصَادِفَةٌ أَجْدَاهَا خَارِقَةٌ . كَانَتْ أُمُّ نَبُونِيدَ مِنْ حَرَّانَ - الْمَدِينَةِ الَّتِي انْطَلَقَ مِنْهَا إِبْرَاهِيمَ - وَكَانَتْ شَدِيدَةَ التَّعَلُّقِ بِعِبَادَةِ سَيْنَ : وَهُوَ الْإِلَهُ الَّذِي كَانَ السَّبَبُ فِي تَمَرُّدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَى وَالِدِهِ . يَبْدُو لِي أَنَّ هَذِهِ عَلَامَةٌ مِنَ السَّمَاءِ : الْإِلَهُ الَّذِي تَسَبَّبَ فِي هِجْرِهِ جَمَاعَةُ الْخَابِرُو هُوَ الَّذِي أَشْرَفَ عَلَى نَهَايَةِ سُلَالَةِ عَدُوِّهِ . لِأَنَّ نَبُونِيدَ لَنْ يَكُونَ لَهُ وَرِثٌ .

حَوَالِي الْعَامِ ٥٣٩ - سَارَ بِجَيْشِهِ نَحْوَ الشَّمَالِ لِقِتَالِ الرَّجُلِ الَّذِي سَوْفَ يُخْضَعُ الْعَالَمَ الشَّرْقِيَّ عَنْ قَرِيبٍ : قَوْرُشَ الثَّانِي الْكَبِيرَ ، مَلِكِ الْفَرَسِ . أَثْنَاءَ غِيَابِ نَبُونِيدَ سَلَّمَ ابْنَهُ بِيْلشَاصَّرَ مَقَالِيدَ الْحَكْمِ ؛ وَهُوَ الَّذِي سَوْفَ يُعْرَفُ فِي مَا بَعْدَ بِاسْمِ بِلْتَازَارَ عِنْدَ الْأَوْرُوبِيِّينَ .

مَسَاءَ يَوْمٍ مِنْ ذَلِكَ الْعَامِ ، ١١ تَشْرِينَ الْأَوَّلِ ٥٣٩ - قَرَّرَ بِيْلشَاصَّرَ أَنَّ يَقِيمَ مَأْدُبَةً كَبِيرَةً ؛ قَرَارَ وَقَعَ عَلَى الْأَقْلِ لِأَنَّهُ اتَّخَذَ عَشِيَّةَ هَزِيمَةً وَالِدِهِ أَمَامَ الْجَيْشِ الْفَارْسِيِّ . لَكِنْ رُبَّمَا لَمْ يَعْلَمْ بِهَا؟ وَأَيَّامًا كَانَ الْأَمْرُ فِيهَا أَثْنَاءَ هَذِهِ الْوَلِيمَةِ وَقَعَ حَدِثٌ أَصْفَهُ بِغَيْرِ الطَّبِيعِيِّ : عِنْدَمَا كَانُوا يَقْدَمُونَ الْخَمْرَ فِي كُؤُوسِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ الْمَسْلُوبَةِ مِنَ الْهَيْكَلِ كَتَبَتْ يَدٌ مَجْهُولَةٌ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ عَلَى جِدْرَانِ الْقَاعَةِ :

«مَنَا مَنَا ثَقِيلَ وَقَرَسِينَ»

لَطَالَمَا تَسَاءَلْتُ عَنْ مَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ، وَلَمْ أَكُنِ الْوَحِيدَةَ الَّتِي تَفْعَلُ ذَلِكَ . وَفَقَّأَ لِبَعْضِ التَّفْسِيرَاتِ الْحَدِيثَةِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْأَرْبَعِ أَسْمَاءَ أَوْزَانٍ مُسْتَعْمَلَةٍ عِنْدَ الْيَهُودِ : «مَنْ ، مَنْ ، شَاقِلَ وَنِصْفَ مَنْ»^(٢)

(١) Nabonide هو صهر نبوخذ نصر، زوج ابنته نكتوريس (المترجم).

(٢) قاموس الكتاب المقدس، وزن (المترجم).

وتعني: «مقيس، موزون، معدود»، أو «إن كنا مؤمنين، أحصى الله أيام ملكك وأنهاها»^(١).

مصادفة أم لا، في اليوم التالي ١٢ تشرين الأول، كان قورش الكبير أمام المدينة واستولى عليها من دون قتال أو تقريباً: وقُتِل بيلشاصر.

وكانت نهاية بابل.

(١) نبوءة دانيال، ٢٦/٥ (المترجم).

(٨)

مصائب المدن الأخرى لم تسرني يوماً، علاوةً على أنها تعلن في غالب الأحيان عمّا سيحلّ من مِحْنٍ جديدة. أنتنّ، أيتها العواصم الأجنبية، تُدركنّ ما أقول. أنت، أيُّ روما، التي رأيت جياذ أتيللا تشرب من أجران المعمودية في الفاتيكان. أيُّ باريس، التي احتلتك الأرواح الشريرة وأجبرت على أكل الفئران. أيُّ لندن التي دمّرتك القنابل لكنك لم تحني رأسك أبداً. أيُّ ليننغراد التي عانيت سبعة عشر شهراً من الحصار. في المجاعة، والظلمة، ورائحة الموتى، الحمقى وحدهم يعتقدون أنهم انتصروا علينا. قبل أن يأكل الموتى البقايا الأخيرة لهياكلهم العظمية نُذكي نحن جمرات أرواحنا ونولد من جديد.

حتى في أسوأ اللحظات في مصيري كنت على الدوام مقتنعة بأن ليس بوسع أحد أن يصرعني وأنني سأبقى على قيد الحياة مهما اشتدّت الصدمات. مثل زوجة مُعتّقة، مُهانة، سوف أبقى واقفة، لا أقهر. من أين جاءتني هذه القناعة؟ أقولها من دون ادّعاء: لأنني أعلم على وجه اليقين أنني مُختارة من قِبَلِ الرَّبِّ. مختارة لأمثل الأديان التوحيدية الثلاثة ولأؤي في عُقر دارى الأنبياء الكبار الثلاثة. وأنا، مهما يُقل، لست لأبيّ واحد منهم، وإنما لجميعهم. مثل

الإنسان المصنوع من عدة أعضاء، لكنه لا يملك إلا قلباً واحداً، أنا، أورشليم، قلب العالم.

والبرهان على ذلك مَنْ كان يتصوّر بعد الكارثة التي حلّت بي، وبعد أن شهدت نفي سكاني، وبعد المجاعة، والعطش، واليأس، عادت الشمس لتشرق في سمائي بين ليلة وضحاها؟
تطلب الأمر مجرد مرسوم:

«هكذا قال قورُش، ملك فارس، جميعُ ممالك الأرض قد أعطانيها الربُّ، إله السموات، وأوصاني بأن أبنّي له بيتاً في أورشليم التي يَبْهودا. فَمَنْ كان منكم من شعبه أجمع، فإلهه يكون معه، فليضعدْ إلى أورشليم التي في يهوذا ويبنّ بيتَ الربِّ، إله إسرائيل، وهو الإله الذي في أورشليم. وكل مَنْ بقِيَ في أحد الأمكنة حيثُ هو نزيل هناك، فليمُدّه أهلُ مكانه بالفضّة والذهب والمال والبهائم، فضلاً عمّا يتبرّعون به لبيت الله الذي في أورشليم»^(١).

نعم، كانت هذه كلمات قورش الكبير، المكتوبة بُعيد احتلاله بابل. ما كدْتُ أصدّق. ما من نبيّ تكهّن بمثل هذا التغيّر المفاجئ في الموقف ولا تجرّأ على التكهنّ. لم يكن الإيمان يَبْهوه هو الذي أملى على قورش هذا القرار الذي لا يُصدّق، لأن إلهه كان مردوخ. ربّما كان يأمل في اعتراف البلاد التي أعاد إليها مسجونها بجميله عليهم؟ أم أنه، ببساطة، كان ملكاً يحترم معتقدات وتقاليد الشعوب الخاضعة له؟ أفلا يُكرم بذلك أيضاً الإله بعل الفينيقي، والإله مازدا في فارس^(٢).

(١) سيفر عَزْرَا، ١-٥ / ١ (المترجم).

(٢) أهورا مازدا، هو الإله الأوحد الذي يمثل الخير عند الزرداشتيين. يخالفه دائماً إله الشرّ أهريمان (المترجم).

كانت مدة النفي ثماني وأربعين سنة، أي ما يقارب نصف قرن .
كانت العودة أكثر تعقيداً، لا بل إشكالية، كما كنت أتوقع وكما
روتها التوراة. أمرٌ غريب. رفض غالبية المنفيين أن يعودوا إلى
البلاد. لقد غابوا عنها زهاء نصف قرن، وأسّسوا أُسراً في بابل،
ونينوى، وفي المدن الأخرى، وأدار أبناءهم أعمالاً تجارية وأثروا.
كانت توجد أيضاً مراكز للتعليم الديني استمرت لعدّة قرون.
وأصبحت بابل في العصور الوسيطة وما بعدها حتى قيام الخلافة
العباسية مركزاً للتعليم الديني اليهودي.

كانت إمبراطورية قورش الممتدة من بحر إيجه إلى نهر السّند
تُقدّم للمهجرّين أفاقاً أوسع من تلك الموجودة في كنعان القديمة،
المحصورة بين فينيقيا وبلاد أخرى أكثر عدائية أو أقل. ماذا يفعلون
في عودتهم إليّ، وقد التحق آخر أقربائهم بأسلافهم الموتى؟ يعيدون
بناء الهيكل؟ بعد انقضاء عشر سنوات على عودة المنفيين لم يُقطع
حجر واحد لهذه الغاية.

قيل لي إن بعض المنفيين ذهبوا نحو بلدان آسيا الخاضعة
لقورش. ألا نجد اليوم في كشمير الهندية أثراً تاريخياً مكرّساً
لسليمان؟^(١)

هل نسوا إذن ما جاء في مطلع سفر إرميا حيث ترد كلمات
الرسالة الشهيرة التي وجهها إليهم النبيّ، الذي بقيّ في يهوذا، في
أثناء النفي الأول:

(١) هو أثر على شكل برج مبني على تل شرقق سرينغار، يُعرف محلياً باسم
«عرش سليمان» وعليه نقش باللغة الفارسية القديمة.

«كيف نُنشِدُ نشيدَ الربِّ، ونحن في أرض الغُربة؟ إن نَسيتُك يا
أورشليم، فلتُشَلِّ يميني، وليلتصِقْ لساني بِحَنَكِي، إن لم أذكرك، إن
لم أرفعِ أورشليم إلى أوجِ فرحي»^(١).

عرفتُ نساءً كن يذهبنَ باكِياتٍ لانتظار أولئك الين كانوا يعودون
مع ذلك إلى البلاد آمِلات أن تجدنَ ابناً بل حفيداً، واللواتي كن
يذرفن الدموع في المساء. لا، لم يعد أحدٌ من أفراد العائلة.

غالباً ما كان يُسمع عند أبواب الشمال:

- هل رأيت ابني داود بن ياكيم؟

- لا ...

تسأل امرأةً أخرى:

- هل رأيت أخي شلومو بن مينيث؟

- عرفت شخصاً بهذا الاسم ... لم يرغب في العودة ...

- حدّثني عنه.

والمرأة الحزينة تعلم أن أباها تزوّج في بابل امرأة كلدانية وأنه
أصبح غنياً، وأن ابنيه الكبيرين أصبحا من صاغة الملك ...
ربما كان هذا أفضل لهم.

كان أول ما يشغل العائدين هو الحصول على سقف يُؤويهم.
منزل فلان كان قد دُمّر؟ ليكن، لكنّ أباه كان يملك قطعة أرض. ثم
إن كل شيء كان قد أُتلف ولم يبق من أثر ملكية صالح.

- ماذا تخبرنا؟ عندما ذهب والدك وإخوته لم تعد هذه الأرض
ملكاً لأحد. أنا الذي رفعت الأتقاض وبنيت منزلي.

(١) المزمور ١٣٧ / ٤-٦ (المترجم).

- لكن أخي الأصغر، الذي كان آنذاك قاصراً، بقي في أورشليم! كان وريثه وكان عليك أن تعلم ذلك.

- قلت لك إنه لم يوجد أحد في المكان! كان السكان قد ذهبوا للعيش في الحقول تحت الخيام.

عندئذ تدور مناقشات حامية خصوصاً عندما يكون الوافدون الجدد مُتَمِينين إلى عائلات المدينة العليا، الأكثر ثراءً في أورشليم أو يهوذا، والذين تركوا وراءهم ممتلكات قيّمة، منازل وأراضي زراعية. إذا كانت مطالبات بعضهم تبدو مقبولة، ولا شك في هويتهم، فالأمر مختلف بالنسبة إلى آخرين، كأولاد المنفيين المولودين في نينوى أو بابل الذين يعودون بعد عشرين أو ثلاثين سنة ويطالبون بميراث آبائهم.

- كيف يمكنك أن تُثبت أنك أنت الشخص الذي تذكره؟ كانوا يردّون بحسم.

- لأن والدي أقسم لي أنه كان يملك حقول قمح في الشرق.

- لكن كثيرين كانوا يملكون حقول قمح في الشرق! وقد تم توزيعها جميعاً. كان يجب أن نبقي أحياء.

إلى عامل الريبة هذا يُضاف سبب آخر، لا يُعلن عنه صراحة: الذين بقوا في المكان كانوا يشتبهون في أن كثيراً من العائدين أصبحوا ذوي «دم مُختلط»، أي هُجَناة، لا يعرفون التقاليد، ويُنتعون بـ«الغرباء» من قِبَل أولئك الذين يقولون عن أنفسهم إنهم «شعب الأرض»، و«حرّاس التقليد».

هذه التغيّرات لم تقتصر على مملكة يهوذا بل طاولت مملكة إسرائيل أيضاً. قبل قرن تقريباً أقام فيها الملك الآشوري أسرحدّون، ابن سنحاريب، مستعمرات. في سياق هذا المزيج اختلط شعب

مملكة إسرائيل مع آشوريين وكذلك مع فلسطينيين وفي غضون ذلك تحوّل دينهم؛ الأمر الذي ترتبت عليه نتائج في المستقبل، كما سأوضح في ما يأتي.

هكذا شهدت انقسام السكان الذين عرفتهم في الماضي. أخ كان قد تزوج آشورية وآخر فتاة فلسطينية، وكان عليهما أن يُغيّرا الأسماء والأقارب من الدرجة الأولى الذين يُعتبرون بمثابة دُخلاء. ودرءاً لمخاطر الإغراء لم تعد العائلات المفككة تتلاقى.

مات قورش حوالي العام ٥٣٠ قبل العصر الحديث، وسُجّي جثمانه في تابوت ذهبي. وكما يحدث غالباً ظن أتباعه أن بإمكانهم الانعتاق من سلطته. لكن خاب أملهم. تسلّم زمام السلطة مغتصب، ابن حاكم مقاطعة، وأصبح بعد بضع سنوات على رأس إحدى أكبر الإمبراطوريات التي عرفها العالم، والتي تمتد من تراقيا ومصر غرباً إلى هندوكوش شرقاً. هذا الرجل اسمه داريوش، الذي أصبح داريوس^(١)

بنى عاصمة رائعة هي بربوليس وفرض النظام على ممالك كانت على الدوام مسرحاً للفوضى وحافظ على تنظيمات قورش بخصوص رعايا إسرائيل ويهوذا.

كان قورش قد أعطى المنفيين العائدين إلى البلاد أموالاً لكي يعيدوا بناء الهيكل. والغريب أن هذه الأموال لم تُستخدم لهذه الغاية. لكن حوالي العام ٥٢٠- أي بعد ثماني عشرة سنة على صدور مرسوم قورش، استدعى الملك رجلاً يدعى زُربابل وهو حفيد ملك يهوذا يوياقيم.

(١) هو دارا الأول، ويسميه الفرس داريوش الكبير، الملك الأخميني الثالث. حكم من ٥٢١ إلى ٤٨٦ ق.م (المترجم).

عندما مثل بين يدي داريوس أمره أن يأخذ معه إلى أورشليم آية الذهب والفضة العائدة إلى الهيكل والتي استولى عليها نبوخذ نصر وأن يشرع مع الكاهن الأكبر يوشع في إعادة بناء الهيكل.

كما يمكنكم أن تتخيلوا، استقبل القرار عندي بتظاهرات الفرح. وتوقعت أملاً جديداً هو الأمل بمنقذ يحلّ فينا إلى الأبد هذه المرة. سيكون هذا المنقذ هو زُّربابل؟ لا أستطيع أن أجيب لأنني لا أتمتع بموهبة التنبؤ. لكنّ كثيراً من الناس اعتقدوا ذلك.

بدأ السكان الذين بقوا والذين عادوا من المنفى ببناء نُصب المُحرقة. ثم إن إعادة بناء الهيكل فرضت نفسها على الجميع مع أنها مشروع ضخم. وشاركت مملكة إسرائيل نظيرتها يهوذا في الحماس لبناء الهيكل.

وهنا برزت صعوبات جديدة.

فيما كان زُّربابل ويوشع ينظمان عملية رفع الأنقاض، ويستدعيان مهندسين وبنائين وبأمران بشراء خشب الأرز من فينيقيا، أراد السامريون أن ينضموا إلى المشروع. كانت السامرة قد أصبحت أكثر أهمية مني، لا لأنها لم تتعرض لما تعرّضت أنا له من دمار فحسب، بل لأنها تحوّلت إلى مركز تجاري مزدهر أيضاً. والمفارقة أن حاكم أورشليم كان يُقيم في السامرة. كل ذلك منح السامريين الأفضليّة وأظهروها.

لم يحسن زُّربابل ويوشع استقبالهم. كانت حجّتهما أن السامريين لمّا كانت دماء أجنبية تسري في عروقهم فقد نسوا شريعة موسى وأفسدتهم الطقوس الأجنبية. علاوة على ذلك رأى الرجلان أن مرسوم قورش يخوّلهما وحدهما دون سائر الناس حق إدارة الأشغال مع العمال الذين يختارونهم.

«ليس لكم ولنا أن نبني معاً بيتاً لإلهنا»، قالوا .

السامريون الذين كانوا يلقبون بـ «أولئك الذين يحرسون» ما يعني «حراس الإيمان الحق» لم يستلطفوا هذه العبارة التي يعتبرونها إهانة لهم، كيف لا وهم يعتبرون أنفسهم «أبناء إسرائيل»، أي الممثلين الحقيقيين للدين الأصلي، المنحدرين من سبطي أفرام ومنسى . لعلهم لم يكونوا على خطأ؟ بعد كل شيء، عندما أقام يوشع في بلاد كنعان، ألم يجعل إدارته في شكيم - مدينة نابلس الحالية - في الوادي القائم بين جبل جَرزِيم^(١) وجبل عيبال^(٢) حيث تتمركز جميع مذاهب الإسرائيليين^(٣)؟

- كيف تجرؤون! صاح أحد السامريين، المدعوّ يورام، في حين أننا على العكس منكم، أنتم الذين تدنّستم بالأديان الأجنبية، نصلي ونغني ونُجَلُّ تماماً كما كان يفعل موسى!
- أكاذيب! أجاب زُرْبابل، أنتم لستم يهوداً حقيقيين، ما أنتم إلا ذرية وثنيين عبدة أصنام. أنتم هراطقة.

- يا لسفالتكم! ردّ السامري محمراً من الغضب. هل يجب أن أذكرك أن جبل جَرزِيم حيث نعيش يقع بالضبط وسط الأرض المقدسة، وأن اسمنا «شومرونيم» مشتقّ من كلمة «شومر» ومعناه «حرس» ما يُثبت أننا وحدنا حُرّاس الشريعة! ثم إن جبل البركة

(١) في الأصل Mont Garizim. ويطلق عليه أيضاً اسم جبل الطور أو جبل البركة. يقع جنوبي مدينة نابلس (المترجم).

(٢) في الأصل Mont Ebal. جبل عيبال يطل على مدينة نابلس ويسمى أيضاً الجبل الشمالي. وهو أعلى قمة في سلسلة جبال نابلس الممتدة من الناصرة إلى مشارف القدس (المترجم).

(٣) إلى الآن يمتلك السامريون جنسية مزدوجة فلسطينية وإسرائيلية.

الوحيد يوجد في جَرزِيم لأن يوشع هو الذي بناه بيديه بأمر من الله .
- وأنتم تُنكرون التوراة .

- بالعكس، تدخل سامري آخر، نحن نعترف بالكتاب المقدس
الوحيد، أسفار موسى الخمسة، والدليل أنه مكتوب باللغة العبرية
القديمة بينما كتابكم مدون باللغة الكلدانية. وعدا ذلك نحن نحترم
السبت ونُعَيِّد مثلكم أيام الحج الثلاثة والموادِم الأربعة^(١)، و...
قاطعهُ جوسويه :

- لِئِنَّه هذا النقاش الممل، ما أنتم إلا جنس دنس! إما أن
تترجعوا عن تحريم جبل جَرزِيم وإما أن تذهبوا من هنا! مجرد
وجودكم هنا إهانة للأبدى.

ما إن قيلت هذه الكلمات حتى عمد السامريون إلى منع إعادة
البناء وفي الوقت نفسه كتبوا إلى ملك الفُرس يتهمون اليهود بـ «إعادة
بناء المدينة المتمردة والمنحرفة» مؤكدين أن السامريين لن يدفعوا
العزية إذا ما أُعيد بناء المدينة ورُمّت الأسوار.

لَمَّا علم داريوس بذلك حدث ما لا يُصدّق، فقد استخدم هذا
الملك الذي يعبد آلهة أجنبية سلطته من أجل استئناس الأشغال على
وجه السرعة. أمر: «فَلْيَبْنِ والي يهوذا بيت الربّ هذا. أنا،
داريوس، قد أمرتُ بذلك. فليُنقذ على وجه السرعة».

كان داريوس يحترم دين نبيّ يُدعى زرادشت، ويؤمن بوجود إله
واحد ولا يوجد آلهة غيره، هو أهورا مازدا، الذي قاتل للسيطرة على

(١) في الأصل Hagim (بصيغة المفرد «حج») مثل العربية ويعني الحج إلى
الأماكن المقدسة. يطبق في المراسم الاحتفالية لمن يريدون الحج إلى بيت
حميكداش (هيكل) لاورشليم. أما كلمة موادِم (Mo'adim) فتعني حرفياً
«استسلم» مع الأبدى، ولكن أيضاً مع الطائفة الإسرائيلية، مع قريك.

العالم ضد إله شرير هو أهريمان. لعلّ هذا الدين لا يختلف كثيراً عن دين مملكتي إسرائيل ويهوذا؟

استؤنف البناء واختفى زُرُبابل عن المسرح. هل مات موتاً طبيعياً؟ هل اغتيل؟ لا أدري. يبقى العمل الرئيسي: اكتمل بناء الهيكل في العام ٥١٦-.

كان من المفترض أن يكون هذا الحدث لحظة للمجد والأمل. لم يكن كذلك. حتى أن بعض العجايز الذين يتذكرون الهيكل الأول دمعت أعينهم.

هناك دائماً مستأثرون في أفضل الظروف وتقتضي الحكمة تجاهلهم فهم بگاؤون محترفون. يبقى أن أولئك الذين لم يعمر الإيمان والأمل صدورهم في أثناء تدشين الهيكل الثاني كانت لديهم أسباب وجيهة لذلك: أولها أن الصّرح نفسه كان يفتقر إلى الوقار المأمول. من ذلك مثلاً أن قُدس الأقداس لم يعد مفصلاً عن القاعة الكبرى بباب بل بستارة بدلاً منه، ثم إنه كان فارغاً، لأن تابوت العهد قد اختفى. السبب الثاني هو أن الوصول إليه كان صعباً لأن الطُّرق كانت مسدودة بالرُّكام أو غدت غير سالكة بسبب الأشواك.

أبلغ الملك الفارسي أرتخششتا الأول، حفيد داريوس، بحقيقة الوضع. كان في خدمته ساقٍ، موضع ثقة، من سبي يهوذا، يُدعى نَحْمِيَا، لم يرغب في العودة إلى البلاد. وكان نَحْمِيَا قد تلقى رسائل من بعض الأصدقاء أو الأقارب: لا تدعو للتحمّس. كنت قد خسرت مكاني كمدينة داود، والهيكل لا يثير الانفعال، وشوارعي يعيث فيها الرعاع ويشيعون عدم الأمان.

كان الوضع خطيراً على الأقل لأن مصر كانت تبدي علامات

على الرغبة في الاستقلال وكان الفُرس يعتزمون تعزيز مواقعهم تحسباً
لهجوم عسكري من هذا البلد نحو الشمال.

أرسل إليّ نَحْمِيَا مكلِّفًا بأجراء تحقيق وإعادة الازدهار إلى
أورشاليم. كان ذلك حوالي العام ٤٣٨ - . بدأ بالتجنيد وتشكيل
جيش بمباركة الملك، واتخذ قراراً مثالياً لا يُنسى: قام بتعبئة مجموع
السكان. كل رجل أصبح مدافعاً وعاملاً في خدمة أورشاليم معاً.

«فلنتهض ولنبن!» صاح شيوخ المدينة.

كانت لديّ أسباب للأمل. لعلمي أعود ذات يوم مدينة داود.

(٩)

كان لعطف الفُرس على منفيي إسرائيل ويهوذا نتيجة غير متوقعة: جعل أسياد أورشليم الجدد غير متسامحين حيال العائدين الذين استسلموا للتأثيرات الأجنبية ولاسيما الدينية منها. بعد انقضاء أكثر من نصف قرن على بناء الهيكل الثاني تلقى كاهن ما زال يعيش في بابل، يُدعى عَزْرَا، من الملك أَرْتَحْشَشْتَا الرسالة التالية:

«من أَرْتَحْشَشْتَا، ملك الملوك، إلى عَزْرَا الكاهن كاتب شريعة إله السماء، سلام كامل، أمّا بعد، إني أصدرتُ أمراً أن كلّ مَنْ شاء في مملكتي، من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين، أن يرجع إلى أورشليم معك، فليرجع. لأنك قد أرسلت من عند الملك ومشيريه السبعة، لتتفقّد يهوذا وأورشليم على حسب شريعة إلهك التي بيدك [. . .] وكل مَنْ لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك فليحكّم عليه حُكماً شديداً»^(١).

التوقيت يدلّ على أنّ عَزْرَا لا يمكن إلا أن يكون مولوداً في المنفى، في طائفة بعيدة عن أرضها الأصلية، ولم يكن متشوّقاً للعودة إلى مدينة الهيكل. بعد أن عاش في بلاد تسمح بجميع الطقوس كان المتوقع منه أن يكون أكثر انفتاحاً، وكان العكس تماماً. إنفاذاً لأمر

(١) سفر عَزْرَا وَنَحْمِيَا، ٧ / ١٢ (المترجم).

الملك الفارسي عاد مصحوباً بجماعة من اليهود المنفيين الذين قرروا الرجوع إلى يهوذا أخيراً. ظننتُ أنه سوف يختنق حالما يصل إلى المدينة. ماذا إذن؟ كان شعب إسرائيل والكهنة وحتى خدام الهيكل يشاركون جيرانهم في «قبائحهم»، يتزوجون نساءهم ويختلطون بهؤلاء السكان الملحدين؟

بعد أيام على عودته دعا جميع العائدين وأبنائهم للاجتماع في ساحة الهيكل؛ ومن لا يأتي يعاقب بمصادرة أملاكه. أمام هذا التهديد المتطرف لم يتخلف أحد عن الحضور على الرغم من هطول المطر و«من الفجر إلى الظهر» راح عَزْرًا يتلو عليهم نصوص الشريعة التي جاء بها موسى. وطلب من جميع الذين كانوا قد عقدوا زيجات غير متكافئة، أي تزوجوا نساء لا يعبدن إله موسى الوحيد يَهُوَه، أن يطلقوهن وأن يتخلوا عن أبنائهم منهنّ.

وأطاع الشعب.

هل أراد ارتحششتا ذلك حقاً؟ لا أعلم، وإن كان يريد ذلك ففي اعتقادي أن لديّ مبرراً للارتياب في نيّات هذا الملك، لأنه يعزل أورشاليم وشعبها عن جيرانهم. هكذا فسخ نحو مئة من هؤلاء زيجاتهم وتخلّوا عن أبنائهم. كانت تلك شريعة الربّ، كما أعلن عَزْرًا.

لطالما تساءلت عمّا إذا كانت شريعة موسى التي طبّقها عَزْرًا بكثير من التشدّد توافق شريعة الربّ حقاً. لماذا أراد الخالق أن يُفرّق بين الزوج وزوجته؟ أليس جميع البشر على الأرض هم أبناءه؟ والربُّ الذي خلق الجنس البشري هل أراد أن يعزل سكان أورشاليم والسامرة عن بقية العالم؟ يؤرّقني سؤال آخر: الأنبياء الذين ينطقون باسمه هل فهموا جيداً رسالته؟

بطل آخر لهذه الرواية، هو نَحْمِيَا الذي كان ساقياً لأرتحششتا، سمع هو أيضاً بالبؤس الذي أصاب سكان يهوذا والحالة السيئة التي كنتُ عليها. بلغ من التأثير حداً دفعه إلى أن يلتمس من سيّده الفارسي الإذن للعودة إلى مملكة يهوذا لكي يشارك في إعادة إعمارها. لم يكتفِ أرتحششتا بالموافقة بل عيّنهُ والياً على المدينة. بُعيد وصوله، حوالي العام ٤٤٥ قبل العصر الحديث، دعا نَحْمِيَا الشعب إلى المشاركة في الجهد الجماعي لإعادة بناء أسواري: «لِنَبْنِ سور أورشليم ولا نكون عاراً بعد اليوم»، قال لهم مشجّعاً. عمل نَحْمِيَا أيضاً على مراعاة القوانين الاجتماعية، شاجباً بوجه خاص أولئك الذين يمارسون الربا وحضّهم على أن يردّوا إلى الفقراء أراضيهم، ومن جهة ثانية أبقى هو أيضاً على منع اليهود من الزواج بنساء أجنبيات.

لمن يتساءلون عن تساهل ملوك الفرس حيال الإسرائيليين عليّ أن أذكّر بأن ذلك لا يعود البتّة إلى شعور بالتعاطف مع هذا الشعب، لكنه يندرج ببساطة في سياق حساب سياسي يهدف إلى خدمة مصالح الإمبراطورية ليس إلّا. وإذا ما كان الملوك الفرس يتقبّلون، بل يشجّعون، الطقوس المحلية فما ذلك إلا لضمان ولاء المقاطعات المفتوحة.

انقضى قرنٌ كامل من دون حدث مهم. كانت الإمبراطورية الفارسية مثل أقمشة فاخرة يقرضها الوقت على نحو غير مرئي وتمزّق فجأة في يوم عاصف.

هذا اليوم العاصف كان له اسم: الإسكندر. كان أبوه، فيليب الثاني المقدوني قد نجح في توحيد المدن - الدول اليونانية ويستعد للهجوم على فارس. لكن الوقت لم يُسعفه. لقد اغتيل في عام

٣٣٠- أثناء حفل زفاف ابنته على أحد الضباط. والحال أن الإسكندر أخذ على عاتقه مشروع الهجوم. اجتاز مضيق الدردنيل وبحر إيجه لينزل جنوب الأرض الراسية العظيمة التي تسمى اليوم «تركيا». كانت تلك البلاد تحت سيطرة الفرس؛ ولم تبق كذلك طويلاً، ففي العام ٣٣٣- هُزم جيشهم وفرّ ملكهم.

تابع الإسكندر تقدّمه نحو مُدن الساحل، صيدا، جبيل، صور، غزة... واحتل مصر وأسس فيها منافستي الكبيرة، تلك التي سرعان ما تفوّقت عليّ. وكانت تحمل اسمه طبعاً: الإسكندرية.

استمرّ المقدوني في مسيرته المظفرة فاتجه شرقاً وشمالاً حتى بلغ الهند، وأراد أن يمضي نحو نهر الغانج، آخر العالم، كما كان يعتقد، إلا أن قادة جيشه لم يوافقوا وأجبروه على أن يعود أدراجه.

لم يكن قد توقف عندي للحظة. وهذا ما أغاظ أسيادي، كيف أمكن لهذا الفاتح الشهير أن يزدرى مدينتهم؟ وفي غفلة من التاريخ انبرى بعضهم إلى اختراع زيارة قام بها الإسكندر وأجرى في أثناءها محادثة مع الكاهن الأكبر سيمون العادل، وقدم ذبيحة لإله إبراهيم، وقيل إنه اعتنق الديانة اليهودية! حتى أن مؤرخاً معتبراً مثل يوسيفوس فلافيوس يذكر ذلك في مؤلفه «عاديّات يهوذا» في العصور الوسيطة. عرفت هذه الأسطورة رواجاً كبيراً وكانت موضوع اقتباسات عديدة وإعادة كتابة، ولاسيما في الروايات الفرنسية في القرن الثاني عشر التي تنقل في مصنّفات شعرية ملحمة الفاتح المقدوني الكبير^(١).

(١) حول هذا الجدل، يُرجع إلى نص إيزابيل فابر: «اعتناق الإسكندر الكبير الديانة اليهودية: تغيرات وتحولات أسطورة في روايات الإسكندر الفرنسي في القرن الثاني عشر».

أؤكد لكم أن الإسكندر لم يظاً يوماً أرضي . هل يمكن أن نتصور لقاء أكثر استحالة من لقاء هذا البطل المقدوني الكبير المندفع لفتح آسيا، والمولع قبل كل شيء بمجده وإنجازاته العسكرية، مع ممثلي شعب سامي صغير حامل للديانة التوحيدية؟ أيمكننا بوجه خاص أن نصدّق للحظة، مع علمنا، وإن بصورة إجمالية، بالسياق التاريخي وبشخصية البطل، هذه «الخرافة السخيفة» عن تحوّل القائد المقدوني إلى عبادة إله التوراة الوحيد، الذي «سيخضعه لمجده وقوّته؟» .

لم نكن مركز العالم، لا أقوياء ولا أغنياء، ولا لنا نفوذ ديني حتى . كنا قد أغلقنا الباب في وجه العالم مانعين حتى الزواج من أولئك الذين يمارسون طقوساً أجنبية . كان من المفترض أننا مكتفون ذاتياً، وأخشى أننا كنا مدّعين . أردنا أن نحمي إيمان موسى . في ما بعد سيأتي آخرون ليُثبتوا أن هذا الإيمان يوحد الإنسانية جمعاء . أبناء سام ويافت هم أهلنا أيضاً، إلا إذا كنا نريد للجنة نوح على حام، والد كنعان، أن تستعيد قوّتها .

على الرغم من أن المقدوني لم يتخطّ عتبي فقد نشر نور اليونان على كامل منطقة البحر الأبيض المتوسط . وأصبح الناس بعد ذلك بقليل يتكلمون اللغة اليونانية على طول سواحل هذا البحر وعلى ضفاف نهر الفرات حتى نهر النيل . وأمسك التجار اليونانيون بمقاليد التجارة مع الجزيرة العربية . وأصبحت غزّة وإيلات مدينتين

Isabelle Fabre: «La conversion d'Alexandre le Grand au judaïsme: transpositions et avatars d'une légende dans les Romans d'Alexandre français du XII^e siècle», dans la revue électronique «Cahiers d'Études du Religieux Recherches interdisciplinaires» (ISSN 1760-5776) du Centre Interdisciplinaire d'Étude du Religieux.

مزدهرتين . والعُملة التي تحمل صورة البومة الصَّمْعَاء، طائر إلهة الحكمة، جرى تداولها في كل مكان حتى عندي .

طبعاً، يتشاطر اليونانيون أخطاء الآخرين . عندما مات الإسكندر في عام ٣٢٣- تقاسم قواده الإمبراطورية وتنازعوا في ما بينهم .

برز اثنان من هؤلاء القادة، الأول يدعى سلوقس مؤسس السلالة السلوقية الحاكمة . عُيِّن مَرزُبَان^(١) بابل، أي «حامي المملكة» أثناء تقاسم الإمبراطورية، وما لبث أن أعلن نفسه ملكاً حوالي العام ٣٠٥-، واستولى على الأراضي التي تُعرف الآن باسم سوريا، والعراق، وإيران، وحتى جزء من أفغانستان، على الرغم من أن الإسكندر نفسه كان قد حذّر بحكمة قائلاً: «البكتريان - كان ذلك اسم هذه البلاد - بلاد نمرّ بها ولكن لا نتوقّف فيها» . عندما أرى ما حدث في تلك البلاد أتساءل إن لم يكن المقدوني ذا رؤية مُنذرة . . .

القائد الآخر، بطليموس، كان هو أيضاً قد عُيِّن مَرزُبَان مصر . هو مؤسس السُّلالة البطلمية الحاكمة، أو اللاغوسية نسبة إلى أبيه لاغوس، وكان قد أعلن نفسه ملكاً في عام ٣٠٥- . عندما علم بأن الموكب الجنائزي لسيدته، الذي كان قريبه أيضاً، كان في طريقه إلى اليونان انطلق من الإسكندرية وأعاد جثمان البطل لكي يضعه في تابوت زجاجي وسيفه إلى جانبه . قيل لي آنذاك إن القبر كان بالقرب من البحر على بُعد مئة ذراع من عمود بومبي^(٢) . لكن لم يُعثر عليه مطلقاً .

(١) Satrape في الأصل، والكلمة مأخوذة من لقب المرزبان الفارسي، ومعناه الرئيس، أو الفارس الشجاع المقدم على القوم، وهو دون الملك في الرتبة (المترجم) .

(٢) La colonne Pompée، عمود روماني يعرف اليوم بعمود السواري، اسم =

كما كان متوقفاً لم يكف بطليموس وسلوقس عن التنافس لإعادة تشكيل الإمبراطورية الكبرى التي توحد فارس ومصر. وأنا، أورشليم، وضعتُ بين الاثنين، أي بين المطرقة والسندان، وبطبيعة الحال سوف أخضع لنفوذهما وهيمتهما.

في أحد أيام الجمعة من العام ٣٠١ قبل العصر الحديث وقف بطليموس أمام أسواري وأثار عاصفة من الذعر. ما الذي أراده هذا اليوناني إن لم يكن احتلالي؟ خلافاً لكل توقع أعلن بطليموس أن رغبته الوحيدة هي أن يدخل بسلام إلى المدينة من أجل السبت لتقديم قربان إلى إله اليهود. ظن الكهنة أن في الأمر خديعة. ربما كانت خديعة. حالما غربت الشمس معلنة نهاية السبت أطلقوا نداء للقتال حاثين جميع الرجال القادرين على القتال أن يأخذوا أسلحتهم. خطأ فادح! اندفعت قوات بطليموس وفي بضع ساعات تمّ نهبي وتدميري بالكامل و-كان ذلك قد أصبح طقساً- سيق نصف سكاني لا إلى بابل هذه المرة بل إلى الإسكندرية، حيث سيكونون في أصل الطائفة اليهودية الكبرى الناطقة باللغة اليونانية التي استمرت هناك حتى منتصف القرن العشرين.

كان الشبان هم المنفيين طبعاً: الشعر الرمادي والنهدان المتهدلان يجنبانكم بؤس الاضطرار لترك كل شيء وراءكم، الثوب الذي كان يخاط للابنة، والعربة الخشبية المتقنة التي كانت تجمع للابن، أو القمح الذي كان يُنقى من أجل حساء الغد. فجأة أصبحت مدينة هرمة حيث الولادات نادرة أو معدومة.

= أطلقه عليه العرب، وهو بالأصل عمود الصواري سُمي بذلك نظراً إلى ارتفاعه، وسُمي عمود بومبي لأن بعض الأوروبيين ظن أن رأس القائد الروماني بومبي الذي قتل في مصر قد وضع في جرة فوق تاج العمود (المترجم).

علمتُ بعد وقت قليل، من قِبَل بعض التجار ورجال القوافل الذين يتوقفون عندي لملء قِربهم بالماء النмир، أن الإسرائيليين المنفيين إلى الإسكندرية ليسوا بحالة سيئة وذلك لسبب وجيه: كان بطليموس الثاني فيلادلفوس يطبّق عليهم سياسة التساهل نفسها التي طبقها قورش. يُروى أنه كان يقبل تحرير المنفيين وحتى أنه أرسل كمية من الذهب لزينة الهيكل في أورشليم. ولم يكن المنفيون أكثر ميلاً للعودة إلى البلاد من منفيي بابل القدماء. تعلموا التكلم باللغة اليونانية كما كان أسلافهم قد تعلموا اللغة الآرامية واللغة الفارسية، واندفعوا في الأعمال التجارية متكيفين تماماً مع روح المدينة.

لا يمكنني أن أصف ضخامة الظاهرة عندما أقول إن الشرق أصبح يونانياً.

أعطي مثالين على ذلك: الطقس الشعبي الخاص بالاستعراض والطقس الخاص بالرياضة.

كان يمكن الخشية من تظاهرة لمنفيي يهوذا وإسرائيل، مهما كانوا مندمجين جيداً مذكاً، في أثناء الاستعراض الذي ينظمه بطليموس الثاني نفسه على شرف إله الخمر ديونيسوس. كان يُرى فيه قرية هائلة مملوءة خمراً، وفيلة، تلك الحيوانات الضخمة التي كان الإسكندر قد جلبها من الهند، وها هي الآن ترفل مجللة بالذهب والفضة، وقضيب منتصب طوله خمسون متراً، وراقصون شبه عُراة يغنون مسرّات السكر والجماع. أعتقد أن عَزْرًا لو رأى هذا المشهد لانهاه باللعنات إلى ما لا نهاية وأمر حملة إيمان موسى بالعودة إلى البلاد والتكفير عن ذنوبهم بالصلوات، والتقسُّف وتقديم الأضحيات جراء المشاهد الخليعة التي تجرّؤوا على مشاهدتها. لم يكن عَزْرًا هناك، ولم يحدث شيء من هذا القبيل.

فرض اليونانيون أيضاً الميل إلى المشهد وإلى المسرح البعيد عن
سُنَّة موسى كل البُعد.

المثال الثاني: الميل إلى الرياضة. حتى ذلك الحين كان
المحاربون المحترفون وحدهم هم الذين يمارسون التمارين
الجسدية، وهو شيء كان غريباً عن ثقافة يهوذا وإسرائيل مثل تمجيد
الجسد، لكن كانت في الإسكندرية مدارس رياضية حيث كان الرجال
يتمرنون على القفز، والركض، والمصارعة، ورمي الأقراص،
والغريب أنهم كانوا يفعلون ذلك وهم عُراة... ويشكلون فرقةً
تتنافس في ما بينها. حتى أنهم أقاموا تماثيل لأبطال هذه الرياضات.

الشبان المتحدرون من يهوذا وإسرائيل ومن سكان القرى
الساحلية تبنوا على الفور هذا النشاط الجديد، ولكن بالإضافة إلى
ذلك وصل هذا النشاط إلى فلسطين المجاورة ومُدن يهوذا وإسرائيل.
وثلاثة الأثافي أن بعض الكهنة أخذوا يمارسون التمارين الرياضية،
وبنوا مدرسة رياضية قرب الهيكل، وشكلوا فرقةً وتحذوا مُدن
فلسطين وفينيقيا في مباريات رياضية. أولم يُروا وهم يسرون في رتلٍ
تلقي جائزة في هيكل ملكارت في صور؟

نتيجة غير متوقعة لنجاح الرياضة: المنتسبون الجُدد إلى ألعاب
القوى اكتشفوا أن زملاءهم اليونانيين وغيرهم لم يكونوا مختونين،
والحال أن عملية الختان هذه كانت تُعتبر إحدى علامات التحالف
بين يَهُوَه وشعبه، وعلى الفور أدان الكهنة المستاؤون ما اعتبروه تمرداً
على الرب.

كل هذا لم يحدث عندي، أنا أورشليم، إلا بعد بضع سنوات،
عندما بلغ الأطفال الذين تركوا إيتان عملية النفي التي نظمها بطليموس
الأول سِنَّ المراهقة. كنت أراهم وهم يتمرنون في الحقول، أسفل

أسواري، على رمي الأقراص، كرات العجين في هذه الحالة، أو يتسابقون. يفعلون كل ذلك وهم شبه عراة أو عراة تماماً، وكانت الفتيات يختلسن النظر إليهم وهنّ متواريات طبعاً.

وأنا؟

أنا، كنت قد أصبحت مدينةً - دولة، أتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي في نطاق إمبراطورية بطليموس. وكان كهنتي يبذلون جهودهم للحفاظ على التقاليد القديمة. وسُمح لوزراء المالية عندي بصكّ عملة تحمل نقشاً باسم «يهود»، يهوذا.

كان لديّ ملوك لم يتركوا أثراً يُذكر عدا محتال صغير يدعى يوسف بن طوبيا، كان مطلعاً على عالم السياسة الغامض نسبياً في ذلك العصر. حدث ذلك حوالي العام ٢٣٠ قبل العصر الحديث.

أُبرم اتفاق بين السلوقيّ أنطوخيوخس واللاغوسيّ بطليموس الثالث يتم بموجبه زواج كليوباترا، ابنة أنطوخيوخس، من بطليموس. واتفق على أن تكون العائدات المجيبة من أنحاء الإمبراطورية ثمن مهر بطليموس. وعندما بلغ النبأ مسامع الكاهن الأكبر يوناتان رفض رفضاً قاطعاً أن يدفع العشرين تالاناً^(١) المطلوبة منه. ردّ بطليموس الثالث قائلاً إنه في حال استمرار الرفض سوف يقسم يهوذا بين المستوطنين الأجانب. وألحّ سكانني اليائسون على يوناتان كي يتراجع عن المقاومة ولكن من دون جدوى.

لماذا كان يوناتان الثاني يرفض أن يدفع الجزية في حين أن الصراع كان غير متكافئ؟ كان ذلك بالتأكيد مجرد شحّ بأموال

(١) وحدة وزن يونانية قديمة تساوي من ٢٠ إلى ٢٧ كلف (المترجم).

الهيكل. وتجدر الإشارة إلى أن يوناتان كان رجلاً طمّاعاً بوجه خاص ومحدود الذكاء.

هذا الموقف المتهوّر جعله عرضة للوم من قِبَل صهره يوسف بن طوبيا. سارع هذا إلى عرض المخاطر الكبرى التي يتعرض لها جراء هذا الموقف إلا أن يوناتان لم يشأ أن يصغي له، ولما يتس منه يوسف بن طوبيا قرّر أن يذهب بنفسه إلى الإسكندرية لكي يتفاوض مع الملك اللاغوسي.

وصل إلى المدينة في اليوم الذي يجري فيه بطليموس مزادات غير مألوفة: كان يمنح المرشحين الذين يدفعون له الجزية الأكبر الأراضي الأوسع. أي أنه يبيع ممالك لأعلى مُزايد. كانت تلك طريقة جديدة للحُكم. عندئذ عرض يوسف بن طوبيا مبلغاً هائلاً للحصول على حق الولاية على سوريا الداخلية، وفينيقيا، وجنوب فلسطين، ويهوذا والسامرة. على أنه لم يكن يملك قرشاً واحداً، وقد سخر منه السوريون، وعندما طلب منه الملك رهائن يكونون ضماناً للجزية المطلوبة أجابه يوسف: «لا أحد عندي أقدمه لك إلا أنت نفسك وزوجتك». كان يمكن لوقاحة كهذه أن تُهلكه! غير أن بطليموس وجده ظريفاً. وفاز الثعلب بالصفقة وعاد إلى أورشليم، يرافقه ألفا جندي من المشاة مكلفون بتأمين سلامته. وقد فرض سلطته بيد من حديد عليّ وعلى مُدن المنطقة.

هذا الرجل كان شخصية جذابة على الأقل. في الإسكندرية أُغرم بممثلة كوميدية، لكنّ عندما كان ثملاً ذات مساء استبدل أخوه بالممثلة ابنته هو فأغرم يوسف بها أيضاً. والحال أنه تزوج ابنة أخيه، الأمر الذي يعزّز الأسرة الحاكمة.

نتج من هذا الزواج الأشبه بسفاح القُربى ولدٌ هو هيركان الذي

ساوى والده في العُنف الذي مارسه حكومته وفي ميله إلى الأُبْهة .
وقد امتدحه المؤرِّخ فلافيوس يوسفوس . وانتهى به المطاف بأن هزمه
والده ، ومات منتحراً في القصر الذي بناه على تخوم الجزيرة العربية .
بذلك استولى يوسف بن طويبا على مقاطعة في ما يُسمَى الأردنّ
اليوم .

على الرغم من أن هؤلاء الملوك حكموا داخل أسواري فلن
أُتأخر في القول إنهم لم يضمّنوا استقلالي الذاتي مطلقاً ، لأنهم كانوا
بالضرورة ألعوبة بيد ورثة الإسكندر المتنافسين ، البطالمة
والسلوقيين ، وميزتهم الرئيسية أنهم وضعوا حداً للتعصّب الكاره
للأجانب تقريباً الذي حاول أن يفرضه عَزْرًا وَنَحْمِيًا وشرّعوا أبوابي
أمام التأثير الإغريقي .

للمرّة الأولى تُرجمت الكُتُب المقدسة إلى اللغة اليونانية ولم تعد
سِرِّيَّة . ولم يعد بإمكان الكهنة أن يدينوا تغييراً شمل كنعان القديمة
كلها وفيها كان الناس يتكلمون اللغة اليونانية في كل مكان . كانت
هذه اللغة أكثر ملاءمة للتجار الذين كان عليهم أن يتراسلوا مع أهلهم
في الإسكندرية .

واقصر استعمال اللغة العبرية على الشعائر الدينية ، مع استمرار
التكلم باللغة الآرامية في القرى وفي الأوساط الشعبية . وانتشر الفكر
اليوناني مع اللغة .

وما عاد أحد يتذكّر سكاني الأوائل ، اليبوسيين ، والفلسطينيين ،
ولا الشاسو الذين كانوا أول مَنْ عَبَدَ الربَّ يَهُوَه .

بقيت متأرجحة كالسفينة في مهبّ الريح بين المعسكرين، بين البطالمة والسلوقيين.

حوالي العام ٢٠١- هزم السلوقي أنطوخوس الثالث، الملقّب بالكبير، وهو الذي كان قد خدعه يوسف، الجيش المصري وأقبل نحوي.

استقبله سكاني استقبالاً مشهوداً: برز سيّد البلاد الجديد يتقدّمه ويرافقه حرس مهيب من المقدونيين، والكريتيين، والفُرس، والبارغيين، والكُرد، والإيرانيين، وباختصار عساكر من جميع الأمم في إمبراطوريته، ومعهم الفيّلة طبعاً. ظهر في ملابس استعراضية، ينتعل جزمة حمراء أرجوانية مطرّزة بخيوط الذهب، ويعتمر قبعة عريضة الجوانب، ويرتدي معطفاً مزخرفاً بنجوم ذهبية. أعلن نفسه «حامي إيمان موسى»، ومنع الأجانب من دخول الهيكل.

لم يرَ الأورشليميون في حياتهم فاتحاً أكثر تسامحاً منه.

كل صباح تصدح سبعة أبواق فضيّة داعية المؤمنين لأداء الصلاة. وكنت قد أصبحت غنية بفضل التجارة التي كانت قد ازدهرت، ولاسيما مع الإسكندرية، إلا أنها ما لبثت أن توقفت، ثم استؤنفت الآن بفضل تدفّق الحجيج الذين كانوا يهرعون بمناسبة عيد

الفصح الكبير، وكانوا يشترون حيوانات، من جملان وغنم وحمام لتقديمها مُحرقَةً للرب. كل الجرائم ضد الدين كان عقابها الموت وكان الزُّناة يُرجمون ثم يُلقَون من على صخرة شاهقة. وراعى الجمهور حُرمة السبت. لقد أصبحت مدينة تيوقراطية يحكمها رجال الدين، على حدّ تعبير فلاسيوس يوسفوس.

كان ذلك جميلاً جداً أو متعتتاً جداً ليدوم؛ اغتيل أنطوخيوس الثالث بينما كان ينهب هيكلًا في فارس عام ١٧٥- وخلفه ابنه الذي يحمل الاسم نفسه. كانوا يلقَّبون والده بـ«الكبير» أما هو فاتخذ لقب أبيغانوس «الإله المرئي»، إذ كان يدّعي أنه من نسل الإله اليوناني هيراكليس. غير أنهم كانوا يطلقون عليه في الخفاء لقب «أيمان»، أي المعتوه، لأن الرجل كان مختلاً على الأقل.

شهدَ عهده اضطرابات كثيرة ألخصَّ أهمَّها: احتدم الخصام مجدداً بين المحافظين وأولئك الذين أرادوا أن يفتحوا المدينة وإيمان موسى على العالم الخارجي. وغدا النزاع أكثر حدَّة إذ كان يدور في مباني المدينة نفسها: كان الأغنياء قد بنوا دوراً على النمط الإغريقي، مع شرفات وأعمدة، في المدينة العليا جنوب شرق جبل الهيكل، أما الفقراء فكانوا يسكنون في المنازل القديمة نفسها في المدينة السفلى. وبينما كان هؤلاء يدافعون عن إيمان الأسلاف كان الأغنياء يسخرون من أولئك الذين يتظاهرون بأنهم يجهلون الواقع الجديد، ومن لقب المدينة «المختارة من قِبَل الرب».

هل كنت مختارة من قِبَل الخالق حقاً؟ قبل أن يحتلني داود ويضع سليمان تابوت العهد في الهيكل لم أكن سوى إحدى مُدن فلسطين.

أيّ إنسان أو أيّة مدينة يمكن أن تتباهى بتفضيل الإله الأسمى لها؟

بدأت أزمة جديدة بنزاع عائلي حول مسائل تتعلق بالمال والنفوذ. عندما قدّم الكاهن الأكبر أونيّا الثالث عرضاً للملك لكي يمنحه السيادة عليّ زايدَ عليه أخوه ياسون فعرض ثمانين تالاناً إضافية وفاز ياسون. عاد إليّ بصفته الكاهن الأكبر وياشر بتحويللي إلى مدينة يونانية! وتكريماً لأنطوخيوخوس أبيغانوس غير اسمي فأصبح أنطوخيوخوس - هيروزوليم (أنطوخيوخوس في أورشاليم)! ظننت أنني غارقة في كابوس! أنا، أورشاليم، فقدتُ اسمي؟ في هذه العملية عمد ياسون نفسه إلى الانتقاص من قيمة التوراة وأنشأ مدرسة رياضية يونانية!

هذا الجنون ما كان له أن يستمر. تمردّ سكاني على الهرطوقي وخلعوه. وما إن سمع أنطوخيوخوس بالنبأ حتى اجتاز سيناء على وجه السرعة. دخل إلى قُدس الأقداس، في سابقة تدنيس للمقدسات لا تُصدّق، ونهب كل ما فيه من كنوز وأتم عملاً كان قد أصبح متواتراً، ونفى عشرين ألفاً من سكان أورشاليم، وحالما امتلأت صناديقه بذهب الهيكل عاد إلى مصر سريعاً.

كان الوضع متواتراً جداً ليدوم. لقد شعر التقليديون بأنهم مهددون في ما كانوا يُعدّونه جوهر أمّتهم، وانطلاقاً من اعتقادهم الراسخ بأنهم يملكون الحقيقة المطلقة والصورة الوحيدة الصادقة للرب تملّكهم غضب شديد بات من الصعب احتواؤه.

أيُّ صوت كان بوسعي أن أرفعه لكي أحملهم على أن يتلافوا سفك الدماء، مزيداً من الدماء؟ فكرة الأمة كانت عندهم شبه دينية، وما من أحد منهم يتقبل أن ما يعتبرونها أمّتهم كانت قد اغتنت بكثير من الدماء الأجنبية على مرّ العصور. أما عن فكرة الله فأنا أعلم، ويا للأسف، أن البشر جميعهم مقتنعون تماماً بأن إلههم هو الإله الوحيد

في السماء . مَنْ كان ليسمعني إن ذكّرت بأن الشاسو هم الذين قدّموا للمهاجرين القدماء صورة يَهُوَه واسمه؟

كانت الثورات مرتجلة ولم تؤدّ إلا إلى عودة الملك المعتوه . برز فجأة في شوارعِي ذات سبت من العام ١٦٧- مصمماً على اجتثاث دين يَهُوَه مرة أخيرة وإلى الأبد .

بعد أن منع الالتزام بخرمة السبت والختان تحت طائلة الموت أمر أن يُدَنَس الهيكل بلحم الخنازير . مُرّقت صحف التوراة وأُلقيت في النار، ومَنْ وجِدَت لديه نُسخة منها كان يحكم عليه بالموت . وفي السادس من كانون الأول من العام نفسه حوّل الهيكل إلى معبد لإله الدولة، زيوس الأولمبي - رجسٌ فظيع . وصار الحرمُ مكاناً للرزيلة والعريضة يلهو فيه الوثنيون مع البغايا ويعاشرون النساء على الرحبات المقدّسة .

لَمَّا أنجز أنطوخيوس مهمّته عاد راضياً إلى أنطاكية تاركاً لقادته متابعة عمله التدنيسي .

مذّاك دخل في تاريخي الطويل الفصلُ المضطرب لتمرّد عائلة يهودية كانت تعيش بين أسواري، وكانوا يُسمّونها المكابيين .

بدأ التمرد في مُودين القريبة مني . وبدو أن السبب يعود إلى استفزاز جرى من قبل السلطة الملكية . ذلك أن أحد ضبّاط أنطوخيوس الرابع أخطر القرويين بوجوب التضحية بخنزير على مذبح زيوس الذي دُشن حديثاً، وسمّى شخصية من عمر معيّن ومحترمة جداً، يُدعى مَتْتِيَا، وهو من عائلة كهنة كبيرة في أورشاليم، لترؤس هذه الذبيحة: وسوف يكافأ بأموال وهدايا كثيرة من أجل أن يكون قدوة للآخرين .

كان الخنزير حيواناً يشمئز منه اليهود؛ وأكل لحمه يمكن أن

يسبب المرض، لأن الخنازير آنذاك كانت مصابة بمرض الجُدام. غير أن التضحية بخنزير على مذبح إله أجنبي كان من شأنها أن تجمع بين التدنيس والكرهية.

رفض مَتِّتيا رفضاً قاطعاً. ولما تقدّم رجل من المدينة ليذبح الخنزير مكانه طمعاً في المكافأة الموعودة وثب عليه مَتِّتيا وقتله على المذبح. وحدث شغب قُتل في أثناءه ضابط الملك وحرسه.

هرب مَتِّتيا وأبناؤه إلى الجبال في الشمال الشرقي. وقبل أن يذهبوا خطب مَتِّتيا في الجمهور داعياً اليهود الذين بقوا «مخلصين للتوراة» إلى اللحاق به في عصيانه وقال هذه الكلمات: «مَنْ غار للشريعة وحافظ على العهد فليخرج ورائي». حينئذ هجر كثير من مواطنيه أعمالهم للانضمام إليه. وبفضل حرب الاستنزاف نجح مَتِّتيا والمقاومون الذين معه في إلحاق الهزيمة بجنود الملك السُلوقي. وعندما توفي بعد بضعة أشهر من بداية العمليات الحربية تولّى القيادة أحد أبنائه المدعو يهوذا المكابّي وكان جسوراً. قرّر أن يحتلني، فتوقّعت الأسوأ، لأن الفقراء في المدينة السفلى كانوا يتطلّعون إلى دخوله المدينة وانتصاره، وسوف يهاجمون حتماً الحيّ الغربي، المسمّى المدينة العليا، ولن يُبقوا أحداً من الوثنيين حياً. وإذ بدأ يهوذا الهجوم انطلاقاً من وادي قِدرون فقد تمكّن من الاستيلاء على تل الهيكل وبنى عليه قلعة. ثم أمر بطرد الكهنة المتهمين بالتسامح الأثم، وهدم المذبح المدنّس بالأضاحي المقدّمة لزيوس، وأقام مذبحاً آخر وأعاد الهيكل إلى وظيفته القديمة وهي أن يكون بيت يَهُوه.

في البدء لم يأخذ أنطوخيوخس «أبيغانوس» التمرد اليهودي على محمل الجدّ، واكتفى بإصدار أمر إلى نائبه في الملك لسيّاس لسحق

العُصاة. لكن بلا جدوى. فقد أجبره يهوذا على التراجع. في غضون ذلك، وعلى بُعد آلاف الكيلومترات من هنا، وقع الملك المعتوه ضحية عقاب إلهي ربما إذ سقط من عربته جُثَّة هامدة، نتيجة نوبة صرَع على ما يبدو.

من حولي استمرت الثورة هادرة وما عادوا يلقَّبون البطل يهوذا إلا بـ«المطرقة». وفي شتاء العام ١٦٤- احتلني مع بقية أنحاء يهوذا. خليفة أنطوخوس الرابع الذي يُدعى ببساطة أنطوخوس الخامس كانت ردة فعله عنيفة. أرسل ضدَّ العُصاة جيشاً لَجِباً قوامه خمسون ألف راجل وخمسة آلاف فارس مع طليعة تضمّ ثمانين فيلاً. هذه الحيوانات كانت رهيبة، لا السهام ولا السيوف توقف اندفاعها وكل ما تُحدثه فيها الخدوش.

كان يهوذا يعتمد على نجدة القرى التي كان قد حوّلها إلى أماكن حصينة غير أنها لم تقوَ على الصمود في وجه مثل هذه القوّة الهائلة. في النهاية تمّ تحرير المدينة العليا، وعرض الملك على المتمرد إعادة حقوق العبادة لليهود الذين يريدون العودة إلى دين أسلافهم غير أن يهوذا المكابّي رفض. كان يرغب أيضاً في الحصول على الاستقلال والحال أن الحرب ضد السلطة السلوقية قد استمرت.

قرّر هو ورجاله عدم التخلّي عن السلاح ما لم تتحرّر أمته سياسياً ودينياً، وآثر العودة إلى الأدغال في الجبال إلا أنّه قُتل.

دامت هذه الحرب المعقدة والقاسية عشرين سنة! لا أريد هنا أن أرويها لكم بأدق التفاصيل مع هذا العدد الكبير من المطالبين بالعرش السلوقيين والذين يحملون الاسم نفسه غالباً، واعلموا فقط أن المكابيين شارفوا الهلاك أحياناً إلا أنهم تمكّنوا دائماً من النهوض مجدداً والردّ.

بعد وفاة يهوذا خلفه أخوه يوناتان. وفي النهاية أسفرت مفاوضات مملّة وطويلة، تتحدّى صبر أكبر دبلوماسي مُحنّك، عن تولّي أخيه سمعان منصب كبير الكهنة وتسلم مقاليد السلطة في أورشليم بموافقة المملكة السلوقية. وعاد الحكم الثيوقراطي الأكثر صرامة. وفي عام ١٤١- أعلن سمعان الاستقلال الذي كان قد ألغى في عهد نبوخذ نصر قبل أربعة قرون. وقد احتفى به اليهود كما ينبغي وألبسوه معطفاً أرجوانياً علامة الملك وأطلقوا عليه لقب سمعان الكبير.

كان بوسعي أن أفخر بنجاحه. لقد استعدت وحدتي، وانهارت الجدران التي كانت تفصل مدينة الأغنياء التي تعبد زيوس ومدينة الفقراء المؤمنين بِيَهُوَه. لم أتسرّع، وذلك لسببين: أولاً، كان لسمعان أعداء.

لا أستطيع أن أصوّر العطش المحموم للسلطة الذي يشعر به الناس في فلسطين؛ من الجندي البسيط إلى النديم في القصر الملكي كلهم يريد أن يصبح ملكاً ولم يكونوا كثيرين أولئك الذين يترددون في قتل جليس إلى المائدة للقضاء على أية منافسة. هكذا لقّي سيمون المبجل الذي لقبوه بـ«الكبير» مصرعه على يد صهره في أثناء مأدبة.

أشير عرضاً إلى أن هذا التعاقب السريع للملوك الأكثر أو الأقل شرعية كان له تأثير مخادع على مجتمع يهوذا، وحتى على فلسطين برمتها؛ وهم مهما كانت شعبيّتهم يُنظر إليهم على أنهم شخصيات مؤقتة؛ لم يكونوا سوى أسياد اللحظة الراهنة.

ثانياً، هذا المجتمع بقي مُنقسماً انقساماً عميقاً تتواجه فيه جماعتان، من جهة الصدّوقيّون الذين ينتمون إلى العائلات الكهنوتية، ومن جهة ثانية الفريسيّون كما كانوا يسمّون المؤمنون التقليديين.

كان الصدّوقيون يراعون مراعاة دقيقة وبسيطة قوانين التوراة وشعائر الهيكل: كانوا يؤيدون الهيمنة الإغريقية والرومانية في ما بعد، ولاهوتهم يرفض كل تفكير باطني وأخرويّ، حتى أنهم يعدّون الأدب النبويّ «خطراً». أما الفريسيّون فيرون أن تأثير الدين يجب أن يطغى على مجالات الحياة كافة ويقاوم التأثير اليونانيّ.

كان من شأن هذا الانقسام إحداث عدم استقرار لم يمكّن دولة يهوذا من الاستمرار. وكان مفهوم السلطة يتآكل ببطء. أقنعتني بذلك المشاهد الكثيرة التي كنت أراها في الشوارع. من ذلك مثلاً أن كاهناً فريسيّاً اعترض امرأة متبرّجة على نحو زائد وقال لها موبّخاً:

- أيتها المرأة الفاجرة! حجابك لا يغطي حتى رأسك! وأنت أكثر تبرّجاً من مومياء مصرية! ألا يخجل زوجك وأبناؤك بك؟
أصغت إليه مبتسمة

- أيها المسكين! زوجي وأبنائي فخورون بأمّ ينظرون إليها مسرورين. أرى أن الغيرة هي التي أوحى إليك بهذه العبارات المسيئة، لأن زوجتك لا بد أنها أشبه بالسجناء الذين يُتركون للموت بالمرض أو بالجوع.

ثم ابتعدت مطلقة ضحكة قصيرة تتبعها خادماتها بينما بقي الكاهن على الرصيف مذهولاً بما سمع، ما عادوا يحترمون خدام الربّ.
مرّة أخرى، كان ثمة شاب يمرّ عاري الصدر ملقياً معطفه بلا مبالاة على كتفه؛ لعلّه كان خارجاً من المدرسة الرياضية، اعترضه رجل كبير السنّ، طويل اللحية، كثيب النظرة:

- يا بُنيّ، أتظنّ نفسك جديراً بأسلافك وأنت بهذا المظهر، نصف عارٍ ومضمّخٍ بالعطور؟ دع هذه العادات لعبدة الأوثان!
وردة عليه الشاب:

- أين كنت معزولاً طوال حياتك لكي لا ترى أن العالم قد تغير، لأن طيبة الرب تسمح لنا بإظهار الجسد الذي منحنا إياه والذي نعرف نحن أن نعتني به وأن نتمتع بالعطور التي نشرها حولنا؟ افتح عينيك، أيها العجوز، ولا تحسد أولئك الذين يستمتعون بالحياة!

- احترم مَنْ هم أكبر سنّاً منك! صاح العجوز.

- وأنت، احترم أولادك! إنهم ثمرة ليالي مُتعتك.

صحيح أن كبار السن يجب أن يكونوا محترمين من الآن فصاعداً؛ ما عاد ذلك مكسباً لهم، والسلطة التي لم تعد محترمة من حيث المبدأ تكسب احترامها عبر الخوف.

لا ريب في أن ذلك هو السبب الذي من أجله كان الحكم مطلقاً واستبدادياً عندما آلت السلطة إلى كبير كهنة من عائلة متتيا هو ألكسندر يانايوس الذي يسمّيه مؤرخوكم ياني بالصيغة الإغريقية لاسمه العبري يوناتان. كان لا يأخذ في الاعتبار التقاليد ولا آراء الكهنة، من صدّوقيين وفرّيسيّين، وسرعان ما كرهه مواطنوه. وقبل أن أكمل أعتقد أن من المفيد شرح مصطلحيّ الفرّيسيّين والصدّوقيين. الفرّيسيّون يمثلون امتثالاً دقيقاً لشريعة موسى ويطوّرون إلى

أقصى حد التقليد السماعي عن موسى ويقولون إنه معادل لشريعته المكتوبة وقد تلقاهما جميعاً في سيناء، والتقليد السماعي غايته شرح الشريعة المكتوبة. وكانوا يؤمنون بالملائكة والشياطين وخلود النفس وقيامة الجسد، وينتظرون قدوم مملكة الرب عن قريب. أما الصدّوقيّون فهم جماعة مؤلفة من مثقفين جُلّهم أغنياء ولاسيما من طبقة الكهنوت، وكانوا يتقيدون بالشريعة المكتوبة وحدها، ويرفضون التقليد السماعي، ويُنكرون البعث ووجود الملائكة والشياطين.

كما كان متوقّعاً حدث تمرد، وغرقتُ في بحر من الدماء.

ردّ يانايوس بإعدام ما لا يقل عن ستّة آلاف شخص في الشوارع، واحتفاءً بهذه المجزرة أقام مأدبة تمّ في أثنائها صلب ثماني مئة متمرد على التلال بعد أن قطعوا أعناق زوجاتهم وأطفالهم أمام أعينهم. لحسن الحظ أن هذا الملك المعتوه مثل المعتوه الذي كان من قبله ما لبث أن مات، وأخذت زوجته سالومي ألكسندرا على عاتقها مهمة إعادة شيء من الهدوء. وراح غير واحد يسخر من الوضع: أرملة كبير الكهنة أصبحت ملكة!

- وامرأة هارون، لعلّها كانت ملكة هي أيضاً؟ يهتف الساخرون. الشبان الذين كفّوا عن الذهاب إلى الهيكل إلا من باب العادة صاروا يمتنعون على الرغم من احتجاجات الكبار الساخطين حتى أنهم كانوا يردون عليهم بوقاحة وباللغة اليونانية فوق ذلك:

- يجب أن نذهب إلى الملكة؟

أخيراً تصالحت سالومي ألكسندرا مع الفرّيسيّين الذين تركت لهم مهمة توجيه السياسة الداخلية. أُطلق سراح السجناء، واكتسبت أحكام الفرّيسيّين قوة القانون. وجرّت محاكمة صدّوقي أمام محكمة فرّيسية وحُكم عليه بالموت مع آخرين. وشيئاً فشيئاً تمكنت ألكساندرا بذكائها الحاد من إبعاد الصدّوقيين الواحد تلو الآخر عن المراكز المهمة وأحلّت مكانهم حكماء وعلماء ممن نجوا من الاضطهاد في عهد ألكسندر جانايوس وجعلت على رأسهم أخاها الحاخام شمعون. وأصبح السنهيدرين^(١) مرّة أخرى هو المحكمة

(١) Sanhedrin أو السنهيدرين، مجلس قضاء يتكون من واحد وسبعين عضواً، سبعون منهم مثل عدد الشيوخ الذين عاونوا موسى، والواحد والسبعون هو رئيس الكهنة (المترجم).

العليا التي تنظر في تطبيق قوانين التوراة. وعُهد بالتعليم مجدداً إلى معلمين أتقياء يُلقنون تلاميذهم معرفة التوراة وروح التقوى والإيمان. تولّد لدي اقتناع راسخ بأن الحكام لا يعيشون على الأرض نفسها التي يعيش عليها مَنْ يحكمونهم، وسوف أؤمن، أنا، بواقع السلطة عندما أرى هؤلاء الملوك يغسلون ملابسهم وينتفون ريش دواجنهم التي ينوون التهامها في إحدى مآذبهم.

ثم إن الملوك الذين عرفتهم لم يكونوا سوى أسماء. وداعاً للفراعنة، والأباطرة الآشوريين والبابليين، وداعاً للإسكندر وخلفائه. الرمال التي تلمع من حولي علّمتني أن ذهبها كان أكثر ديمومة من ذهب التيجان والأشباح التي رأيتها تتابع على جدرانني.

وها هي روما تظهر على مسرح العالم الكبير، ولن تغادره عن قريب، تاليةً ورثة الإسكندر.

كان المساء يهبط في ربيع هذا العام السابع والثلاثين قبل عصركم .

قطع بسان عمران بالسكين شريحة من لحم الخروف المشوي ووضعها في صحن ابنه سحر ذي السنوات السبع . كانت تلك الوجبة الأولى التي تتناولها عائلة عمران في البيت الذي اشتروه لتوهم في قلب المدينة السفلى .

قدّم بسان شريحة أخرى لزوجته أمين .

- لذيذة، قال سحر، وهو يقضم بشرائه قطعة لحم معطرة بالنعناع .

أضاف بسرعة وفمه ملآن :

- هل تعلمان أنني بعثُ اليوم أربعة أزواج من الصنادل؟

- أربعة أزواج؟ قالت أمين مندهشة .

- نعم، يا أمي . بعثتها كلّها لعائلة من المدينة العليا .

- حقاً، إنك الابن النجيب لإسكافي، قال عمران مُطرباً، لكن

يمكنك أن تفعل أحسن من ذلك .

- سحر ليس له من العمر إلا سبع سنوات، قالت أمين وهي

تبتسم . أكنت بائعاً جيداً وأنت في عُمره؟

تناول عمران حبة زيتون من قصعة. وكان يهّم بالجواب عندما قاطعته صرخة امرأة بدا أنها انبعثت من الغرفة التي كانوا يجلسون فيها. تبادل الزوجان وابنهما النظر مذهولين.

تكرّرت الصرخة، تلوها صيحة رجل:

- غير معقول! هل اشتريت منزلاً مسكوناً بالأرواح؟ قالت أمين مدعورة.

- ليس مسكوناً بالأرواح، قال سحر ماداً إصبعه نحو تجويف أعلى الجدار، يوشك أن ينهار. أشار إلى فجوة كبيرة في الجدار المتوسط الذي يفصلهم عن جيرانهم. من الواضح أن التجويف كان يؤوي طرف عارضة تسند السقف. لا ريب في أنها جُصّصت على عجل وانفصل الجصّ، والدليل هذا الفتات المتناثر على الأرض.

- وقد اشتريناه للتوّ، هذا المنزل، دَمَدَم بسان.

اندفع خارجاً ليلقى وجهاً لوجه شاباً في حوالي الخامسة والعشرين من العمر وامرأة في مثل سنّه. بدا واضحاً أنهما اكتشفا في منزلهما ما اكتشفه هو في منزله، وكانت إلى جانبهما طفلة في ربيعها الخامس.

كان قد ظهر ثقب في جهتهما أيضاً.

- هل رأيتم؟ بادره الرجل متحدثاً بالآرامية.

- نعم، قال بسان بلهجة كثيبة، منعماً النظر في هذين الزوجين

اللذين يراها لأول مرة.

كانت المرأة ذات وجه بشوش، بعينين محدّتين وموسعتين بخططين من الكحل، هذا الواقي الممتاز من أمراض العيون التي ينشرها الذباب.

عرّف بسان بنفسه، وكذلك فعل الرجل:

- اسمي سيمون أيساف، وهي، زوجتي، مارا.

وضع يده على شعر الطفلة وأضاف:

- هذه ابنتي، لميا. لقد انتقلنا إلى منزلنا الجديد حديثاً.

- أنا بسان، انتقلنا حديثاً أيضاً.

واستعلم:

- أنتم إسرائيليون؟

وافق الزوجان.

- وأنت؟ سأل سيمون بدوره؟

- أدوميّ.

هزّ الزوجان رأسيهما مبدين الاهتمام، لكن لا شك في أنهما لم

يسمعا أبداً بهذه القبيلة. على أية حال من الصعب أن تجد نفسك بين

الأدوميين، والإسرائيليين، والكنعانيين، والفلسطينيين، واليبوسيين.

استطرد بسان:

- أعتقد أننا نُخدعنا، أنت وأنا، هل اشترت من توثيموس؟

صدّق سيمون.

- قُدّم لي على أنه تاجر غني يملك منازل كثيرة في المدينة العليا

والمدينة السفلى.

- هذا رجل نصاب! صاح بسان غاضباً.

- الأدهى أن السقف قد... يسقط على رؤوسنا لفقدان

الجنس! أترح أن نذهب لرؤيته في وقت مبكر من صباح غد.

وافق بسان، ودخل كل منهما إلى منزله.

في اليوم التالي لم يعثرا على أثر للمدعو توثيموس. علم بسان

وسيمون من خادم عجوز أنه غادر مساء أمس. وجهته؟ مجهولة! متى

يعود؟ العجوز لا يدري.

تبادل الرجلان نظرة واضحة: فهم كل منهما الآخر. المدعو توثيموس كان غشاشاً، وهو هارب حالياً.

- أنتم تسميانه توثيموس؟ سأل الخادم بابتسامة ساخرة، أنا عرفته باسم إرهام، أظن أنه من صور.

- فينيقي؟ سأل سيمون.

- كما قال. لكنّ تسري في عروقه دماء مختلطة جداً، أعتقد أنه جاء من الجزر، هناك، في الشمال.

«الجزر، هناك، في الشمال»، كأنما يعني القمر.

لم يبق أمام الجارين إلا أن يقويا بأيديهما سطح منزلهما الجديد.

قال سيمون الذي كان نجاراً إنه يعرف من أين يحصل على عارضة وكيف يضعها. ساعده بسان وتقاسما النفقات. في ذلك اليوم اكتشفتُ أن الصداقات الكبيرة تنشأ من مثل هذا الحدث العارض.

في طريق العودة روى كل منهما قصته للآخر: كان بسان قد جاء من أدوم المنطقة المتاخمة ليهودا والمعروفة في أيامكم باسم شرق الأردن. أما سيمون فقد ولد في السامرة.

كلاهما ينتميان إلى صفحات التوراة.

هكذا كانت حال العالم الصغير عندما فكّرت روما في احتلال العالم الكبير على غرار السلوقيين، والبطالمة، والفُرس، وغيرهم.

منذ ثلاثة قرون وقادتها يجوبون الجبال ويعبرون الأنهار في الشرق والغرب. في عام ١٣٣ قبل عصركم - قريباً سوف نكفّ عن عدّ السنوات بالعكس - احتلوا بلاد البلقان بما فيها مقدونيا الإسكندر الكبير ونظروا بعين الطمع إلى منطقة الأناضول.

ثم إن روما نظرت بطرف العين إلى شمس الشرق الكبرى، ولما

كانت تميل إلى الخلط بين أسماء كل تلك البلدان الممتدة من فلسطين إلى الهند، فقد أطلقت عليها، ويا للبساطة، اسم «مقاطعة آسيا». لم تكن تعرف حتى حدود تلك البلدان وذلك لسبب وجيه هو أن حدودها كانت تتغير في أكثر الأحيان.

وابتداء من العام ٦٤- حوّل أحد قادتها بومبي، واسمه اللاتيني كنايوس بومبيوس ماغنوس، سوريا إلى مقاطعة رومانية. وهنا تقرّر مصيري.

أوضح.

إثر موت سالومي سعى كل من ابنيها أريستوبول وهيركان إلى ابتلاع الآخر. لأي سبب؟ للسبب عينه الذي منذ أن خُلِق العالم يستبدّ بالبشر: السلطة.

لن أكفّ عن التساؤل حول هذا المرض الذي يُثمل قلب البشر، والتساؤل طبعاً حول مصيري، أولم تلاحظوا أنني منذ ولادتي إذا لم أتعرّض لعدوان من الخارج فإن مواطني يدمّرون أنفسهم بأنفسهم؟ وإني لأتساءل كيف سينتهي كل هذا.

في النهاية هُزِمَ هيركان بالقرب من أريحا وكنت شاهدة على المصالحة الدامعة بين الأخوين في الفناء الخارجي للهيكل؛ مصالحة حصل أريستوبول بموجبها على ما يريد: العرش.

يمكنكم أن تتصوّروا أن هذه الانجرافات العائلية لم تكن إلا مهزلة. لم يهضم هيركان هزيمته ولاسيما أن لديه مستشاراً أجنبياً داهية لم يكفّ عن إثارة سخطه. إنه حاكم أدوم الذي ينتحل اسماً غريباً: أنتيباتر، وهو اسم رائع جداً لأن كثيرين يحملونه.

بكل وضوح، ولأسباب لم أسعَ إلى تقصّيها، كان الاتفاق بين الأخوين غير مُرضٍ لكليهما.

ما إن جلس أريستوبول على العرش حتى أخذ أنتيباتر أخاه هيركان إلى النبطيين، وهم عرب يكتنف الغموض أصلهم الجغرافي، وكانت عاصمتهم البتراء.

فضلاً عن نشاطهم الرعويّ، كان هؤلاء النبطيون يديرون تجارة رابحة مزدهرة مع موانئ البحر الأبيض المتوسط. وكانت البضائع المنقولة مؤلفة بشكل أساسي من القار، المجلوب من البحر الأحمر، والبخور، والمُرّ، والتوابل، من الجزيرة العربية. وكان لديهم - مثل معظم شعوب المنطقة أو غيرها - آلهة، ذكوراً وإناثاً، خاصة بهم.

لماذا النبطيون؟ لأن ملكهم، الحارث، كان على صلة بزوجة أنتيباتر. لا أعرف ما قيل في ذلك اللقاء، وكل ما أعرفه أن الحارث قَبِلَ أن يعلن الحرب على أريستوبول ويخلعه عن العرش، وهكذا أقام الملك العربي حالة الحصار أمام أسواري. مضت الأيام وكلٌّ منهما معسكر في موقعة. أريستوبول مختبئ وراء أسواري، والنبطي متربص أمامها.

لا أعرف مَنْ اقترح على هذين الرجلين الفكرة الأكثر حماقة، الشبيهة بإحدى خرافات إيسوب التي لم تُكتب أبداً، خرافة فأرين يتنازعان على قطعة جُبِن ويلجآن إلى هرّ ليحكم بينهما. بطبيعة الحال سيأكل الهرّ الفأرين ويلتهم قطعة الجبن. كنت أنا، أورشاليم، تلك القطعة من الجُبِن.

وصل وفدان إلى مقرّ بومبي الذي كان لا يزال في سوريا. كان هذان الوفدان يمثلان الأخوين العدوِّين، هيركان وأريستوبول. استمع بومبي باهتمام إلى شكوى المتخاصمين ثم أمرهما بالعودة إلى ديارهما في انتظار قراره. في الحقيقة كان قد اتخذ قراراً سرياً بالوقوف إلى جانب هيركان الأضعف في نظره، وبالتالي الأطوع

للتلاعب به . وما إن أصبح الرجلان على طريق العودة حتى حرك بومبي جيشه بحجة القيام بحملة ضد . . . النبطيين .

على بعد بضعة فراسخ مني ، وفيما كان جيش مومبي يحاذي نهر الأردن ، استدعى أريستوبول بذريعة خدّاعة ، ووضع القيود في يديه ، وأمره بأن يكتب رسالة إلى ضباطه وإلى الكهنة يأمرهم بتسليمي للرومان . غير أن أنصار أريستوبول رفضوا الامتثال للأمر ما دام هو رهينة لدى بومبي .

هؤلاء الناس لا بد أنهم نسوا أنه لا ينبغي أبداً إثارة تمساح قبل أن يعبروا النهر . ردّ بومبي بالحزم الذي يمكن أن نتخّله . قُبيل نهاية العام ٦٣ - انتهى الأمر . انهارت تحصيناتي الأخيرة مفسحة الطريق أمام الأفواج الرومانية . ويرى بعضهم أن هيركان ورجاله هم الذين فتحوا الأبواب لكني لست متأكدة . وتبعاً لسيناريو شوهد من قبل دُبْح الكهنة ، وقُتل بالسيف أكثر من عشرة آلاف نسمة من سكاني ، وأُلغيت الملكية ، وتعهّد هيركان الذي عُيّن في منصب كبير الكهنة أن يدفع للرومان جزية سنوية . لكن في الحقيقة كان أنتيباتر ، المستشار الأدومي الماكر ، هو صاحب السلطة الفعلية . وأريستوبول؟ سيق هو وأبناؤه أسرى إلى روما .

لكن لا تتخيلوا أن المنافسات كانت وفقاً على الإسرائيليين وحدهم . في روما أيضاً كانت تعيثُ فساداً كما لدى الآخرين . هناك كان قائدان آخران يشكلان مع بومبي ثلاثياً على رأس الدولة . أحدهما يُدعى ماركوس ليسينوس كراسوس ، والآخر يوليوس قيصر . ويمكنكم تخمين التتمة .

كراسوس الذي حسد بومبي على ما حققه من أمجاد توجه هو أيضاً نحو الشرق . توقف عندي - كان من المستحيل تجنّبي - نهب

كنوز الهيكل وأطلق جيشه ضد الفرثيين، وهم قوة جديدة من أصل هندو - أوروبي كانوا قد استقروا بين بحر قزوين وبحر أرال. حلّت به مصيبة. مُني الرومان بهزيمة نكراء وقُطع رأس كراسوس.

مساء اليوم ذاته، بينما كان الملك الفرثي أورودس الثاني يحضر مسرحية باللغة اليونانية توقف العرض فجأة: ألقى أحد قادته رأس كراسوس على خشبة المسرح. تقدم الملك وملاً فم القائد الروماني المقطوع الرأس بصُهارة الذهب قائلاً: «اشرب إذن! اشبع من هذا الذهب الذي تشتهي!».

لم يبق سوى رجلين لتقاسم السلطة: بومبي ويوليوس قيصر. أحدهما يتباهى بما حققه من مجد في أفريقيا الشمالية وفي مقاطعة آسيا، والآخر باحتلال مقاطعتي الغول. بدا النزاع حتماً وهزم قيصر بومبي هزيمة نكراء في معركة فارسال، في تساليا، عام ٤٨ قبل العصر الحديث. هرب المهزوم إلى مصر آملاً أن يمدّه الملك بطليموس الثامن بقوات وأموال لكي يستأنف القتال ضد قيصر لكن ما إن نزل في الإسكندرية حتى أقدم قائد مئة روماني عجوز على اغتياله.

ما أكثر الدماء، وما أكثر القتل، وما أكثر العنف والخيانات! كان لا بد لهذه المآسي من أن تعينني حتماً.

وصل قيصر إلى مصر وكان تصرّفه فيها صلفاً: أعلن نفسه سيداً على جميع البلدان المجاورة، ووسط الاضطراب العام، سيداً على السلطة الدينية في أورشاليم. هذا الشطط يجد تفسيره في المشروع العظيم لتكرار فتوحات الإسكندر الكبير الذي لم يتحقق أبداً. وكان ينوي استخدامي قاعدة انطلاق لفتوحاته الجديدة.

في هذه الأثناء كان على قيصر الكبير أن يتعامل مع واحد من

الشخصيات الأكثر مكرراً الذين تعاطيت معهم، والذي أميل إلى وصفه بكلمة «مَلُويّ».

كان الرومان قد أخرجوا من الظل أريستوبول، أخا هيركان، وكلفوه أن يحكم يهوذا باسمه، مع فوجين رومانيين كجنود. وعلى غرار الأسياد الإقطاعيين القدماء الذين كانوا يعهدون بقصورهم إلى مُعتمدين عندما يذهبون إلى الحرب كذلك مال الرومان فعلاً إلى انتداب مأمورين لحكم البلدان الخاضعة. والحال أن اليهود كانوا يرفضون سلطة حاكم أجنبي: ومات أريستوبول مسموماً.

عندئذ ظهر فجأة الرجل الماكر الذي أشرت إليه آنفاً ولم يكن لديه من السلطة أو الجاذبية سوى ذكائه وربما حُسن الهيئة، على أنه حين ذهب ليعرض خدماته على قيصر: دُرِّعَ فارساً. لم يكن هذا الرجل غير هيرودس، ابن أنتيباتر.

سوف أتجنّب هنا المناورات التي تخلّلت صعود هيرودس إلى القمة فهذا يقتضي زيادة مئة صفحة. يكفي القول إنه حظي برعاية قيصر الكبير الذي منحه المواطنة الرومانية وأعفاه من الضرائب (امتيازات استثنائية) وعيّنه حاكماً على يهوذا.

عندئذ بدأ اليهود معركة عنيدة، خصوصاً يهود يهوذا، استمرت شهوراً وقامت على الدافع الآتي: على الرغم من أن أباه أنتيباتر كان قد اعتنق الدين اليهودي لم يكن هيرودس معترفاً به كيهودي بل كعربي. علاوة على ذلك كانت دوريس، زوجته الأولى، عربية هي أيضاً، إذن لا مجال للتسامح مع غير يهودي يحكم أراضي الأسباط الاثني عشر باسم الرومان!

كان اليهود، الذين لا تزال القومية الدينية للمكابيين سائدة بينهم، يرون أن الحكومة يجب أن تُدار في إطار احترام الشرائع

القديمة وكان ذلك محصوراً بالسنيديرين . هذا المجمع الذي يضم اثنين وسبعين عضواً يشكلون مجلساً له حق التشريع في الأحكام الدينية والسياسية وكانوا يخولون أنفسهم حق إصدار الحكم بالموت . ازداد وضع هيرودس تعقيداً .

كان قد اختار للتو زوجة جديدة له ، يهودية هذه المرة ، تدعى مريمي ، وأقام احتفالات باذخة بالمناسبة ، عندما اجتاح الفرثيون سوريا وهددوا بانتزاع فلسطين من أيدي الرومان . في الوقت نفسه ثار اليهود والقوميون ضد أولئك الذين كانوا ينعنونهم بالدمى التي يتلاعب بها الرومان . حوصر هيرودس في قصره وظن أن نهايته اقتربت لكنه تمكن بأعجوبة من الفرار ليلاً مع قسم من حاشيته (الأسطورة تضم إليهم خمس مئة سُرّية) وبلغ تلال يهوذا . وعندما وصل إلى مصر سافر بمركب إلى روما حيث مثل أمام مجلس الشيوخ .

كان يتكلم اللغة اللاتينية بطلاقة ، وكان بليغاً ومفعماً بالحيوية والإرادة على نحو باهر أعجب الشيوخ الرومانيين أيما إعجاب . وفجأة حدث ما لا يمكن تخيله . سُمّي ملكاً و«صديقاً للرومان» . وغادر المجلس محاطاً بمارك أنطونيوس ، القائد الذي كان يستعد لقتال الفرثيين ، وأوكتافيوس ، ابن أخت يوليوس قيصر وابنه بالتبني .

هكذا شاهدت في ربيع العام ٣٧ قبل العصر الحديث وصول هيرودس مدعوماً بالجنود الرومانيين . وبعد خمسة شهور اجتاز أبوابي وأعلن نفسه ملكاً .

مثل بقية سكان المدينة ، عاشت عائلتا أيساف وعمران أياماً في أجواء الرعب التي أشاعها العساكر الرومان . «رومان» ، في القول مبالغة ، لأن جميع هؤلاء الجنود تقريباً كانوا مولودين في مصر ومن أصول متباينة جداً . هؤلاء الناس كانوا خطرين ليلاً ونهاراً . نهاراً ،

لأنهم كانوا يبحثون عما يأكلونه؛ ليلاً، لأنهم كانوا يسعون وراء النساء. ولا ريب في أنهم عاثوا فساداً في المدينة العليا، حيث وجدوا المواد الغذائية المطلوبة أكثر وفرة منها في المدينة السفلى حيث كانوا يأكلون القليل ولا يشربون النبيذ أو الحِجَّة إلا في المناسبات الكبرى.

بعد الغزوة الأولى للمدينة التي قام بها الجنود المرتزقة، أرسل كل من بسان وسيمون زوجتيهما وابنيهما، سحر ولميا، إلى السطح لتجنبيهم الخوف وربما الأسوأ.

- السطح؟ اعترضت مارا، لكنه لا يصمد...

- سوف يصمد بما يكفي لتحملكم.

خلال أحد عشر يوماً أقامت المرأتان في ما يشبه كوخاً من القش لم تنزلا منه إلا لإعداد الطعام لبقية أفراد العائلة. وأوجدت المحنة بينهما أيضاً هذه النعمة التي تدعى الصداقة.

ولدت مارا أبيساف قبل اثنين وعشرين عاماً في شكيم، على الطريق الأعظم الذي يبدأ من عندي ويصل إلى المنطقة الشمالية. هنالك التقت سيمون في حفل زفاف. رأت عينيه وشفتيه وراودتها الرغبة في امتلاكهما كمثل طفل يرغب في القبض على فراشة تُرفرف على شجرة تفاح. أهاجت ابتسامة من سيمون ورسخت هذه الرغبة: بعد ثلاثة شهور كانا يعقدان قرانهما في الكنيس على مرأى من العائلة والقبيلة.

أما أمين فقد أبصرت النور في عسقلان. وعندما بلغت الثامنة عشرة من العمر وعِدت بالزواج من قريب لم تره من قبل. كان هذا القريب هو بسان. تزوجا. لكن من أجل ذلك كان عليهما أن يسافرا حتى جنوب البحر الميت حيث كان يقوم معبد أدومي، المعبد الأخير بالتأكيد.

بعد ذلك ففكر الزوجان في تنمية تجارتهما داخل أسواري. فتح
بسان محلاً لصنع الأحذية؛ وأنشأ سيمون مشغلاً للتجارة، وبمحض
المصادفة اشترى القسمين المشتركين من المنزل نفسه.
أخيراً، عندما أوى الجنود إلى معسكراتهم بأمر من قادتهم قرّر
سيمون الذهاب لشراء الجصّ من جَمِينَا حيث تزدهر تجارة الخشب.
امتطى بغلّه ومضى في طريق الساحل. فجأة أُتِيحت لزوجته وولديه
الفرصة لقضاء مزيد من الوقت عند عائلة عمران. كانوا يمضون
السهرة عندهم أيضاً. وبطبيعة الحال توطّدت الصداقة بين الأدموية
واليهودية. وكان يحدث أحياناً أن تصطحب أمين صديقتها إلى
الكنيس. والعكس كان يمكن أن يحدث، لكن لم يكن عندي مكان
للصلاة الأدموية.

لكي يطمئن قلبي كنت أراقب في معظم الأحيان هذه
الاجتماعات العائلية حيث تتفتح المودّة والثقة.
أنا كنت بعيدة عن كوني راضية في هذا الصدد.

لقد عانيت من التعاقب الطويل الذي لا يُطاق لأولئك اللواتي
أسمّيهن النسوة الشرسات: ألكسندرا، كليوباترة، مريمي، سالومي.
أتصوّر أن النساء في تلك الأيام العاصفة كنّ مُتعبات من رؤية
المشهد المتواصل لهؤلاء الذكور المدلّهيّن بأنفسهم، المسكونين
دونما راحة بالطموح والجنون القاتل. ويمكنني أن أتخيل أنّهم كنّ
يُردنَ أن يثأرنَ لأنفسهنّ. ومع ذلك كنت أتمنى أن يثبتنَ أنّهنّ أكثر
تعقلاً وطيبة. لكن ما إن تبدأ شُعلة السلطة القريبة في تسخين أدمغة
هؤلاء النساء، كما الرجال، حتى يفقد الجميع عقولهم.
سوف تفهمون.

كانت أولى الشرسات الأربع هي ألكسندرا، أم مريمي زوجة هيرودس .

أرادت، وهي التجسيد المثالي للصورة النمطية للحماة الجهنمية، والمتأمرة في الروح، أن ترفع عائلتها إلى أعلى المراتب الإدارية، ولاسيما ترفيع ابنها يوناتان، شقيق مريمي، إلى منصب الكاهن الأكبر.

وبلغت من الدناءة أن حاولت - في عمل سائن - أن تغوي مارك أنطونيوس عارضة عليه مفاتن ابنها يوناتان الذي كان، والحق يقال، فتىً جميلاً. لم تكن المهمة مستحيلة لأن الرومان، كما يُقال حياة، كانوا ينظرون إلى اليمين وإلى اليسار من دون تمييز.

ولمّا استدعى أنطونيوس الفتى ما كان من هيرودس، الذي لا يقلّ عن حماته مكرراً إن لم يتفوّق عليها، إلا أن رفض السماح للفتى بالسفر. واحتياطاً وضع ألكسندرا تحت الرقابة في أورشليم. كان يعلم علم اليقين أن الخيانة لا تأتي إلا من الأقرباء.

ثم أنعم النظر في الأمر. هذا الفتى هو بمثابة سيف ديموقليس^(١).

(١) Epée de Damaclés. المعنى أنه كان يمثل خطراً داهماً. روى شيشرون أن ملك مدينة سيراكوز الصقلية كان حاكماً مستبدّاً ويعيش حياة رخاء وبذخ، =

لذلك لا بد من التخلص منه على وجه السرعة. وفي ليلة قائظة دعا يوناتان الجميل للسباحة في أحد أحواض قصره الفخم في أريحا. في اليوم التالي عُثر على جثته طافية على سطح الماء. كان قد أُغرق على أيدي أتباع الملك.

لائحة تصرّفات ألكسندرا القاتمة تستغرق كتاباً من عدة أجزاء. أكتفي بأن أكشف لكم أن هذه المؤامرات المتعددة والمتنوعة أفضت إلى الحكم بالإعدام على ابنتها، مريمي، وإلى مقتلها هي بأمر من هيرودس.

الشرسة الثانية هي كيلوبترا، ملكة مصر، التي كانت تتدخل في ما لا يعنيها، ولاسيما في شؤون يهوذا. امرأة صعبة المراس متأصلة، كانت، من بين أخريات، عشيقة مارك أنطونيوس، بعد أن كانت عشيقة يوليوس قيصر، الذي أنجبت منه ولدًا، هو قيصرون. وأنجبت من أنطونيوس ثلاثة أبناء أصبحوا ملوكاً على أرمينيا، وقورينا^(١) وفينيقيا، لأنها هي أيضاً تعرف أن تُبوّئ أبناءها أعلى المناصب. في غضون ذلك دبّرت مقتل اثنين أو ثلاثة من إخوتها وأخواتها، وتأمّرت دائماً مع عزيزتها ألكسندرا إلى أن أزعج سلوكها

= وكان له أعداء كثيرون، فكان ينام في غرفة يحيط بها خندق خوف الاغتيال. وكان أحد رجال الحاشية واسمه ديموقليس يبالغ في مدح الملك والرخاء الذي يتمتع به. فعرض عليه الملك أن يشاركه في هذه المتع ودعاه إلى مائدة طعام شهية وأجلسه تحت سيف معلق بشعرة حصان يمكن أن يسقط على رأسه ويقتله في أية لحظة، فارتعب الرجل وسارع في الاعتذار إلى الملك (المترجم).

(١) Cyrème. أو سيرين. مدينة أسسها الإغريق في أقصى شمال ليبيا. تعرف الآن باسم شحات (المترجم).

الشائن مجلس الشيوخ الروماني . ونعلم كيف انتهى كل ذلك^(١) .

الشرسة الثالثة هي مريميني التي كانت تجد لذة في الاشتراك في المؤامرات التي تدبرها أمها . ولم تكن في رأسها إلا فكرة واحدة : إقصاء هيرودس الذي كانت تعتبره هجيناً ودعياً . وهذا كان يرى أنها امرأة لا تقاوم ، ولن تمتنع عن استخدام مفاتها من أجل التلاعب به وإهانتته ، حتى أمام الحاشية حيث لم تُخفِ رفضها أن تنام معه في سريره .

أخيراً سالومي ، رابعة الشرسات وأخت هيرودس وكانت ماكرة هي أيضاً مثل السابقات . بذلت جهداً متواصلاً لكي تؤكد قوتها وخصوصاً لإبعاد زوجة أخيها مريميني . عندما ذهب هيرودس لمقابلة أنطونيوس وضع زوجته تحت رقابة عمه ، المدعو يوسف ، ولما رجع استقبلته سالومي الغدّارة بهيئة مكروبة وأخبرته أنه كان الزوج المخدوع ، وأن زوجته الحنون خانته مع العم يوسف . وكان هذا كذباً محضاً .

قُتل العمّ وبعد بعض الوقت قُتلت مريميني . ومع ذلك فإن هيرودس لم يحب امرأة قطّ بقدر ما أحبها . مساء موتها سمعته يتأوه من الألم في قصره - الحصن في أنطونيا .

كان يمكن لنهاية هيرودس ، الذي بات يُلقَّب بالكبير ، أن تكون نهاية مهيبة ، غير أنها لم تكن كذلك . على أن هيرودس جعل مني خلال مدة حكمه التي استمرت ٣٧ عاماً مدينة عظيمة وكانت مأثرته

(١) بعد انتحار مارك أنطونيوس عقب هزيمته على يد أوكتافيوس قيصر كان هذا يريد أن يسوق كليوبترا أسيرة إلى روما فأقدمت على الانتحار هي أيضاً (المترجم) .

التي لا جدال فيها هي تجديد الهيكل الثاني. احتاج إلى عشرة آلاف عامل وعشر سنوات لا لشيء إلا لإقامة جدران الدعم^(١). وأسارع في أن أقول لكم أن التقوى ليست هي التي أوحى إليه بهذه الأشغال بل الرغبة في أن يكون محبوباً من قبل رعيته التي يعلم هو جيداً أنها تنظر إليه باحتقار شديد. كان الرجل بطاشاً، انفعالياً، عنيداً.

عدا الهيكل، بنى الملك مدينتين باذختين هما سبسطية وقيصرية^(٢)، على شرف قيصر، وملأني بمساكن رائعة. أما قصوره فكانت من أفخم القصور في العالم. والأمر الوحيد المقلق هو أنه كان مكروهاً لا من شعبه فقط بل من أبنائه أيضاً: أحدهم، أرخلاوس، غتّى ورقص عندما علم بموت أبيه، وكان ذلك في آذار من العام الرابع قبل العصر الحديث.

مات هيرودس نصف مجنون، جسده متورم، تغطيه دمامل غامضة المنشأ، ومن دون أن يكون محموراً كان يعاني من حُكاك لا يُطاق، ومن وُدْمَة في القدمين شبيهة بالاستسقاء؛ ومن انتفاخ في أسفل البطن وغنغرينة في الأعضاء التناسلية. وقد وجد أنبياء ليقولوا إن هذه الآلام كانت عقابه. يُروى أيضاً أنه قُيِّل أن يُسَلِّم الروح رأى في الحلم طفلاً يهدّد أسرته وأنه أعطى الأمر بقتل كل الأطفال الحديثي الولادة. يمكنني أن أوكد لكم أنه لم تحدث مجزرة كهذه أبداً. هذه أسطورة أشاعها مُحصل ضرائب، اسمه مَتَّى، سوف نعاود الحديث عنه.

(١) الحائط الغربي، أو «حائط المبكى» لا يشكل سوى جزء من جدار الدعم هذا.

(٢) سبسطية، تقع على مسافة ١٢ كلم شمال غرب نابلس، قيسارية، مدينة ساحلية تقع على بعد ٣٧ كلم جنوب حيفا (المترجم).

قبل بضعة أيام من وفاة هيرودس قرّرت عائلتا عمران وأيساف أن تلتقيا حول مائدة طعام.

كانت قد مرت ثلاث وثلاثون سنة، وإذا كان طعم الفول لا يزال على حاله فإن الوجوه قد هَرِمَت. كان سيمون أيساف قد احتفل لتوّه ببلوغه الثامنة والخمسين من العمر، وعن قريب يحتفل بسان عمران بعامه الستين. ولم تعد العائلتان مرتبطتين برباط الصداقة فقط بل برباط الدم أيضاً. كان سحر ابن بسان قد تزوج لميا بنت سيمون وأنجبا ثلاثة أطفال، صبيّين وبتناً صغيرة.

لكن كم كان هذا الاتحاد صعباً. أتذكّره وكأنه حصل بالأمس. آنذاك كان الحبيبان الشابان في حوالي العشرين من العُمر. وكانت نباتات الخزامى ترفع رؤوسها البنفسجية والبيضاء في الامتداد الشاسع جنوب البحر الميت، والكرمليات الوردية تنتشر في الحقول حول أسواري. واختفت من أمام ناظريّ الحاميات الرومانية التي انتقلت إلى سبسطية وقيصرية وبعض المدن الصغيرة الأخرى.

كان الشابان يغليان من نفاذ الصبر، لكن طُرح سؤال يتعلق بنمط المراسم والسلطة التي تصادق على هذا الاتحاد. لم يكن لبسان البعيد عن قبيلته الأدومية معبد ولا رؤساء دينيون، والحق أنه لم يعد لديه آلهة ولا يقدم لهم قرابين في أي مذبح. كل ما كان يحتفظ به من أيام الصبا البعيدة بعض التعاويذ، مثل صورة للآلهة عشتروت زرقاء كان يعلّقها حول رقبتة، وموضوع عبادة كناية عن تمثال صغير من الخشب للإله إيل بوجه طُمِست ملامحه بمرور الزمن، ومن وقت إلى آخر كان هو وزوجته يضعان عند قدميه زهرة أو ثمرة تكريماً له. ربما كانت له سلطات؟ لكن لا أحد يتحدث عنها، أولاً لأن ما من شعيرة أكثر خواءً من الكلام عن شيء لا نعرفه، وثانياً لأنه لا يفكّر فيه.

في بعض النزعات الظرفية التي كانت تقوم بها عائلتا عمران وأيساف لا بد أنهم أعجبوا بالهيكل القائم على جبل الهيكل، هنالك كان يسكن إله الإسرائيليين، كما يؤكد الكهنة اليهود.

- يبدو أنه مختبئ في قاعة سرية حيث لا يُسمح بالدخول إلا لكبير الكهنة، لاحظ بسان.

- لكن لماذا يختبئ؟ قالت أمين مستغربة.

وسألت سيمون:

- كل الناس يجب أن يتمكنوا من رؤيته، أليس كذلك؟

- لا، ردّ سيمون، عندنا لا يمكن ليهوه أن يبدو للعيان، إنه غير

مرئي، ثم إن يهوه ما هو إلا لقب من ألقاب له أخرى: الأزلي، أدوناي، اللهم، شدائي... أما الاسم الحقيقي فلا يُلفظ.

- أمر غريب حقاً، قالت أمين، أنتم تعبدون إلهاً لا يمكنكم أن تذكروا اسمه ولا يمكن تمثيله.

- وماذا إذن، يا امرأة؟ دمدم بسان عمران، هذا حقهم. هل

تعلمين ماذا تشبه عشتروت أو الإله سين أو الرب إيل؟

أشار سحر بحنان إلى لميا وأضاف:

- إنها تحبتي، وأنا أحبها، ونريد أن نتزوج.

- ونحن موافقون، أجب الأبوان معاً.

- حسن جداً، قالت لميا: كيف؟

- ماذا تريدان أن تقولي؟ سألتها أمها.

- أباي وأنت إسرائيليان، وسحر وأمين... إيدو...

إيدوميان... حاولت أن تهجئ الكلمة من دون نجاح.

تخلت عن ذلك وخلصت إلى السؤال:

- أين؟

سارعت أمّ لميا إلى الإجابة:

- في الكنيس، طبعاً.

بدت أمين مغتظة.

- الكنيس؟

- لِمَ لا؟ ردّ بسان على الفور.

- لأن... غمغمت أمين، يجب العثور على معبد أدوميّ،

أليس كذلك؟

- ابنتي تتزوّج في مكان وثنيّ؟ قالت مارا مستاءة، لا،

سامحيني، لكن لا.

واستشهدت بزوجها:

- هل تقبل، أنت؟

فجّرت لميا أيساف غضبها.

- اسمعوا! نحن متحابّان! لا سحر ولا أنا لدينا أحكام مسبقة.

ولن تكون لنا مثل هذه الأحكام في سنّنا الآن، إذن، قررنا أنتم.

تذكر سيمون أنه عندما ذهب لشراء الجصّ رأى قُرب يَفَنَة^(١)

هيكلاً صغيراً، فاستعلم عنه. شرحوا له أنه معبد مخصص لعبادة

منتشرة على نطاق واسع في أوساط الجنود الرومانيين: الميثرائية^(٢).

اقترح:

- يا أصدقائي، لديّ حل، زوجتي لا تريد وثنية وأنا معها. أمين

(١) Jammia، يفنة مدينة في وسط فلسطين، تُعرف أيضاً في السياق التاريخي

باسم «بينه» و«يمنيا» (المترجم).

(٢) Le mithraisme، الميثرائية، نسبة إلى ميثرا، أو ميترا، وهو إله المعارك

والانتصارات والعدو الأكبر للشر. يرجع تاريخ الميثرائية إلى حوالي القرن

السادس عشر ق. م. في مناطق فارس القديمة (المترجم).

لا يبدو أنها توافق على زواج يهودي . في هذه الحالة أقترح عليكم
إلهاً وحيداً، لن يكون يَهُوه .

جحظت أعين الجميع من الدهشة .

- ماذا تقول؟ إله آخر غير يَهُوه؟ صاحت لميا .

- تماماً، غداً نذهب إلى يَفَنَة وسوف تحكمين .

في اليوم التالي، عندما وصلا إلى الهيكل لم يجدا سوى حارس
شاب كان يأكل فُسْتُقاً . ورأفة بهم اتفق أنه يتكلم اللغة الآرامية،
وعندما طلبوا مقابلة كاهن ركض باحثاً عنه . لم يغب طويلاً وعاد
برفقة رجل كهلي، بوجه صارم وتعبير وقور . كان اسمه حُتُون، ويُدعى
الأب . كانت المقابلة طويلة، بدأت حوالي الظُّهر ولم تنته إلا عند
الغسق . عَلِمَ الزُّوَّار الثلاثة أن ميثرا، الشمس التي لا تقهر، كان الإله
الوسيط بين الناس والقوى السماوية وأنه يولد من جديد كل سنة عند
الانقلاب الشتوي . كان إله النور، وبالتالي هو عدو الظلمات .
يلخص في ذاته كل القوى المنتجة في الطبيعة، ويجوب الفضاء، يرى
الجميع، ويسمع الجميع، ويحرس جميع المخلوقات؛ يهب الناس
الرخاء، ويعطي الأرض الخصب .

وخلص الكاهن إلى القول:

- إذا رغبتم أن تكونوا من المؤمنين به، فالرجال، والرجال
وحدهم (النساء مبعديات عن أسرار ميثرا) يجب أن يخضعوا مسبقاً
لطقوس التطهير .

بعد وشوشات طويلة لم تكن هادئة وافقت النساء .

هكذا أصبح اليهودي سيمون أبيساف والأدومي بسان عمران
وأولادهما ميثرائيين .

أنا، شخصياً، كنت مبتهجة. إذ كان من شأن قصة حب فاشلة بسبب إله أن تلوي قلبي. كانت مسيرة العودة أكثر صمتاً من الذهاب. تركت الإقامة في يَفَنَة أثراً قوياً على الصديقين. ولوقت طويل ظلّا يتذكّران طقوس التطهير حيث كان عليهما أن يمكثا عارين في حوض بينما كان الأب يسكب الماء عليهما بمساعدة شخصين.

- أنتما طاهران الآن، إبقيا كذلك، أوصاهما. الإله ميثرا سوف يسهر عليكما ويعرف كل حركة تقومون بها.

لا بسان ولا سيمون كان يمكنه أن يتخيّل ظهور دين جديد بعد عدّة قرون يُدعى المسيحية، سوف يُلقن الطقس ذاته، لكن باسم آخر: المعمودية.

طاهرون؟ كم من مرّة نظر سحر إلى يديه ورجليه متصوّراً أنها باتت مُشربّة بميزة كانت مجهولة حتى ذلك لحين: كانت طاهرة!

كان سحر ولميا قد سألا إن كان عليهما أن يعودا إلى يفنة من أجل مراسم الزواج. «لا، أجابهما حتّون. يوجد العديد من زملائي في أورشاليم، هل تقيمون في المدينة السفلى؟ سوف تجدون أحدهم بالقرب من باب الجنوب اسمه دروزوس».

بعد أسبوعين ضمّ العشاء الذي جمع عائلتي عمران وأبيساف مدعواً إضافياً هو دروزوس الذي تبين أنه كان نقيض الشخصية المتصنّعة التي تعطى عادة للكهنة والأخبار. بوضع كلمات، من دون رسميات، أعلن المخطوبين زوجين شرعيين وكتب باللاتينية وثيقة تشهد على ذلك.

لم أشك عندئذ في الدور الذي سيلعبه في مستقبل الزوجين الشائين.

أقدارنا غالباً ما يُسيّرهما إلى حد لا يُصدّق مزاج الناس، أي

استعدادهم الروحي . لقد أصبح دروزوس الميثرائي الجنّي الساهر على سحر ولما . غداة زواجهما نصحهما بامتلاك بيت خاص بهما .

- لكن ماذا نفعل؟ أين نبنيه؟

- لا تقلقا .

هكذا جنّبهما الارتباك الذي تحدّثه الاضطرابات العامة .

الاضطرابات، رأيت منها الكثير في حياتي، لكنّ أياً منها لا يعادل الاضطراب الذي أعقب موت هيرودس الكبير . لقد أقلق نفوساً كثيرة ولمدة طويلة .

كان النبطيّ قد ترك المملكة لثلاثة من أولاده، لكن أغسطس أعاد النظر في الوصية لتعطي النتيجة التالية: عُيّن أرخلاوس والياً^(١) على يهوذا والسامرة وأدوم، وهيرودوس أنتيباس رئيس رُبع^(٢) على الجليل والبيرة، وفيليبس رئيس رُبع على المقاطعات الأخرى . واتخذ الثلاثة اسم هيرودس، ولا أهمية لذلك؛ لأن فلسطين كان يحكمها الرومان ولم يكن هؤلاء الثلاثة سوى موظفين لديهم .

كان ثمة سبب آخر للاضطراب يتعلّق بالتناقض بين الطبقة الغنية التي تحكّم البلاد، وتعيش نمطاً من الحياة ينتمي كله تقريباً إلى العادات اليونانية - الرومانية، والقليل منه يعود إلى التقاليد السلفية، وبين السكان الفقراء الذين يتطلعون إلى العثور مجدّداً على أصولهم اليهودية، متوهّمين الحصول على سلام الروح . باختصار، لم يكن النزاع بين اليهود الصدّوقيين واليهود الغربيين قد خفّت وطأته لا بل

(١) في الأصل Ethmarque . تابع للإمبراطورية الرومانية يقود شعباً من دون أن يحمل لقب ملك .

(٢) في الأصل Tétrarque . رئيس رُبع، لقب يُعطى للوالي على مقاطعة صغيرة تابعة للإمبراطورية الرومانية .

ازداد تحت تأثير الوعاظ، وكان يتحوّل أحياناً إلى تمرد مفسحاً
المجال لبروز أنبياء كذبة، سرعان ما يتحوّلون إلى مثيري فتن.

ثلاثة منهم بثّوا الرعب على مدى أسابيع في القرى، مهدّدين
سكان الدور الميسورة في أورشاليم وقيصرية وسبسطية. الأمر الذي
استدعى تدخّل الرومان وأن يأمر حاكم سوريا بصلب حوالي ألفين
من مثيري الشغب.

أودّ عَرَضاً التذكير بأن الصلب لم يكن كما يعتقد الناس في
عصرنا. استناداً إلى تصوير أشهر المصلوبين كان الصلب لا يتضمّن
أي تسمير للأيدي والأرجل، الأمر الذي يتطلّب كميات من المسامير
ومنقّذين مختصّين، بل كان يقتصر ببساطة على تعليق المحكوم على
صليب وتركه معلقاً إلى أن يُسلم الروح. ولما كان المحكوم قد
ضُرب بقسوة في معظم الأحيان فلن يقوَ على المقاومة وقتاً طويلاً،
علماً بأنني رأيت مَنْ بقوا على قيد الحياة أكثر من أسبوع. كان
مشهدهم مروّعاً، سيقانهم مغطاة ببرازهم وبقية الجسد مزرقة بالدماء.
كان هيرودس قد أحسّ بالفتنة المتربّصة، ولثلاث تفع بعد موته أمر
باعتقال كل أعيان المُدن والقرى المحيطة بي، وكان عليهم أن
ينتظروا في ميدان الخيل إلى أن يصبح خليفته - كان يعتقد أنه سيكون
ابنه أرخلاوس - مطمئناً إلى حكمه. احتياط غير مُجد: ما إن مات
حتى عمّت الاضطرابات البلاد كلها.

تخوّف كلٌّ من بسان وسيمون من الخراب الذي تُحدثه عصابات
المحرّضين في شوارع المدينة السفلى. لكن دروزوس هدأ من
روعهما. وكانت المفاجأة الكبرى إبلاغهما أن ثمة شرطة موازية
وسريّة مؤلفة بشكل أساسي من رومان ميثرائيين تقوم بحماية بيوت
معيّنة.

- نحن لا نتدخل في المنازعات بين اليهود، لكننا نحاذر انتقالها إلى غير اليهود.

وعندما شاهد بسان وسيمون مجموعة من الفتيان الشجعان مسلحين بالعصي يتجولون بهدوء في الشوارع، ويوقفون مثيري الشغب عند حدّهم، اطمأنّا.

- لعلّني أطلب منكما أن تمدّا لنا يد المساعدة في المناسبة، اقترح دروزوس بلباقة.

هنا، أصبحا أقلّ اطمئناناً.

كان دروزوس هو الذي عاين بالقرب من عين سلوان قطعة أرض واسعة تُستخدم مكباً للنفايات كان المازّة يتجنّبونها بسبب الروائح الكريهة للقمامة المكدّسة فيها، والكلاب والجرذان النافقة.

- إنها أرض صخرية، أوضح للزوجين الشابين، وبالتالي فهي ملائمة لبناء متين الأساس. يكفي أن تنقلا المكبّ إلى مكان آخر قرب باب الجنوب وتشرعا في بناء الجدران.

- كيف سندفع الثمن؟

- لن تدفعا شيئاً، الأرض مشاع لا يملكها أحد.

كان يتكلم بثقة قطعت كل شك. بقي الحصول على مواد البناء والعمال. هنا أيضاً صنعت مهارة دروزوس العجائب، حصلاً على قرض بسرعة. غير أن القضاء على الجرذان التي كانت تحتل المكان منذ زمن بعيد كان العمل الأصعب. اقتضى الأمر جلب كلاب مدرّبة على صيد الجرذان لاحقت هذه القوارض حتى أوجرتها وشتت عليها حرباً شعواء.

كان بسان وسيمون يجهلان حتى الآن أن الميثرائيين يشكلون

طائفة كبيرة ونافذة ولديهم مقرضون أغنياء في المدينة العليا . كذلك لم يشكّا في أن أفراد الطائفة يعتمدون على ما يكتنه لهم الناس الذين يساعدهم من اعتراف بالجميل . وعلى أي حال فبفضل الميثرائيين تمكّن سحر ولميا من امتلاك بيت لهما في غضون ثلاثة أشهر؛ وهو ما أثار حسد محيطتهم . وبفضل تحريض دروزوس أيضاً ازدهرت تجارة كل من بسان وسيمون .

في موازاة هذه الحياة العادية بوجه عام استمرت النزاعات بين اليهود . وهنا كان يعوز عائلتي عمران وأبيساف المعرفة اللازمة في الشؤون الدينية لفهم موضوع هذه النزاعات . ثم إن مخاصمات اليهود لم توح لهما إلا بالملال، لكن كيف النجاة منها؟ منذ بعض الوقت كانت على الشفاه كلمة واحدة يدور حولها الجدل وحتى المشادات العنيفة: مسيح .

مسيح؟

كان يمكن لبسان أن يسأل دروزوس عن هذا الأمر لكن الكاهن كان قد مات . والحال أنه سأل يهودياً من زبائنه كان قارئاً مثابراً للتوراة وعابداً لِيَهْوَه :

- هل يمكنك أن تشرح لي ما هو المسيح؟

- المسيح^(١) . المُخَلَّص .

- المُخَلَّص؟

- طبعاً، هو الذي وعد بمجيئه الأنبياء، إنه يهودي تقي يخاف الله، وينحدر مباشرة من نسل داود، وسوف يُمسح (أو يُدهن) بوصفه

(١) في الأصل بالعبرية: mashial .

ملك إسرائيل الجديد. ثم إن معنى كلمة مسيح في اللغة العبرية هو «المدهون»^(١).

حكّ بسان ذقنه، متحيراً.

- وعندما يصبح هنا، ماذا يحدث؟

- صحّة التوراة ووجود الله الوحيد يُعترف بهما عالمياً، وجميع

اليهود يعودون إلى أرض إسرائيل حيث يتحرّرون من نير أعدائهم.

وأضاف الرجل وكأنه يُرتّل:

- في ذلك اليوم «يسكن الذئب مع الحمل، ويلعب الرضيع على

جُحر الأفعى»^(٢).

هزّ بسان رأسه مجدداً.

لقد تجاوز العُمر الذي يصدّق فيه هذه القصص عن الحمل

والأفعى.

آنذاك كنا في العام الرابع قبل عصركم.

في الليل سوف يولد طفل يُدعى يشوع^(٣) ابن يوسف ومريم،

وسوف يسمّيه اللاتينيون يسوع.

(١) المسح صبّ الزيت أو الدهن على الشيء لتكريسه لخدمة الله، والمقصود بالمسيح أن الله قد مسحه (المترجم).

(٢) أشعيا، ١١ / ٦-٨ (المترجم).

(٣) معنى الاسم في العبرية «يَهْوَهُ مُخَلَّص» (المترجم).

(١٣)

كما ذكرت آنفاً، وُلِدَ يسوع في العام الرابع قبل عصرنا، لا كما يؤكد بعضهم من أنه وُلِدَ في العام صفر. والتفسير بسيط.

المدعو مَتَّى، الذي ذكرناه من قبل، يقول لنا إن يسوع نجا من «مذبحة الرُّضْع» التي أمر بها هيرودس، وعليه لا يمكن أن يكون يسوع قد ولد إلا في حياة هيرودس. والحال أن هيرودس أسلم الروح في العام الرابع قبل عصرنا.

على أي حال، لا أذكر حصول أي عمل بمثل هذه الدموية كان يتطلب القيام به عدداً كبيراً من المنقذين يطوفون على بيوت فلسطين كلها بحثاً عن الرُّضْع. غير أن مَتَّى إنجيلي جاد وأمين، ولا زيب في أنه أشار إلى حدث مأساوي، لعلّه جريمة كبرى اقترفها هيرودس في عهده، أو أن الأمر يتعلق باختراع من صنع الفريسيين الذين أرادوا أن يُسيئوا إلى ذكرى النبطي.

ثمة تفصيلان أثارا اهتمامي أيضاً.

وفقاً لما ورد في التوراة أمر أحد الفراعنة بقتل جميع الأطفال الحديثي الولادة من أبناء اليهود، غير أن موسى نجا. هرب من مصر قاصداً فلسطين التي لم يصلها، وهو النبي الكبير الذي نعرفه. بعد قرون من تلك الواقعة تكررت القصة، ولكن في الاتجاه

المعاكس: فراراً من هيرودس، ترك يسوع وأهله أرض كنعان ولكن إلى مصر. وسوف يصبح يسوع هو أيضاً نبياً ذائع الصيت. هذه المتوازيات التاريخية مذهشة.

لكن هذا لا يهم، المهم أن الرجلين كليهما أعادا صُنْع التاريخ. ما زلت أتذكر أول تدخّل عامّ ليسوع. كان ذلك في رَحْبَةِ الهيكل، وأعتقد أن بوسعي تحديده حوالي العام ٣٠. في ذلك اليوم اكتشف يسوع في هذا المكان المقدس وجود باعة بقر، وغنم، وحمام، وصيارفة. اضطرب اضطراباً شديداً. أخذ بيده حبلاً عوضاً عن السوط وطرده كل هؤلاء إلى خارج الهيكل، وبعثر نقود الصيارفة وقلب طاولاتهم ومقاعد باعة الحمام، وقال لهم: «مكتوب، بيتي بيت صلاة يُدعى وأنتم تجعلونه مغارة لصوف»^(١).

أمرٌ محيّر! لم يُعتقل. وهو نفسه فوجئ بسهولة ذهابه إلى الحرم من دون أن يعتقل أبداً على الرغم من طبيعة عِظاته المدمّرة. أو لم يقل في ما بعد: «كل يوم كنت وسطكم في الهيكل، ولم تعتقلوني». على كل حال كان تعليمه مسموعاً بما فيه الكفاية ومنتشراً في أوساط الشعب حتى أنه في أثناء عيد سُكُوت^(٢) هتف له الجمهور كبطل محرّر. كان يركب جحشاً، والناس الذين استقبلوه فرشوا له الأرض بسعف النخل، وهذا امتياز خاص بالملوك، وكانت الجموع التي تقدّمه والتي تتبعه تهتف: «هُوسَعْنَا»^(٣)! تبارك الآتي باسم الرب، تباركت مملكة أيينا داود! هُوسَعْنَا في العلي»^(٤).

(١) إنجيل متى، ٢١ / ١٣ (المترجم).

(٢) عيد يهودي يقال له أيضاً عيد الحِطَال (المترجم).

(٣) كلمة مركبة معناها «خُلُصٌ» ثم استعملت للهِتاف والابتهاج (المترجم).

(٤) إنجيل مُرقس ١١ / ٨-١٠ (المترجم).

في نظر هؤلاء ما من شك في أن يسوع هو المسيح الذي بشرت به الكتابات المقدسة.

من هنا وهناك سمعتُ شائعات تدعو إلى الاعتقاد بأنه ينتمي، أو كان ينتمي، إلى طائفة الأسينيين. والأسينيون على غرار الفريسيين والصدوقيين هم يهود بالولادة، غير أنهم دعوا إلى الابتعاد عن اللذات وضبط النفس ومقاومة الشهوات، وكانوا يحتقرون الزواج، ويرفضون الممتلكات المادية، ويمارسون في ما بينهم روحاً جماعية رائجة، لا أحد منهم يفوق الآخرين في الثراء؛ لأن مذهبهم يفرض على الذين ينضمون إلى طائفتهم أن يتخلّوا عن كل ممتلكاتهم لمصلحة الجماعة. من أجل ذلك لا نجد في أي مكان وسطهم لا يؤس الفقر ولا تبعجُ الغنى.

هل كان لتلك الشائعات أساس من الصحة؟ أنا غير قادرة على الإجابة.

على أي حال، كنت كلما راقبت يسوع ازددت قلقاً بشأن رسالته التي بدت لي على قدر عظيم من النبؤ. واليوم أيضاً، بعد مرور قرون كثيرة، لا تزال كلماته ترنّ على حجارتني: «سمعتم أنه قيل: أحبب قريبك وابغض عدوك. أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، وصلّوا من أجل مُضطهديكم»^(١).

أعترف بأنني كنت متأثرة جداً بهذه اللغة التي تُغيّر كلياً ما كنت قد سمعته منذ ولادتي. لم يكن يجري الحديث إلا عن الشار، والكراهية، والقتل، والخيانة.

في النهاية أقلق الأمر كبار الكهنة. لقد رأوا أن يسوع يوشك أن

(١) متى، ٥ / ٣٨-٤٨ (المترجم).

يشير هيجاناً يُفضي إلى تدخّل الرومان مرّة أخرى بفظاظتهم المعهودة. وهكذا اعتقله الكهنة ذات ليلة عندما كان يصلّي مع تلاميذه على جبل الزيتون وأسلموه إلى ممثل السلطة الرومانية: بيلاطس البنطي.

للوهلة الأولى لم أدرك لماذا اتخذت هذه القضية قدراً كبيراً من الأهمية. ظننت أن الأمر يتعلّق بمسألة قضائية أو سياسية. ثم فهمت. لقد ارتكب يسوع في هجومه على الباعة في الهيكل الخطأ الأكبر، إذا كان هؤلاء الأشخاص حاصلين على رخصة لممارسة تجارتهم فلأنهم كانوا يدفعون إلى الكهنة إتاوة كبيرة. كانت هذه العائلة الكهنوتية تحتكر تجارة العطور؛ وتلك تحتكر الخبز الذي يقال له «خبز الوجه»^(١)، وبطبيعة الحال فإن حَتّان وقيافا، كبيرَي الكهنة، يحصلان على القسم الأكبر من العائدات. ومن ثمّ فإن ضرب يسوع للمركز العصبي المالي لهؤلاء إنما يعني أنه يوقّع على قرار إعدامه.

العنصر الأهم الذي احتفظت به من هذه القصة هو أنني كنت قد أصبحت مَهْدَ نَبِيّين: إبراهيم ويسوع. وهما رمزان لدينين، لكنهما في خدمة إله واحد. ولم أشك لحظة والحال هذه في أنّ رجلاً ثالثاً سوف يظهر.

في القسم الأعلى يتناول الأغنياء عشاءهم كالمعتاد عند هبوط الليل على الشرفات يخدمهم العبيد، وفي المدينة السفلى يجتمع الفقراء كما في كل مساء ليأكلوا ما تيسّر لهم من طعام.

لم يبق من عائلتي عمران وأبيساف إلا الأحفاد: ثلاثة صبيان، خالد وإمار عمران وأومراد أبيساف. جميعهم متزوجون وآباء. حتى ليظن أن هذه العائلات الثلاث لا تُنجب إلا الصبيان.

(١) هذا النوع من الخبز، وعدده ١٢، كان يقدّم كل أسبوع للربّ قربان عمل وحياة الشعب. والكهنة وحدهم كان يحق لهم أن يأكلوه.

مثل الجميع، سمعوا يسوع.

مثل الجميع، عندما ذاع الخبر، كانوا شهوداً على اليأس الذي غمر قلوب العديد من السكان، لقد صلبوا مسيحننا!

في الواقع، مثل يسوع في حضرة بيلاطس البُنطبي الذي سرعان ما حكم بالموت على هذا النبي.

حدث ذلك في السادس والعشرين من شهر نيسان من عام ٣٧٩٠ لخلق العالم^(١).

ما زلت أسمع صرير الشوك الذي كان منغرساً في تجاعيد جبهته، أسمع الصراخ المنبعث من أحشاء يهوذا، والسامرة، والجليل. كان الغمام يغطي السماء. وخشب الصليب الحامض يحك لحمه الممزق.

لحمه، فاغر بائس، مرضوض، مفتوح على الموت.

الريح أعولت وأخذت تصفق وجهه، وفي حشجة أخيرة صرخ:
«إيلي إيلي لَمَا شَبَقْتَنِي؟»

أي «إلهي إلهي لماذا تركتني؟»

كانت لحظة مؤلمة، وفضلتُ أن أشيح بوجهي.

لا الحكم بالموت على هذا «المسيح» ولا عذاباته أثرت أو خففت من عداء اليهود للحكم الروماني الذي كان يتفاقم بمرور الزمن. ما إن يُخمد الرومان بلبلة حتى تندلع أخرى. لم يكن الوضع في روما مساعداً بالتأكيد. كان إمبراطور جديد، مجنون يُدعى

(١) ١٩ نيسان من العام ٣٠ لعصرنا، في التقويم العبري يوافق العام ١ التاريخ المفترض لخلق العالم. وقد اعتمد في ذلك التواريخ المذكورة في التوراة (أشخاص / أجيال) صعوداً حتى آدم.

كاليفولا، يريد أن يفرض على المدن الفلسطينية إقامة تماثيل له. وكما كان متوقعا، عارض اليهود ذلك بقوة. عندئذ غضب كاليفولا غضباً شديداً وأمر بتدمير. لحسن الحظ مات مقتولاً على يد حرسه قبل تنفيذ الأمر.

كان ذلك في العام ٤١ من عصرنا.

في هذه الأثناء قرّرت عائلة عمران وفاسكور مغادرتي للإقامة في غزّة بعيداً عن الصخب. ستكون الحياة أكثر هدوءاً وازدهاراً في هذه البقعة من الأرض التي تمر عبرها التجارة بين مصر وآسيا القريبة؛ يشهد على ذلك الرخاء الذي تعيشه المدينة مثل تل أبيب، ودورا، وصور ومُدن أخرى أبعد شمالاً. ولقد حَزّت في قلبي رؤية هذه العائلة المؤلفة من الأب والأم وأبناهما الثلاثة وهم يلقون نظرة الوداع الأخيرة على قبور أسلافهم.

كان إلهامهم حسناً. إذ ما كادت تنقضي بضعة شهور حتى تفاقمت ثورة اليهود.

في عام ٦٦، تحت حكم الوالي الروماني جوستيوس فلوروس، بلغت الثورة ذروتها. كان لهذا الاضطراب سببان: من جهة، موت عدد من اليهود خلال المواجهات التي جرت بين السكان اليهود وغير اليهود في قيصرية من دون أن يتدخل الرومان؛ ومن جهة ثانية، قرار الوالي اقتطاع مبلغ من خزائن الهيكل يساوي مجموع الضرائب المفروضة على اليهود.

قامت عصابة من مثيري الشعب بقيادة المدعو سيمون بارجيورا بتشكيل جيش من المقاومين هزم الجيش الروماني في بيت حورون. وعلى مدى ثلاث سنوات عمل بارجيورا على زيادة عدد أنصاره

واحتل أدوميم وحبرون^(١)، واستولى على الهيكل. هنا وجد حليفاً
ثميناً في شخص جان دي جيسكال^(٢)، المولود في الجليل، وكان
من دعاة الخضوع لروما قبل أن يتحوّل هو أيضاً إلى المقاومة.

أعلن الثوار استقلال الدولة اليهودية، وقتلوا الكاهن الأكبر
الموالي للرومان حنانيا، وألغوا قرابين الإمبراطور، وصكّوا نقوداً
نُقش عليها «العام ١ للحرية».

رداً على هذا العصيان أرسل الإمبراطور الجديد، نيرون، ثلاثة
أفواج من الجيش الروماني بقيادة فسبازيان. تمكّن هذا القائد من
استعادة الجليل، وحاصر يوتفاتا حيث كان يقاوم المؤرخ اليهودي
يوسف فلافيوس^(٣) الذي استسلم أخيراً، وسرعان ما انضمّ إلى
الرومان.

هذه الانتكاسات ما لبثت أن أنهت الاتحاد المقدّس بين اليهود
وانكسر الوئام. وكالمعتاد ظهرت الانقسامات مجدداً. في وجه
الحكومة الجديدة في أورشاليم، التي يُهيمن عليها الفريسيون
والمعتدلون، وقف قادة أمثال جان دي جيسكال في الجليل،
وسيمون بارجيورا، القريب من المترمّتين، وهم حركة قومية متطرّفة.
هؤلاء كانوا يرفضون أي تهديئة ويسعون في الوقت ذاته إلى فرض
احترام صارم للواجبات الدينية. وأصبحت كل مدينة مسرحاً
للاضطرابات والنزاعات الأهلية. ما إن يلتقط اليهود أنفاسهم بمنأى

(١) الخليل حالياً (المترجم).

(٢) اسمه بالعبرية: يوحنا مي غوش هالافا (المترجم).

(٣) ولد عام ٣٧، وهو المؤرخ اليهودي الوحيد الذي وصلت إلينا مؤلفاته. لا
شك في أن يوسفوس ألف كتابه «تاريخ حرب اليهود ضد الرومان» بناء على
طلب فسبازيان.

عن عدوانية الرومان حتى يوجهوا سلاحهم ضد أنفسهم. واتسعت
الهوة بين دعاة الحرب وأولئك الذين ينشدون السلام. كان ذلك
محض جنون!

عام ٦٩، قرّر المتطرفون احتلالي، لأنني كنت تحت سيطرة
التيارات المعتدلة.

ذبحوا أعيان اليهود وقسماً كبيراً من الكهنة الصدّوقيين أمام عينيّ
المذعورتين، وما كان في البداية ثورة ضد المحتلّ تحوّل إلى حرب
أهلية رهيبة.

نجح المتطرفون بقيادة جان دي جيسكالاً في انتزاعي من قبضة
الفريسيين، وفي عملية استفزازية ضد السنهيديين عيّنوا شخصاً نكرة
في منصب كبير الكهنة. الأمر الذي اعتبره الفريق الآخر إهانة. ولم
تكن حصيلة المعركة الدامية التي نجمت عن ذلك أقلّ من ثمانية
آلاف قتيل.

أمام هذا المشهد اعتقدت أنني فقدت عقلي. سكاني يتقاتلون
مدفوعين بحقد عظيم حتى أنني تساءلت هل يبقى منهم على قيد
الحياة من يتصدّى للعدوّ الحقيقي: الرومان! استولى المتطرفون على
الهيكل وتحصّنوا فيه، ثم انصرفوا إلى النهب والقتل.

أخيراً، تمكنت الفصائل المتقاتلة بدافع المنافسات الشخصية
والخلافات السياسية من الاتفاق، وأسارع إلى التوضيح أن لا
الحكمة ولا العقل أوحيا لهم بذلك: كنا في شهر آذار من العام ٧٠،
وكانت أربعة أفواج رومانية بقيادة تيتوس، ابن الإمبراطور الجديد
فسبازيان، قد أقامت معسكراتها عند أسواري. ولتجوع المدينة بني
تيتوس سوراً حول أسواري لمنع أي كان من الخروج. وفي هذه
الأثناء تذكرت الكلمات التي تنبأ بها يسوع لأورشاليم: «فسوف

تأتيك أيامٌ يُلْفُكُ أعداؤُك بالمتاريس، ويحاصرونك ويضيِّقون عليك الخناق من كل جهة»^(١).

كانت المجاعة رهيبة. امتلأت البيوت بجثث النساء والأطفال والشيوخ. وكان الشبان يترنحون كالأشباح في الساحات العامة.

التاسع من نيسان في التقويم العبري كان النهاية.

اندفع جنود تيتوس في أزقتي. التقط سكاني أطفالهم على عجل وفرّوا إلى القلعة وهم يصرخون مرعوبين وقُتل الآخرون. ومن كل مكان كان يرتفع نحيب الضحايا بلا انقطاع، وكنت أنا غارقة في الدماء التي تسيل على المنحدرات.

دخل الرومان الهيكل. وبعد أن استولوا على مجوهرات قُدس الأقداس، وعلى الطاولة الذهبية، والشمعدانات، والآنية المقدّسة، أحرقوا الهيكل وكل المباني المجاورة. ولم يبقَ من هذا الصرح الرفيع إلا شِقة جدار، تُعرف في أيامكم باسم «حائط المبكى»!

مصادفات: كان التاسع من نيسان أيضاً هو اليوم الذي جعل البابليون فيه الهيكل طُعمة للنهب وللنيران، وهو اليوم الذي طُرد فيه اليهود من إنكلترا (عام ١٢٩٩ من عصركم)، وفيه أيضاً وقعت إيزابيل ملكة إسبانيا مرسوم طرد يهود إسبانيا.

سِيق عدد كبير من سكاني إلى المنفى كعبيد. وعاد تيتوس إلى روما لكي يحتفل فيها بانتصاره، أخذاً معه أكثر من سبع مئة سجين من بينهم جان دي جيسكالا الذي مات في السجن، وسيمون بارجيورا الذي سيحكم عليه بالإعدام. بعد ثلاث سنوات هاجم والي

(١) إنجيل لوقا، ١٩ / ٤٣ (المترجم).

يهودا، ليسيوس فلافيوس سيلفا، آخر معقل لليهود: مَسْعَدَة^(١)، القلعة التي بناها هيرودس. كان المتطرفون وعددهم ألف رجل، مع نسائهم وأطفالهم، بقيادة زعيم يُدعى أليعازر بن يائير، متحصنين داخل القلعة ورفضوا الاستسلام للرومان. وفي ربيع العام ٧٤ نصب الرومان منجنيقاً متحركاً على طول منحدر وأحدثوا فجوة في سور القلعة. سقطت القلعة. وفي موقف بطولي بقدر ما هو يائس قرّر المدافعون الانتحار على أن يؤخذوا أحياء. هذه المأساة وضعت حداً للحرب.

لم يبق مني إلا نبعي، غير أنه ما عاد يسقي سوى الرومان والثعالب.

حُلم اليهود السري بأن يروني أولد من جديد تبخّر في العام ١٣٠ عندما قرّر الإمبراطور هادريان بناء مدينة جديدة في مكاني، حتى أنه أعطاها اسماً أيليا كابيتولينا^(٢)، مدينة جوبيتر، إله الكابيتول، وصكّ نقوداً بهذا الاسم. وأعلنها مدينة رومانية ممنوعة على اليهود تحت طائلة الموت. أُلغيت مملكة يهوذا نهائياً ومنعاً لأي تلميح إلى سكان يهوذا من اليهود سمّى الرومان البلاد «بالاستينا» وهي كلمة مشتقة من نفس الجذر الذي اشتقت منه كلمة «فلسطين»^(٣)...

طبعاً، ثار اليهود ضد هذا المشروع الذي يقوم على سرقة

(١) تُعرف أيضاً باسم «مَصْعَدَة»، و«مَسَادَا»، و«سبه». تقع على مرتفع صخري بارز شرق الصحراء الفلسطينية بالقرب من البحر الميت (المترجم).

(٢) في الأصل Aelia Capitolina.

(٣) في الأصل تباعاً: Palaestina و Philistin.

روحي، وقرّروا إرسال مقاتلين كانوا مستعدين للثأر. نظم الهجوم المضاد الحاخام بن عكيفا، وقاده المدعوّ سيمون باركوشبا «ابن النجم».

بعد سنتين، انتقل المتمردون الجدد إلى الفعل، وبدأوا بمهاجمة تشكيلات الفيالق هنا وهناك، في كفرحرب، وأريحا، وحبرون. تولّى بن عكيفا وباركوشبا زمام الأمور في أورشاليم ونظما رفع الألقاض. غير أنهما لم يتمكّنا من إعادة بناء التحصينات التي لطالما أحسنت الدفاع عني. وعندما أعاد الرومان الكرة أخذت الحقيقة تتبدّى شيئاً فشيئاً أمام باركوشبا: لم يكن قادراً على مقاومتهم. حاول الهرب لكنه قُتل ولاقى أنصاره المصير نفسه.

لم يتمكن اليهود من استعادتي، وما زلت أدعى أيليا كابيتولينا. كان لدى مهندسي هادريان مُتسع من الوقت لإعادة بنائي كلياً، إذ لم يبق شيء من المدينة التي كنتها. أقاموا هيكلًا لجوبيتر على الجُلجلة حيث صُلب المسيح ووضعوا في المدخل تمثالاً للإلهة أفروديت. ثم بنوا معابد أخرى لآلهتهم وحتى لآلهة بلاد أخرى مثل إيزيس المصرية التي كانت تلقى قبولاً واسعاً في روما، والسامية عشروت. وختاماً، أقاموا قوس النصر شمال الهيكل المندثر.

كان السلام قد خيم مجدداً على أيليا كابيتولينا، وإن لم يحلّ على روح المرحومة التي كنتها، أورشاليم.

كان كثير من الناس يتذكرون بالتأكيد اسمي القديم غير أنهم لا يجرؤون على النطق به. هؤلاء كان يُسمح لهم مرّة في السنة، عندما تحلّ ذكرى تدمير الهيكل، بتأمّل ما بقي من أنقاض الحرم، حائط المبكى. لو سألوني لأجبت إن الأمر يتعلّق بأنقاض الهيكل الذي بناه هيرودس الملك الذي أبغضه أسلافهم كل البغض.

في غضون ذلك كان المسيحيون أتباع يسوع يتكاثرون وينشرون تعاليمهم على نطاق أوسع من فلسطين، في عموم البلدان شرق البحر الأبيض المتوسط، وفي شمال أفريقيا، والمنطقة الساحلية في شرق أفريقيا.

وعن قريب سوف يعتنق كثير من الجنود الرومان هذا الدين الجديد الذي بات يُدعى «المسيحية». لم يكن هذا الأمر ليفاجئني فكثير منهم كانوا ميثرائيين وهذه الديانة تصرّح بأن الإله ميثرا، «الشمس التي لا تقهر»^(١)، يعود كل عام في الانقلاب الشتوي. وكان المسيحيون يؤكدون أن مسيحهم بُعث حياً، وعليه كان بعض الميثرائيين يماثلون ميثرا بالمسيح بإعلانهم أنهم مسيحيون. علاوة

(١) في الأصل Sol Invictus.

على ذلك كان المسيح يقدم على أنه الوسيط بين الله الأسمى والناس، وكذا كان ميثراً.

في غزّة بلغت أسماع أحفاد أبيساف وعمران أصدقاء كثيرة عن هذه التحوّلات من دين إلى دين، ولم يكونوا غير مبالين بها. وبخلاف الميثرائيين الذين يُقصون قطعياً النساء عن معايبتهم لاحظوا أن هذه لم تكن حال المسيحيين. كانت النساء مقبولات تماماً ويشاركن في الاجتماعات كما في الاحتفالات المنظمة لذكرى المسيح. لم يكن القُداس المسيحي قد عُرف بعد، والاحتفالات المذكورة كانت كناية عن ولائم أصدقاء عند الغسق حيث يتقاسمون الخبز والخمر بطريقة احتفالية.

- لو كنا مسيحيين، قالت سولايا عمران لزوجها إمار ذات مساء، لاستطعتُ أن أرافقك إلى الاحتفالات الدينية. هكذا نصح متحدّين في الصلاة بدل أن نكون منفصلين دائماً. هذا ظلم في رأيي. كانت سولايا، الفلسطينية الأصل، التي لم تبلغ الثلاثين من العمر، قد اعتنقت الميثرائية مرغمة ولكي ترضي زوجها فقط. لكن في أعماقها لم يجذبها هذا الدين أبداً. وقصص الثور المقدّس الذي يذبح ليقدم قرباناً لم تبعث فيها إلا الاشمزاز.

لم يصمد إمار عمران طويلاً أمام توّسّلات زوجته، وبعد انقضاء بعض الوقت، علم صديقاها حنا وزهية فاسكور، اللذان تربطهما بهما أوامر القُربى أيضاً، أنهما يذهبان بانتظام إلى الاجتماعات المسيحية، وقررا أن يحذوا حذوهما. ما الذي كان ليقوله الكاهن حنون عن هذه الحالة هو الذي كان قد حمل أجدادهم على اعتناق الميثرائية؟ لن نعرف ذلك أبداً.

بمرور الوقت ازداد اهتمام العائلتين بالتعليم الديني المسيحي

وقررتا اعتناق المسيحية. لم يكن الأمر يتطلب أي اختبار إجباري: يكفي سكب الماء المبارك على الجبهة، وهو تقليد مألوف لديهم.

فجأة، حدث في العام ٣١٢ تحوّل كبير، لكي لا أقول زلزال. في ذلك العام كان الإمبراطور قسطنطين يخوض الحرب ضد منافسه مكسنتيوس (كانت الإمبراطورية آنذاك منقسمة إلى اثنتين، الإمبراطورية الغربية والإمبراطورية الشرقية) عندما رأى في منامه صليباً من نور في السماء، مع الكلمات التالية باللغة اليونانية: «بهذه العلامة سوف تنتصر»^(١). فما كان منه إلا أن أمر بكتابة الرمزين Ki و Ro، وهما المقطعان الصوتيان في كلمة Christ، أي المسيح، على دروع جنوده. بعد العديد من المعارك هزم قسطنطين خصمه مكسنتيوس وأصبح الإمبراطور الوحيد للإمبراطورية الغربية. تلك هي على الأقل القصة التي سمعتها من الأشخاص المتعلمين الذين كانوا يجوبون شوارعى على سبيل النزهة في بعض الأمسيات.

بعد سنة، في نيسان من العام ٣١٣، أصدر قسطنطين مرسوماً، سُمّي «مرسوم ميلانو»، أعلن فيه التسامح الديني، مؤكداً على أن كل إنسان حرّ في أن «يعبد على طريقته الإله الموجود في السماء»؛ وسمح بحرية العبادة لجميع الأديان، وأذن للمسيحيين أن لا يبجلوا بعد الآن الإمبراطور كإله.

مذاك أصبحت المسيحية دين الدولة. وفي عام ٣٢٥ خطرت له الفكرة الغربية بنقل عاصمته روما إلى بيزنطة، المدينة اليونانية القديمة التي سُمّيت من بعد القسطنطينية، وأصبحت مركز المسيحية الجديد. وفي السياق أخذ المبادرة لترميمي، علماً بأنه كان قد أقام بين

(١) في الأصل باللاتينية Entonto vika.

أسواري وهو طفل في الثامنة أيام الإمبراطور ديوكليتيان. في البداية أمر ببناء كنيسة جديدة بالوحي الذي تلقاه في المنام. ولم تكن هذه سوى البداية.

في غزّة ظهر آل فاسكور وعمران بمظهر الرواد الملهمين. وبعد أن كان المسيحيون عُرضة للازدراء، بل الاضطهاد، أصبحوا مفضّلين. ولا يكاد ينقضي يوم أحد من دون أن تُرى العائلتان في كنيسة غزّة الصغيرة المسماة باسم القديس قسطنطين طبعاً.

في نهاية المطاف لم يُغيّر هذا الوضع شيئاً يُذكر في الحياة اليومية باستثناء الاعتراف الذي كان يتعيّن أن يسبق تناول الخبز المقدّس.

غير أن هذا الدين لم يكن خالياً من المحذورات. هذا ما تعلّمه على حسابه الشاب مالك عمران ابن عصام وسولايا. ذات يوم اعترف للأب أمبروس بأنه أطال النظر إلى فتاة عبّر لها عن رغبته فيها وظنّ أن نهايته اقتربت.

- كيف؟ أردت أن تزني مع مخلوقة تجهل حتى اسمها؟ ما هذا الجنون؟ كم عمرك؟

- سأبلغ السادسة عشرة قريباً...

- ألم يُعلّموك أن الشهوة خطيئة؟

- ال... ش... وة؟ غمغم المسكين مالك.

- الشهوة! الرغبة في اللذة الجنسية خارج رباط الزوجية!

- لا...

- اعلم أنّ هذه اللذة غير مسموح بها إلا للإنجاب ولد وتأسيس

عائلة. تُب، أيها الخاطيء! واندم على ما فعلت! وإلا سوف تذهب إلى الجحيم.

بقي مالك فاقد الصوت، حكم عليه أن يصلي للرب مدّة ساعة لكي يغفر له خطيئته الفظيعة. نفّذ الحكم طبعاً، لكن كان عنصر جديد قد دخل في حياته: الشعور بالذنب، وقد أقلقه هذا الأمر.

أفكار متناقضة ومعذّبة كانت تتدافع، لا بل تتصادم في رأسه. ألم يعلموه أن الله المسيحي كان إله الحب والتسامح؟ هذا الإله هل يمكنه أن يحقد على مخلوقاته؟ إذا كان قد خلقهم فلا بد أنه يعلم مسبقاً مكانهم وضعفهم. عندما كان مالك صبيّاً صغيراً شرح له الكهنة أن جميع الناس تُخلقوا في الخطيئة. «الخطيئة الأصلية»، لكن كيف يمكن للمرء أن يخطئ حتى قبل أن يأتي إلى العالم؟

ذات مساء كاشف أخته الكبرى ماجدا، اختصار ماجدالونا. كانت في الثامنة عشرة من العمر، غير متزوجة على الرغم من بُنيّتها الجسدية المُرضية، وبدو أن خطيبها الذي اختاره أهلها اختفى بطريقة غامضة. تلقت بوح أخيها بحيرة واضحة.

- أنت تطرُح عليّ أسئلة أجد صعوبة في الإجابة عنها. لكن إن هذا يطمئنك أقول لك إنني أطرح على نفسي الأسئلة ذاتها.
- أريد مع ذلك أن أفهم، هل تعتقدون بأن إله الإسرائيليين قاس هو أيضاً؟

- أنت تتفوّه بحماقات، لا يوجد سوى إله واحد، إلهنا هو نفسه إله الإسرائيليين.

- إذن، لماذا قتل اليهود يسوع عندما دعا إلى الإله نفسه؟
- على حدّ علمي، ليس اليهود هم المسؤولين عن موت يسوع بل الرومان.

- والرومان، مَنْ يعبدون؟

- يعبدون آلهة كثيرة.

- لكنك قلت لي إنه لا يوجد سوى إله واحد!
- توقف يا مالك، إنك تُتعبني. إن كانت لدي نصيحة لك فإنني
أنصحك بأن تنسى كل هذا وكُفَّ عن النظر إلى الفتيات.

هزّ الفتى رأسه بهيئة المتحرر من الوهم. ما زال لا يفهم شيئاً.
منذ صدور مرسوم ميلانو كان المسيحيون يتمتعون رسمياً بالحرية
الدينية؛ كان لديهم مطران أيضاً هو ماكاربوس، واختفت تماثيل
الآلهة الرومانية. وعادوا يسمّونني أورشليم.
لكن لا أستطيع متابعة هذه الحكاية من دون أن أطلعكم على
حدثين وقعا في أثناء عمليات الترميم التي أمر بها قسطنطين.

ذات يوم جاءت الإمبراطورة هيلانة، والدة قسطنطين، لزيارتي
في فصل الربيع مُصمّمة على العثور على الجُلجلة، المكان الذي
صُلب فيه يسوع وقُبر. سارع القوم إلى إعلامها: إن الجُلجلة توجد
في المكان الذي بُني عليه الهيكل الذي كرّسه هادريان لـ«شيطان
الفسوق» فينوس - أفروديت، وفي الحال هُدِم الهيكل مع الوعد ببناء
أجمل كاتدرائية في العالم مكانه. ثم بوشرت أعمال التنقيب للعثور
على قبر المسيح. ويبدو أنه تم اكتشاف جزء منه، هو المحفوظ في
الكنيسة المعروفة حالياً باسم كنيسة القبر المقدس وعليه قُبّة.

تابعت هيلانة بحثها عازمة على اكتشاف الصليب الحقيقي.
وجدت العديد من الصلبان، لكن أيّها كان صليب يسوع وأيّها صليبا
للصين اللذين احتضرا في أثناء احتضاره. أمرت الإمبراطورة بانتزاع
أجزاء من هذه الصلبان ووضعها بالقرب من امرأة تحتضر، ثم طلبت
منها أن تلمس تلك الأجزاء فكانت الأعجوبة، حالما لمست
المحتضرة جزءاً من بينها شُفيت.

سارعت الإمبراطورة وقد غمرها الفرح إلى جمع كل الأجزاء
والمسامير الممكنة وأرسلتها إلى القسطنطينية.

لا أريد أن أناقض أنصار التقاليد لكن يجب عليّ التذكير بما قلته
سابقاً من عدم اللجوء أبداً إلى تسمير أيدي وأرجل المحكومين بل
ربطهم بخشبة الصليب وتركهم يموتون ببطء.

أما المسامير التي عثرت عليها هيلانة فكانت بالتأكيد تلك التي
استعملت لتثبيت الخشبة العرضية للصليب على عمود الدعم.
وانطلاقاً من هذا الاكتشاف بدأ المؤمنون المتحمسون ترويج الفكرة
القائلة بأن التسمير كان جزءاً من التعذيب. ثم إن الجُلجلة لم تكن
مكان الصلب الوحيد المحفوظ للمسيح، وكان يستعمل أيضاً لنصب
صلبان المحكومين بجرائم الحق العام، كما يشهد على ذلك صلب
الصلبين اللذين وجدا على جانبي يسوع. شعوري أن النقابين سارعوا
إلى تلبية رغبات الإمبراطورة هيلانة عبر تزويدها بالبقايا المزعومة
التي كانت تبحث عنها.

الأفكار كثيراً ما تختلف من إمبراطور إلى آخر. والتنصير
المباغت للإمبراطورية لم يكن مقبولاً أبداً من أحد خلفاء قسطنطين
جوليان الملقب بالمرتد. هذا الإمبراطور الجديد رأى أن الدينين
المهيمنين في الشرق الأوسط، اليهودية والمسيحية، يتسببان في
اضطراب مؤذ داخل طائفتيهما ويهددان السلطة والسلام.
في عام ٣٦١، منع جوليان المسيحية.

كان الانفعال كبيراً. من أعلى فلسطين إلى أسفلها، على
الساحل وفي الداخل، انتشر الجنود ذات يوم وأقفلوا بالمسامير
أبواب الكنائس.

الغريب أن جوليان حافظ على اليهودية وألغى الضرائب التي

فرضها هادريان على اليهود، حتى أنه منح اليهود حق إعادة بناء الهيكل. في الواقع كان يرمي من وراء مشاريعه الغامضة إلى كسب ولاء هذه الطائفة في الحرب التي كان ينوي أن يعلنها ضد الفرس.

هكذا احتل يهود مرة أخرى جبل الهيكل وحطموا تماثيل الإمبراطورين هادريان وأنطونين التي كانت قد نجت خلال هذه القلاقل المتعاقبة. وتأهبتُ لرؤية هيكل رابع ترتفع أركانه. غير أن اليهود لم يسعهم الوقت لبنائه: بعد سنتين، في السابع والعشرين من شهر أيار لعام ٣٦٣ وقع زلزال اهتزت له أرضي، وتسبب في اندلاع حريق وجعل مواد البناء غير صالحة للاستعمال.

بدأت أتساءل جدياً عن المصير الذي يبدو أنه يحق بهذا الصرح. أعيد بناؤه مرتين ورُمّم في ثالثة ويبدو أنه ضحية رُقَى مؤذبة. المسيحيون الذين فرحوا بهذا الحدث رأوا فيه علامة من السماء. فرح تضاعف عندما علموا بأن جوليان، الذي كان قد ذهب لفتح بلاد فارس، اغتيل على يد جندي خرق كيدته بحربته. خليفته، تيودوس الأول، ألغى مرسومه: واستأنفت القسطنطينية سياسة تنصير فلسطين.

غالباً ما فكّرت في أنّ المدن لو كان بوسعها أن تنصح الناس لجنتهم الكثير من الأخطاء وفي مقدّمها عدم التسامح، فالناس على الرغم من اختلافاتهم الظاهرة في اللون واللغة جميعهم متشابهون وأكثر استعداداً للعيش معاً من التناوب لأسباب تبدو لي تافهة، مثل اسم إله أو الطريقة التي يتعيّن على المرأة أن تتبّعها في ارتداء ملابسها؛ ولتسمحوا لي بالقول: إن التسامح هو الشرط في كل ذلك، علاوة على أن الجريمة والمجزرة تخلقان مُتّهمين أبديين: هم ضحاياهما.

لم يكن المسيحيون يملكون هذه الحكمة أكثر من الآخرين؛
والدليل على ذلك ثراتهم وشجاراتهم حتى فقدان العقل لمعرفة إن
كان المسيح إنساناً فقط أو إنساناً وإلهاً معاً.

بدأ ذلك مع كاهن، نعم، كاهن، يدعى أريوس، أنكر ألوهية
يسوع. وقد تسبب الاعتراض في بلبلة لا يتصوّر أحد اليوم مدى
اتّساعها؛ عمّت أوروبا كلها ونغصت العشاءات العائلية.

أنا، عاينت على الدوام ظهور كنائس جديدة، وكنت أتنفّس على
إيقاع المسيحية الأرثوذكسية. والحال أن البيزنطيين المسيحيين
جعلوني مجدداً المدينة التي كنتها في زمن هيروُدس. سطعتُ على
فلسطين كلها والسلطة الروحية لسكاني كانت تنافس قوتهم المالية.

غير أنني كنت أراقب العالم من أعلى أسواري .

في أوروبا، كان الرومان يحاولون منذ قرنين صدّ موجات الغزاة المتعاقبة من الشرق ومن الغرب . نسيت اليوم أسماء معظمهم ولا أعرفهم إلا من خلال حكايات المسافرين واللاجئين .

في الشرق، أعادت بلاد فارس بناء قوتّها، وكان يحكمها «ملك الملوك» كِسرى الثاني^(١) . في عام ٦١٠ وجد كسرى في الفوضى السائدة في الإمبراطورية البيزنطية فرصة مؤاتية لاحتلال الشرق . يكفي تفصيل صغير للتعريف به : كان حريمه يضمّ ثلاثة آلاف سُرّيّة ويصف نفسه بأنه «ملك الأرض كلها»، وكان حلمه تدمير القسطنطينية التي توحى له بالقلق والضعينة . عندئذ بدأ بإرسال قائد جيشه شهر-بازار «الخنزير الملكي»، لفتح دمشق . وكانت تلك مرحلة أولى .

في عام ٦١٣، بينما كان سلاح الفرسان والمشاة الفُرس يزحفون نحو، خرج يهود أنطاكية من بيوتهم لاستقبالهم بالهتافات . لا شك في أنهم كانوا يفكرون أن الفرصة سنحت لهم لكي يثأروا لأنفسهم

(١) أوخسرو الثاني، ملك الدولة الساسانية، ابن هرمز الرابع، توفي عام ٦٢٨ في قطيسفون بالعراق (المترجم).

من الإهانات التي كانوا يتعرضون لها منذ أجيال من قِبَل الرومان
والمسيحيين .

بعد سنة، رأيت شهر-بازار يجتاز بابي . كنت قد انتميت إلى
كثير من الأمم منذ قرون! أقول إني كنت منفعلة؟ نعم، باليهود الذين
كانوا يسكنون هنا والذين يعودون للبكاء على قبور أسلافهم . لكن ثمة
انفعالات أخرى تنتظرنني .

كان من مهمات الخنزير الملكي احتلال مصر، وفي غضون
أسابيع اندفع بجنوده نحو النيل . لكن ما إن غادر حتى انتفض
المسيحيون ضد العدد القليل من الرجال الذين تُركوا هنا لمراقبتي،
و ضد اليهود الذين كانوا يدعون أنهم استردوني . ولما علم الخنزير
بالفوضى السائدة قفل عائداً على وجه السرعة وكان هجومه مرعباً:
تدفق جنوده في شوارعني . قُتِل آلاف المسيحيين برماح العساكر
وأرسل الناجون إلى المنفى مع بطيركهم .

والفارون الذين لجأوا إلى جبل الزيتون رأوا بعيون دامعة السنة
اللهب تلتهم كنيسة القبر المقدس والكاتدرائية الأرمنية . وشاهدوا
مشعلي الحرائق يستولون على البقايا التي اكتشفتها الإمبراطورة
هيلانة: الرمح الذي اخترق خاصرة يسوع، الإسفنجة المبللة بالخل
التي مَدَّها حارس إليه ليروي ظمأه أثناء صلبه، وطبعاً «الصليب
الحقيقي» . كل هذه الأشياء أُرسِلت إلى كسرى الثاني الذي قدَّمها إلى
ملكته شيرين التي كانت مسيحية على المذهب النسطوري^(١)، والتي
سارعت إلى وضعها في كنيستها في قطيسفون^(٢) . لكنَّ الصليب

(١) طائفة مسيحية اعتبرتها الكنيسة «الرسمية» هرطوقية وأدانها .

(٢) مدينة فرثية كانت على الضفة الشمالية لنهر دجلة، على بعد ٣٠ كلم جنوب

- شرق مدينة بغداد الحالية في العراق .

الحقيقي ألم يُرسل إلى قسطنطين من قِبَل أمه؟ سؤال ساذج: لقد وجدوا، بالتأكيد، صليباً آخر أو صنعه.

خسر المسيحيون كل شيء. وأنا أنزلت، مرة أخرى، إلى مرتبة دُنيا وأعطيت دور الشاهد العاجز قُبالة كل هذا الدم المسفوك من دون جدوى. مَنْ لا يزال يتذكر أن آلاف المسيحيين تعرّضوا للنفي كما حصل لليهود من قبل؟ مَنْ يمكنه أن يقول لنا لماذا عامل الفُرس هذه الطائفة بمثل هذ القسوة؟ مع أن شيرين زوجة كسرى الثاني كانت مسيحية.

لا أستطيع الامتناع عن التفكير أيضاً في سخرية هذا الذي يسميه البشر «تاريخ». بعد ستة قرون على بداية عصرنا استعاد الفُرس كل البلاد والأراضي تقريباً التي كانت تحت سيطرتهم قبل حوالي ستة قرون. وإني لأتساءل هل إن العائلات التي كنت قد عرفتها وتمكنت من متابعة سيرتها قد تفرّقت؟ هل أراهم ثانية؟

منذ الهجوم الفارسي هرب آل عمران وأيساف. كانت عشيرتهم قد كبرت وضمّت عائلات كثيرة بلغ تعدادها حوالي مئة بالغ، ولا أتحدث إلا عن هؤلاء لأن المؤسف أن الأطفال كانوا يموتون في غالب الأحيان وهم في سن مبكرة. بعضهم سلكوا طريق البحر وذهبوا إلى الجُزر، قبرص أو رودس، ولجأ آخرون إلى المدن الصغيرة التي لا تثير اهتمام الفاتحين، مثل سيلا في وسط صحراء النقب، وإيلات أو إيزيون - جبر^(١). وكان لديهم متسع من الوقت لرؤية أولادهم يكبرون، وحتى لتزويج من بلغوا سن الزواج، إلا أنهم لم يعمرُوا طويلاً.

(١) في الأصل Ezion-Geber. تعرف باسم تل الخليفة تقع قرب إيلات (المتروم).

هل أفاجئ قارئى إن قلت له إن الفرس لم يَطل بقاؤهم لا في أورشاليم ولا في فلسطين؟ أشك في ذلك.

ظهر بطل جديد: كان طويلاً، أشقر، جميلاً، ويحمل اسماً بطولياً: هيراقليوس، يعني باللاتينية هرقل، لا أقل، ابن حاكم أفريقيا، وكان أرمنياً، وإذن مسيحياً. كان قد أعلن نفسه إمبراطور الشرق، لا أقل من ذلك أيضاً. وفي السادس من تشرين الأول عام ٦١٠ ألقى المرساة في القسطنطينية وخلع حاكمها (وهو مراب) وترأس دولة منهاراة، مهددة بالغزاة وفريسة للحروب الأهلية.

بعد خمسة عشر عاماً حاصر كسرى القسطنطينية مرة ثانية، وبسبب غيرته من قائده الخاص، شهر-بازار، أمر مساعد هذا القائد بقتله. اعترض هيراقليوس حامل الرسالة فأخذها منه وأراها للقائد. تحالف الرجلان وتوقفت المعارك، وأعاد الفرس إلى الإمبراطورية البيزنطية كل الأراضي التي كانوا قد أخذوها منها. وأكثر من ذلك أيضاً، أهدى كسرى الثاني هيراقليوس الأجزاء الشهيرة من «الصليب الحقيقي».

في عام ٦٣٠ غادر الإمبراطور القسطنطينية مرتدياً ثياب التائب وحاملاً صورة العذراء، وجاء بنفسه ليحمل البقايا المقدسة. لكن أكانت هي البقايا الحقيقية؟ يقال إنه أمر في هذه المناسبة بإنشاء واحد من أبوابي، الباب الذهبي^(١) التذكاري الضخم، وهذا ليس مستحيلاً، إذ يحدث لي أحياناً أن أتفّس الصعداء.

بعد أيام على وصول هيراقليوس أمر بطرد اليهود الذين ما زالوا

(١) سُدّ بالطين في عام ١٥٤١ بأمر من سليمان القانوني، لأن المسيح سوف يدخل من هذا الباب إلى أورشاليم وفقاً للتقليد اليهودي.

بين ظهرانيّ وذبح بعضهم. أما الذين أصروا على البقاء فكان عليهم أن يعتنقوا الدين المسيحي.

أصبحت مجدداً مدينة مسيحية وعادت عائلات عمران وأيساف للإقامة بين أسواري.

في النهاية لم يبق الفرس عندي، هل يساورني القول، إلا بثلاث نزهات داميات راح ضحيتها الجميع، يهوداً ومسيحيين، ثم ذهبوا. قتلوا عدداً لا يحصى من الأبرياء وخسروا عدداً لا يحصى من رجالهم. من أجل ماذا؟ لكن هذا النوع من الاعتبارات تافه: من شأنه أن يجعل حكايتي بلا جدوى.

بعيداً جداً عن أرضي كان حدث كبير يوشك أن يقع في قلب الجزيرة العربية، وسوف يهزّ العالم.

لم أكن حاضرة، لكنني علمت أن ذلك حدث في العام ٥٧٠، مساء يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول^(١) لعام الفيل^(٢).

كانت أمينة جالسة في الفناء المجاور لدار عمّها، وعلى الرغم من نسيم الليل كانت الحرارة لا تزال خانقة. وكان القمر بديراً مكتملاً يرسل ضوءاً لبنياً على منحنيات الكثبان. فجأة شعرت بأن النور الذي تحمله منذ تسعة أشهر يظهر رغبته في الانبثاق. وانتزع منها عنف الطلقات صرخة نبهت نساء البيت. وبصبر، وأناة، وطمأنة، وتمكّن من الحركات الألفية، ساعدن أمينة على أن تضع وليدها في العالم. كان ذكراً، وعندما وضعه في حُجْرِ الأم همست ووجهها ينضح عرقاً:

(١) ١٢ تشرين الأول. لكن من الصعب تأكيد هذا التاريخ على وجه الدقة.

(٢) إشارة إلى سنة مجيء أبرهة الحبشي، ملك اليمن المسيحي، مع فيلته لكي يحاول هدم الكعبة.

- أعيذك بالواحد الأحد من شر كل حاسد إذا حسد.

وقالت لإحدى قريباتها:

- ينبغي إبلاغ جدّه!

بعد دقائق وصل عبد المُطلب إلى الدار، اطمأن إلى صحة الأم،

وأخذ الطفل بين ذراعيه:

- إذن، أنت ابن عبد الله؟ نحبُّ والدك كثيراً، ونشتاق إليه،

لكن بفضلك نشعر بأننا وجدنا بضعة منه.

ولمّا سُئِلَ ماذا سيسمّيه، قال:

- أسميه مُحَمَّد.

لم يكن أحد من سادة العالم، سواء في روما أو في القسطنطينية، يعرف شيئاً عن شبه الجزيرة العربية آنذاك، وكأنها لم تكن موجودة. أما اليهود المتعلمون فكانوا يحفظون شيئاً من الروايات التوراتية عن الزيارة التي قامت بها ملكة سبأ لسليمان وكانت لديهم فرضيات غامضة حول وجود مملكة في الجنوب اندثرت منذ قرون. وكانوا يسمعون من رجال القوافل أخباراً غير دقيقة عن وجود قبائل يهودية ومسيحية ووثنية متفرقة في صحاري شبه الجزيرة العربية تتعايش في وفاق نوعاً ما.

إذن، لا سادة العالم المفترضون ولا وزراءهم كانوا على علم في العام ٦١٠ أن الملاك جبرائيل قام بزيارة إلى رجل يدعى محمّد ونقل إليه كلام الله وأنه جعل من هذا الإنسان نبياً، وكان ذلك في مكان يسمّى مكّة.

شجعت السيدة خديجة، الأرملة الغنية التي كان قد تزوجها محمّد، النبيّ على أن ينقل إلى الناس ما يتلقاه من وحي والمهمة التي كلّفه الله بها: إلغاء عبادة الأوثان، ونشر «الدين الحق» في أرجاء العالم. تردّد النبي في بادئ الأمر ثم نقّذ ما أمر به، ولم يمض وقت طويل حتى اتبعه عدد كبير من المؤمنين. وكان يدعو إلى المساواة، والعدالة، وعبادة الإله الواحد، إله إبراهيم وعيسى.

مَنْ كان يمكنه أن يصمّ أذنيه عن مثل هذه الدعوة؟
وشيثاً فشيئاً ألفَ النبي القبائل العربية الواحدة تلو الأخرى،
وأنشأ دولة وفي الوقت نفسه أسس ديناً جديداً هو الإسلام، وتلك
معجزة لم يتخيلها أحد من عظماء الرجال الذين ظهروا على مسرح
العالم الكبير، ولم أرَ أنا ما يوازيها. هذه الدولة، الأمة، كان لها
جيش، وإلامَ تهدف الدولة إن لم يكن إلى إخضاع العالم؟
كنت أنظر إلى البعيد من أعلى تلالِي.

ولقد عاينت هذا التحوّل الخارق، انضمام آلاف مؤلّفة من
الناس الذين كانوا، على غرار اليهود والمسيحيين، يدعون إلى عبادة
إله واحد.

لقد ظهر معارضون طبعاً.

فالرجل يزعج، يزعج بوجه خاص مُشركي مكّة الذين حاولوا
القضاء عليه بالسلاح. ويزعج القبائل اليهودية - وعددها ثلاث على
الأقل - التي كانت تعيش في الجزيرة العربية ولا تنوي التخلي عن
إيمانها ولا عن تقاليدها، ويزعج المسيحيين الذين يؤمنون بأن يسوع
ليس نبياً فحسب بل هو ابن الله أيضاً. لم يرَ أيُّ من هذين الدينيين
التوحيديين سبباً للإيمان بالكتاب الذي يبشر به هذا الوافد الجديد،
حتى وإن كان النبي يؤكد أنه كتاب الله.

في شهر حزيران من العام ٦٣٢، بعد أن تغلّب على سائر مَنْ
ناصره العدا، وبعد أن وَحَدَ القبائل العربية، أسلم رسول الله الروح
إلى بارئها وهو في حُجرة زوجته المفضلة السيدة عائشة التي روت
أنها سمعته يقول: «بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى»، وأن ذلك
كان رداً على تخيير ملك الموت له بين البقاء في الدنيا أو الالتحاق
بالله في الآخرة.

بعد وفاة النبي مباشرة بويح أبو بكر بالخلافة ولُقّب بـ«أمير المؤمنين»، وتابع تنفيذ المشروع الكبير الذي بدأ في حياة سيّده وصديقه. هذا المشروع يتلخّص في بضع كلمات: نشر الإسلام في العالم. كان النبي على يقين من أنه حامل لرسالة، وأن هذه الرسالة يجب أن تُبلّغ لا إلى قومه فحسب بل إلى الإنسانية جمعاء؛ لأن كلام الله وإن كان قد نزل عليه باللغة العربية فهذا لا يعني أنه موجّه إلى العرب وحدهم، بل لأن الله اختار العرب لحمله إلى شعوب الأرض الأخرى. أما الوسيلة فكانت واضحة: السيف؛ إن لم تنفع الكلمة.

مثل جميع العرب في ذلك الزمن، كان أبو بكر لا يعرف شيئاً عن العالم المحيط به. وقد سمع ببيزنطة وفارس، ولم يجتز أبداً البحر الأحمر ولا الخليج الفارسي، ولا البحر الأبيض المتوسط، ولا يعرف سوى شبه الجزيرة العربية التي تنقل في أرجائها. كان ذهنه صفحة بيضاء نُقِشت فيها تعاليم ذلك الذي كان له شرف صحبته حتى وفاته: النبيّ محمّد. ومع ذلك سوف يصبح أبو بكر أول قائد لملحمة سجّلتها الجيوش العربية التي افتتحت عدداً كبيراً من البلدان التي كانت مجهولة لديهم آنذاك، حيث يعيش أناس لهم شعور سُقر، وآخرون لهم عيون مشدودة مثل المغول.

يوماً بعد يوم كان بساط البلدان يمتد تحت أقدام الجيوش المسلمة ولا شيء، على ما يبدو، قادر على وقف حركتهم.

لا أعرف تفاصيل هذا التوسّع الذي كان خاطفاً بالتأكيد، ولا أسماء الفاتحين الأولين. لا أذكر إلا ذلك اليوم من عام 638 الذي رأيت فيه السهول المحيطة بي ممتلئة بعساكر يقودهم أحد أصحاب رسول الله، الخليفة عُمر. أشار إليّ بإصبعه وصاح: إيّلياء، إيّلياء!

ولا شك في أن هذه الكلمة اختصار لاسم أيليا كابيتولينا، وهو الاسم الجديد الذي أطلقه عليّ هادريان.

لم أر من قبل قط هذا العدد الكبير من الجمال والخيال. وعلمت أيضاً أن هؤلاء القوم يعيشون في حركة تنقل دائمة، وأن الحركية كانت عندهم طبيعية كما هي الحضرية عندنا. ولعل في العيش من دون جدران لذّة أهملناها في سبيل رغد العيش تحت سقف وقرب موقد.

يبدو أن الهدف الأول لهؤلاء المقاتلين لم يكن محاصرتي عسكرياً بل التوسع. كانوا قد استولوا على دمشق ومنعوا القسطنطينية من التعدي، ولم يكونوا بحاجة إلى إظهار تفوّقهم مرة أخرى. وأخذ المسيحيون الذين باتوا يشكلون منذ بعض الوقت غالبية سكاني يتساءلون عن المصير الذي ينتظرهم: هل يعمد هؤلاء القوم إلى تجويعهم كما فعل الرومان وغيرهم من قبل؟ هل يذبحونهم؟ هل يدمرونني!

كان سوفرونيديس، البطريك الثمانيني الذي يحكمني، من بُعد النظر بحيث لم تساوره أية أوهام، وسرعان ما أدرك أن انتظار قدوم الجيش البيزنطي لنجدة المدينة لا طائل من ورائه فقرر الاستسلام من دون قتال.

دخل الجيش العربي من الباب الذهبي.

كان أول قرار اتخذه عُمر هو المجيء إلى ساحة الهيكل من حيث كان النبي محمّد قد عرج إلى السماء على ظهر البراق، وصلى مع مَنْ سبقه من الأنبياء، إبراهيم، وموسى، وعيسى، ثم نزل ثانية إلى الأرض.

بعد بضعة أيام حدث أمر خارج عن المألوف. أصدر الخليفة

مرسوم تسامح مع «أهل الكتاب»^(١)، أعطى بموجبه أهل إيلياء أماناً لأنفسهم وأموالهم، لكنائسهم وصلبانهم، مقابل أن يُعطوا الجزية. ثم إن عمر أمر ببناء مسجد صغير سقفه من الخشب جنوب الصخرة التي عرج منها النبي إلى السماء، وهو شبيه بالمساجد التي أقامها أصحاب النبي في بداية الإسلام.

هل أعترف لكم بأنني، أنا أورشليم، كنت في قمة السعادة؟ قبل قرون وقرون دامية شعرت فجأة بأنني سأعرف أخيراً سلاماً دائماً، ولقد أعجبت أيّما إعجاب بعبارة «أهل الكتاب». أفلا تتضمّن الوعد بسعادة لامتناهية؟

خلال قرون كثيرة كنت مدينة نبّين، إبراهيم ويسوع. وها إن نبياً ثالثاً يفتح لي ذراعيه ويجعل مني مدينة الأديان الثلاثة! أي مكان في العالم، وحتى في الكون كله، يمكنه أن يتباهى بمثل قدسيّتي؟ أخيراً، بات من حق الأديان التوحيدية الثلاثة أن تتعايش معاً. مدينة الأنبياء الثلاثة.

أخشى ألاّ يشاطرنني سكانني حماستي. لعلّهم يستشعرون بأن عصراً ينتهي ويجهلون ماذا سيكون التالي.

في ذلك المساء من شهر أيلول لعام ٦٤٠ كانت حالة من الاضطراب تعمّ الشرفة الرائعة لمنزل يوسف عمران، حفيد مالك عمران (الصبي الذي كان يطرح أسئلة كثيرة عن الله)، حيث كان يتناول مع عائلته طعام العشاء كالمعتاد، وإلى جانبه زوجته مريم.

كان قد مضى بعض الوقت على عودتهم إلى المدينة مسقط رأس أسلافهم. أما زُهار أبيساف وياريل فاسكور فقد آثرا البقاء في غزّة.

(١) المقصود هو ما يُعرف تاريخياً باسم «العهدّة العُمريّة» (المترجم).

كان بعض الضيوف ممدّدين على بُسط من حرير يتذوقون
جُرعات من الخمر بين لُقمتين من لحم الطيور الداجنة، وهذه طُرفة
مجلوبة من آسيا، كما يقولون. كان بين الحضور الأب ماكير، وهو
كاهن أرثوذكسي وصديق قديم لعائلة عمران.

فجأة تجمّدت الوجوه وسكت الجميع: كان المؤذن يدعو
المؤمنين للصلاة. منذ أن احتلني العرب كان الأذان أمراً شائعاً وقد
اعتدت على هذه النداءات كما اعتدت على رنين الأجراس، حتى
أنني كنت أجد نوعاً من السحر في هذا المزيج من الأصوات
والرنين.

ألقت مريم عمران على زوجها نظرة متسائلة ظننت أنني أقرأ فيها
«هل تسمع؟».

- نعم، وماذا إذن؟

لم تدرِ كيف تجيب.

رأى يوسف أن من المفيد أن يذكر:

- على الأقل، لم يُسفك دم كما حصل في غزّة.

كان الجميع على علم بما حدث هناك قبل ست سنوات. عندما
رأى المدافعون عن المدينة قدوم جموع الفرسان العرب ملوّحين
بالسيف والرماح بدأوا المعركة فذبّحوا عن بكرة أبيهم هم
والسكان. وفقد آل عمران وآل فاسكور في هذه المعمة بعض
الأقارب والأصدقاء. ومنذ ذلك الحين خضعت غزة لسلطة الخليفة
مثل فلسطين كلها. بعد أن كانت مصرية، ثم بابلية، ثم فارسية، ثم
يونانية، ثم رومانية، أصبحت فلسطين عربية.

- ومع ذلك فهذا الأذان مزعج، خمس مرّات في اليوم، علّق

أحد الضيوف، وكان تاجر فاكهة يمتلك عدّة مزارع في الوادي:

- مزعج؟ حرّك يوسف حاجبيه استياءً. وضوضاء الأجراس ألا تزعجك؟

- أبي على حق، قال توما عمران، ابن يوسف البكر. الأجراس ليست أخفض صوتاً.

خيّم صمت مقلق.

- لا أدري ماذا لديك ضدّ المسلمين، أرعد يوسف أخيراً. ألا يجلّون نفس الخالق الذي نجّله، نحن المسيحيين؟

هنا تدخّل الكاهن الذي لم ينبس ببنت شفة حتى الآن، وقال بنبرة رزينة:

- هذا دين مُحارب.

هزّ يوسف رأسه.

- يوجد ألف طريقة لشنّ الحرب: التنصير إحداها.

- نعم، سلّم ماكير، لكن نحن لا نسفك الدماء.

- حذارٍ، يا أبانا، قد يكذبك المستقبل ذات يوم.

التفت نحو ضيوفه، واستطرد:

- لكن ماذا تريدون في النهاية؟ أن نترك فلسطين؟ نترك أرض

أجدادنا لأنها اليوم خاضعة للعرب؟ هل إن ذاكرتكم من القصر حتى

أنكم تنسون كل هؤلاء الذين سبقوهم؟ ومع ذلك فأرض فلسطين ما

زالت هنا، إنها أرضنا، وموتانا يرقدون في ثراها. على كل حال، أنا

لن أبرح أبداً.

- إذن سوف تعتنق الإسلام في النهاية، قال التاجر ساخراً.

- هناك ما هو أسوأ من ذلك يا صديقي. يمكنني أن أصبح

يهودياً! ولكن لنكن جادّين، لماذا أرفض نبياً لا يعرف مثلنا إلا إلهاً

واحداً ويقول إنه صلّى مع إبراهيم وموسى وعيسى؟ في الحقيقة ديني هو أورشاليم، مدينة الأنبياء الثلاثة، هذا كل ما في الأمر.

لم تكن صيدونيا، أخت بسان الصغرى، تعلم أنها سوف تتذكر طوال حياتها هذا الحوار على شرفة منزل أبيها.

كانت أمّ طفلين، في عام ٦٦١، عندما اجتمع سادة العرب على جبل الهيكل لمبايعة معاوية أميراً للمؤمنين. هذا الخليفة الجديد الذي ينتمي إلى الأسرة الأموية وقف خاشعاً أمام قبر المسيح، لا بصفته حاجاً بل لكي يؤكد على الاستمرارية بين الأديان الثلاثة.

وكانت صيدونيا جدّة، في عام ٦٩١، عندما انتهى المسلمون من بناء المصلى الذي أمرهم به قائدهم، في أقصى الجنوب، من حيث يمكنهم أن يتأملوا في مكة عندما يؤدون الصلاة. أقيم البناء على الصخرة التي وضع عليها النبي محمّد قدمه ليلة المعراج. وسمّوه المسجد الأقصى. وكانت قُبته الرائعة ترمز إلى السماء، الصلة مع الله. لقد أعاد المسلمون على طريقتهم بناء هيكل اليهود، ولكن لإعلاء مجد الإسلام وعظّمته.

كنت على يقين يومها أن هذا المسجد الرائع سوف يصبح قلب الإسلام النابض، ورمزاً مقدساً، جغرافياً ودينياً.

ليلة احتضار صيدونيا كان صوت الأذان يتردّد في الأنحاء، وعندها أغمضت عينيها وصلّت من أجل أن يستقبلها الله ويهوّه في الجنة.

بعد سنوات طويلة قرّر أحد أحفادها، بارتولومي عمران، أن يغادر فلسطين، لماذا؟ بالتأكيد لأنه كان مثل جميع الشبان منجذباً بسراب الغرب. كان في حوالي الثانية والعشرين من العمر عندما وصل إلى نابولي ذات مساء من شهر شباط. ونظراً إلى ما يتمتع به

من حُسن التدبير والموهبة التجارية أصبح تاجر مُخْمَل في جَنوى
وجَنى ثروة باسم بارتولوميو... بسانو، ربما استذكّاراً لجَدّه الأعلى
بسان عمران. تعلّم اللغة الإيطالية باللهجة النابولية، ولأسباب
أجهلها بذل جهداً لنسياني.

كان منصور فاسكور، من نسل أبيساف، يرى أعماله آخذة في
التردّي منذ بعض الوقت. وُلد في غزّة واعتق هو أيضاً الإسلام على
كَيّر. وقد انجذب إلى هذا الدين لما فيه من وِرعٍ وحميّة. قبل عشر
سنوات قرّر العودة للاستقرار بين ظهرائيّ وإنشاء معمل للنجارة على
غرار سلفه سيمون أبيساف.

للأسف، لم تعد الأعمال على ما يرام منذ مدّة، لا أحد، أو
تقريباً، يكلّفه ترميم الدور الميسورة القديمة التي كان الفرس قد
دمّروها. وكان كثير من المقيمين هنا منذ عشرات السنين، مسيحيين
أو يهوداً، أو مسلمين، يتساءلون عن المستقبل الذي ينتظرهم.

كان منصور يعرف السبب: لقد تمّ القضاء على الأسرة الأموية
الحاكمة وحلّت مكانها الأسرة العباسية التي اتخذت من بغداد
عاصمة لها. وأصبحت هذه المدينة الكبيرة في بلاد ما بين النهرين
مركز الخلافة، بدلاً من دمشق التي تحوّلت إلى مدينة ريفية، مثلي
أنا.

- لا تقلق، سوف نأكل من عدسنا، وكّرأثنا، وفولنا، طمانته
زوجته سليمة.

هذا مستقبل كئيب لا يغري الأولاد.

- أتساءل إن لم يكن علينا أن نغادر هذه المدينة، هتف فجأة
مُراد، أحد الصبيّين.

- نغادر؟ هل فقدت عقلك؟ لماذا نغادر؟ قالت أمّه مذعورة.

- لا أدري، سوف أبلغ العشرين من العمر قريباً. أنا أتساءل.
هذه المدينة أشبه ببساط مسحور ينزلق من تحت قدمي من يمشي عليه.

- أنت ولدت هنا! على أرض فلسطين، في أورشاليم، مثل أجدادك! ماذا ستفعل في مكان آخر؟
أطرق مُراد.

نهض والده وخرج إلى الشرفة. كان يختنق. كلام ابنه حرّك في نفسه أسئلة تعذّبه منذ أسابيع: هل يكمن إباء المرء في التغلب على المحنة أو في البقاء وفيّاً لأرضه؟ خلاص عائلته ألا يرتبط بالفرضية الأولى؟ لكن ما قيمة عائلة ميسورة لكنها بلا روابط؟ أليس هو ابن أورشاليم في فلسطين أم يتعيّن عليه أن يصبح جوّاب آفاق تحركه الثروة على دروب هذا العالم التي تعصف فيها الريح؟

وما هي قضية هذه المعضلة؟ طريقة الأنبياء الملحة لتصوّر الله؟ أم أهواء الناس القاهرة التي تثير على الأرض عواصف لامتناهية. حمل معه هذه التساؤلات إلى سريره وأخذ يفكّر في أنها عبثية: كان ابن أورشاليم، وكفى.

غير أن الحجاج لم ينقطعوا عن زيارتي، أليس قبر المسيح هنا؟ وفي ما يتعلّق بالأديان الثلاثة كنت أتمتع بمزيّة غير متوقعة، اليهود، والمسيحيون، والمسلمون الذين دُفّنوا خلف أسواري كانوا مطمئنين إلى أنهم سيكونون أول من يخرج من التراب في يوم القيامة، لأنهم يؤمنون كلهم ببعث الأموات.

السنون تنصرم سِراعاً في ساعة الزمن الرملية. من بين هؤلاء الحجاج برز ذات يوم من شهر تشرين الأول لعام ١٠٠٩ شاب طموح

من مدينة نابولي يُدعى لورنزو بسانو، تروي سيرته العائلية أن أحد أسلافه القدماء كان حارس قبر يسوع. لم يكن لورنزو يعتقد بذلك إلا نصف اعتقاد، وعنده أن هذا السلف الذي ربما كان اسمه بارتولوميو أُعطي دوراً خيالياً. وأظن أنه سيدهش كثيراً لو أُخبر بأن هذا السلف كان سليل عائلة قديمة جداً في فلسطين هي: آل بسان.

كان بارتولومي بسان في الثانية والعشرين من العمر عندما هاجر، وكان لورنزو يكبره بعشر سنوات عندما وصل إليّ.

دلّوه على الفندق الذي ينزل فيه المسافرين الأكثر ثراءً. وجد الناس هناك في هرج ومرج، وأبلغه صاحب الفندق العربي الذي تعلم الرطائة بلغات الأوروبيين بالنبأ الذي لا يعقل: لقد دُمّر قبر المسيح.

- ماذا؟

افترض لورنزو أن صاحب الفندق لا يُدرك ما قاله، وهمّ بأن يذهب للتحقق من هذه الأقوال إلى أي سلطة في المدينة، حتى لو كانت البطريك بذاته، عندما اصطدم بحاجّ آخر، من مدينة البندقية. كان رجلاً ناضجاً، عيناه مغرورقتان بالدموع، ومع أن كلاً من النابولاني والبندقاني يتكلم بلهجة مختلفة فقد توّصلا إلى التفاهم شيئاً فشيئاً.

- لقد دمّروا قبر المسيح، غمغم الحاج.

- الخبر إذن صحيح؟

- نعم، لقد دمّروه حجراً حجراً.

لو قيل للورنزو إن الوثنيين احتلّوا القمر، أو إن الشيطان صعد من الجحيم لكي يرتقي عرش القديس بطرس في روما، لما كانت ردة فعله مختلفة. ضاقت أنفاسه من شدّة الغضب، ولم يتمكن من النوم

طبعاً. في اليوم التالي ذهب إلى المكان حيث كان مشهد العمال المسلمين وهم يزيلون صخور القبر المفترض ليسوع كافياً لتأكيد الخبر الذي لا يخطر على بال: لم تعد كنيسة القيامة سوى حقل من رُكام.

كان الناس من حوله يبكون، لكنهم لم يكونوا من المسيحيين فقط، بل كان معهم مسلمون يعبرون عن حزنهم أيضاً. لكن مَنْ كان بإمكانه أن يقترب جريمة كهذه؟ طرح السؤال، وردّ عليه بعضهم: «الحاكم». وأضاف آخر بالعربية: «المجنون».

طبعاً لم يكن لورنزو قد سمع شيئاً عن هذا المجنون، ولا أنا. كان الحاكم بأمر الله، واسمه الحقيقي أبو علي المنصور، هو الخليفة الفاطمي السادس، الذي يحكم من القاهرة، وينتمي إلى الأسرة الفاطمية التي تنتسب إلى السيدة فاطمة الزهراء ابنة النبي محمّد.

ما إن تولّى الحاكم الخلافة بعد أبيه العزيز بالله حتى أمر بمنع شرب الخمر حتى على المسيحيين واليهود، وعلى المسلمين طبعاً. كما أمر بتحويل كنائس القاهرة إلى مساجد، وعدم قرع الأجراس. لم يكتف بذلك بل اتخذ سلسلة من الإجراءات تهدف إلى تمييز غير المسلمين عن المسلمين بمظهرهم الخارجي: أُجبر المسيحيون واليهود على أن يلبسوا أحزمة وعمائم من قماش أسود، وبعد وقت قصير لم يعد لديهم الحق في ركوب الحيوانات النبيلة، الخيل والجمال، فضلاً عن تدابير كيدية أخرى نسيّها.

وفي غمرة عُنته أصدر، قبل يومين من وصول لورنزو، أمراً بتدمير كنيسة القيامة. ولم يكن يتصور آنذاك النتائج غير المحسوبة

التي ستترتب على بادرتة هذه، ولا أن المتحدرين من عائلة بسان هم الذين سيقفون وراءها.

بعد بعض اللقاءات الوجلة مع حجّاج آخرين اتخذ لورنزو قراره: سوف يرجع إلى نابولي وينذر العالم المسيحي بالتدنيس الشائن، ويعود هو إلى أورشليم ثانية لكي يقتصّ من الكفّار ويرمّم قبر ابن الله.

حين عاد لورنزو إلى إيطاليا فعل ما كان قد قرّر: أخذ يجمع الحشود حتى خارج نابولي ويخطب فيهم قائلاً إن الجيوش وحدها تستطيع أن تسترد شرف المؤمنين المهان. كيف؟ بالذهاب لاحتلال الأرض المقدسة. ولدى سماعه كانت الفكرة تشق طريقها إلى الأذهان، لكن كان لا بد من انقضاء أربعين سنة على موته لكي يتم الإصغاء إلى صرخاته التحذيرية.

في السابع والعشرين من تشرين الثاني لعام ١٠٩٥ أطلق البابا أوربان الثاني، الخطيب المفوّه، نداء من مدينة كليرمونت في منطقة أوفرنى الفرنسية حثّ فيه الفرسان على السفر إلى أورشليم وطرد الكفار منها. هذا النداء أثار موجة من الحماسة خصوصاً وأن البابا منح الصليبيين الغفران الكامل.

وجد السادة النبلاء الأموال اللازمة، وبدأت الورش البحرية تصنع السفن. ومن بين أولاد لورنزو بسانو الثلاثة لم يبق غير أصغرهم الذي لم يكن قد بلغ السن التي تمكّنه من الذهاب للقتال في الأرض المقدّسة، كما فعل أخواه أورلاندو وبييترو اللذان أبحرا على متن السفينة الشراعية ألا دانجلو التي كانت بمثابة سفينتهما العائلية.

- حجاج؟ لا، جنود المسيح! هتفا وهما يوّدعان الأهل والأصدقاء لخوض ما سيكون معركة حياتهما.

أبحرت عشرات السفن من مرسيليا، وجنوى، وأمافي، وروما، ونابولي، والبندقية، حاملة مئات المشاة، أي رجالاً من العامة لا خبرة عسكرية لديهم وألفاً وثلاث مئة فارس. وأقلعت السفينة التي تقلّ الأخوين بسانو وفرقتها في الثالث من أيار وبلغت ميناء حيفا في الثلاثين من الشهر نفسه. أما الصليبيون الذين نزلوا في مكان أبعد شمالاً فكانوا قد استولوا على أنطاكية، وفي الثالث من حزيران احتلّوا رام الله.

وبدأت المفاجآت تتالى للمُحاصرين كما للمُحاصرين على السواء. هؤلاء الأخيرون كانوا مذهبولين لرؤية جموع المسيحيين الذين يرونهم يتكاثرون يومياً حول أسواري. وكان الصليبيون مدهوشين لرؤيتهم ضواحي أورشليم تكتظ بالناس. وسوف يعلمون في الساعات القادمة أن حوالي خمسين ألفاً من المسيحيين سكان المدينة الذين طردهم الحاكم الفاطمي إفتكار الدولة أقاموا مخيمات مرتجلة، وينظرون إلى القادمين بأعين ملؤها الدهشة.

- لكن من هم هؤلاء القوم؟ صاح رؤساء الصليبيين، الدوق غودفروا دي بويون، الذي يقال إنه من نسل شارلمان، والدوق تانكريد دي هوتفيل، والكونت ريموند دي سان جيل. كانوا مذهبولين.

بدا أن عدداً من الكهنة كانوا يقودون هذا الحشد الكبير من السكان. ولحسن الحظ أن بعضهم ممن يتعاملون مع الحجاج كانوا يتكلمون بلغات الصليبيين، الألمانية، والفرنسية، والإيطالية، واليونانية.

- نحن نموت من العطش، قال أورلاندو بسانو.

كان حزيان فلسطين قائظاً.

- اتبعوا هذا الرجل، أجاب الكاهن، سوف يقودكم نحو خزّان ماء بارد، هو الخزان الوحيد؛ لأن حاكم المدينة أمر بطمر جميع الآبار عندما علم بقدمكم.

تبع المئات هذا الدليل. قادهم إلى عين سلوان التي كان يمكن الوصول إليها من خارج المدينة، ولم تغب المشادات بين أولئك المتعطشين إلى ملء قُرْبهم بالماء. هل أذكركم بأن هذه العين كان يغذيها نبع جيحون الذي استقيت منه قبل ألفي سنة، هذه المياه التي عكف عليها اليوسيون، واليهود، ويسوع.

هبط الليل. كان أورلاندو وبييترو يتأملان المشهد الريفي حولهما. هنا وهناك تلمع نيران المطرودين التي أشعلوها لطهي المؤن التي جلبوها معهم. وفي الغرب تلمع نيران الصليبيين. كان يمكن الاعتقاد أن ارض فلسطين كلها تشتعل.

فجر السابع من حزيران لعام ١٠٩٩ حاول الفرسان البالغ عددهم ألفاً ومئتي فارس والاثنا عشر ألف جندي من المشاة شنّ هجومهم الأول فأخفقوا. وسرعان ما أدرك أورلاندو أن فتح المدينة لن يكون ممكناً إلا بواسطة الأبراج والمنجنيقات. غير أن الفرنجة لم يأخذوا ذلك في الحسبان، وبالتالي فهم لا يملكون المناشير ولا المطارق ولا الخشب لبناء هذه الآلات ولا السلاالم أيضاً. لحسن الحظ وصلت ظهراً مراكب جنوبية إلى ميناء يافا. فُككت تلك المراكب، وجرى تجميع كل ما يمكن من الأخشاب، وفي الصباح الباكر انهمكت جحافل من العمّال المرتجلين في إنجاز المعدّات العسكرية المطلوبة. بعدما يزيد قليلاً عن شهر، في الرابع عشر من تموز، كانت

البيارق ترفرف والأبواق تعزف فيما تصبّ المنجنيقات وابلأ من الحجارة على الأسوار. استقبل المدافعون أوائل المهاجمين المشاة بالقار المحرق والجمر المشتعل.

استمرّت المعارك طوال النهار. في اليوم التالي أمر القادة النورمانديون والتابعون لريموند دي تولوز بوضع البرج المتحرك والآلات الأخرى أمام الجانب الأضعف من تحصيناتي ذلك الذي يجاور برج اللقالتق ووادي قدرون. ومن فوق أحد الأبراج أخذ غودفروا دي بويون يرمي الأسوار بالحجارة من مقذافه، وكان يمكن رؤية الجنود الفاطميين يُمنون بخسائر فادحة. لكن الأسوأ لم يحدث بعد.

عند الظهر تقريباً مُدّ جسر من برج غودفروا المتحرك، وكان هو من ضمن الأوائل الذين وضعوا أقدامهم على السور، وتبعه بيترو وأورلاندو بسانو، شاهرين سيفيهما. طغى الزحف على العرب المدافعين ولم يكن أمامهم من خيار سوى التراجع نحو المسجد الأقصى ومحاولة تنظيم الدفاع من هناك، لكن سرعان ما أسقط في أيديهم.

بدا أن لا شيء يمكن أن يوقف سخط الصليبيين ولا تعطشهم للانتقام فقد أعملوا بكل الذين لقوهم قتلاً وتقطيعاً. غطت الأشلاء شوارعى وساحاتي. ذُبح المدافعون عن الأقصى بمن فيهم أولئك الذين كانوا قد لجأوا إليه وسالت الدماء في الشوارع. لم أحصِ عدد القتلى من العرب لكن وفقاً للبعض لم يقلّ العدد عن ستين ألف قتيل. وفي معسكر المسيحيين شاهدت موت الأخوين بسانو، بيترو وأورلاندو، وكان من سخرية القدر أنهما أسلما الروح على بُعد خطوات من المنزل الذي عاش فيه جدّه الأعلى بسان عمران.

في السادس عشر من تموز كُلفت فرقُ بإزالة الجثث التي كانت تعيق التقدم أحياناً ودفنها في المدافن المجاورة. كنت فارغة.

لم يبق أحد تقريباً ما عدا بعض الناجين الذين لا أدري كيف أمكنهم النجاة من سخط وعنف الصليبيين، لا أحد من المسلمين، ولا أحد من اليهود أيضاً وأولئك الذين كانوا قد لاذوا بالكنيس قُتلوا فيه عندما أحرقه الصليبيون.

تردّد المسيحيون المنفيون في العودة، يرددهم الرعب الذي أشاعته المعارك في كل مكان. واقتضى الأمر أسابيع للانتهاء من غسل الجدران والأرض من الدماء ودفن ما تبقى من الجثث. وكان بعض الكهنة الذين عادوا إلى كنائسهم يقيمون القداديس أمام قاعات شبه فارغة.

لم يكن في المدينة العُليا سوى ألفي جندي من المشاة وثلاث مئة فارس يمنحونها شبه حياة؛ لأن كثيراً من الصليبيين عادوا إلى بيوتهم في أوروبا معتبرين أنهم أدّوا مهمّتهم. كان الصليبيون يريدون ملكاً. ملك أورشليم.

عرضوا اللقب على ريموند دي تولوز فرفضه، وقبل غودفروا دي بويون، لكنه من تواضعه فضّل أن يحمل لقب «حامي القبر المقدّس»، وانصرف إلى محاربة الجيش الفاطمي المصري الذي كان قد انتظره حاكمي بلا جدوى.

أعتقد أن الأرض في نهاية هذه الحملة الصليبية الأولى قد فقدت عقلها، بما في ذلك أنا.

كيف أمكنهم، باسم الله الرحيم، أن يرتكبوا مثل هذه المجازر؟

وفيمَ كان يفكر أنبياءُنا الثلاثة الذين يراقبوننا من السماء؟ لماذا لم يظهرُوا أبداً؟ لماذا هذا الصمت من قِبَلِ اللَّهِ وَيَهْوَهُ؟

لو كان يمكنني أن أصرخ بأسمائهم لفعلت .

لكنني، أنا القُدس، لم أكن سوى مدينة .

وفي هذ اللحظة، تذكرت النقاش الذي دار منذ عقود خلت بين

يوسف عمران والأب ماكير :

«نعم، سلّم ماكير، لكن نحن لا نسفك الدماء» .

«حذارِ، يا أبانا، قد يُكذِّبُكَ المستقبل ذات يوم» . كم كانت هذه

الكلمات مُندرة!

آنذاك كانت الأمراض منتشرة في الشرق ولا يعرف الفرنجة كيف

يكافحونها، والمرض الذي قضى على الملك غير المتوجّج، غودفروا

دي بويون، كان التيفوئيد بالتأكيد. مات في الثامن عشر من شهر

تموز لعام ١١٠٠ وهو عائد من حملة ضد سلطان دمشق، بعد عام

بالتمام على اتخاذه لقب «حامي القبر المقدّس» .

استدعى الفرسان أخاه بودوان دي بولوني ليخلفه على العرش .

كان هذا يحارب في سوريا الجيوش المسلمة، وعندما وصل إليّ،

في التاسع من تشرين الثاني، كان قد فقد نصف رجاله . وفي الحادي

عشر من الشهر نفسه أعلن ملكاً باسم بودوان الأول دي أورشليم .

كانت مناسبات دفن الملوك وتوزيعهم لا تكاد تحجب حقيقة

الموقف . لم يكن يتولى الدفاع عني سوى ألف فارس، ولم يكن لدى

الممالك الصغيرة المتسلسلة على طول الساحل عدد أكبر لكل منها .

وكان المسلمون يهدّدون من كل ناحية؛ من مصر جنوباً، ومن سوريا

شمالاً وشرقاً . وكانت قوى الحملة الصليبية الأولى تتقلّص شهراً بعد

شهر . بقي عدد من الجنود ولم يعودوا إلى بلدانهم، وكثير منهم

اندمجوا سرّاً مع السكان. هؤلاء لم يتركوا وراءهم في أوروبا لا قصوراً ولا أملاكاً. كانوا يسعون إلى المغامرة، ودافعهم الرغبة في ارتياد آفاق جديدة كما الحميّة الدينية، لكن لما لم يظفر بعضهم بالمجد ولا بالثروة قرروا البقاء هنا. مثل هذا الفلاح الألزاسي المتواضع الذي حلّ ذات يوم في إحدى قرى الجليل وسط قرويين مذهولين لم يكونوا قد سمعوا بتدمير القبر المقدس ولا بالحرب الصليبية، فمن أي سماء إذن هبط هذا المسافر ذو الزيّ الغريب؟

- من أين جاء هذا؟ لا نفهم كلمة مما يقول، وهل رأيت هذا الشارب؟ آه، شارب متمرد كأنه من ذهب...

قام كاهن القرية بدور المترجم وأوضح أن هذا الجندي المسيحي البعيد عن أهله ووطنه يبحث عن مكان يعيش فيه. كان مسيحياً؟ رحبوا به، ولما كانوا في موسم قطف العنب ساعدتهم على قطف العناقيد وأثبت أنه خبير في اختيارها، وهو ينزع الحبات غير الناضجة، وينظف المعصرة، ويصلي راکعاً في قُدّاس الأحد. ولقد تبوّه. وكان في القرية أرملة لا بأس بها فتزوّجها، وكانت لا تزال في سن الإنجاب من دون تدخّل ملاك الربّ، مثل سارا، - فأنجبت له صبياً وبنثاً. وكان الألزاسي قد أصبح جليلاً ويتكلم اللغة الآرامية، كما لو أنه وُلِد في هذه المرتفعات. والأشياء البسيطة التي اكتسبها من خبرته ككرّام في الألزاس مكّنته من تحسين صناعة الخمر في الناصرة. كان قد سمّى نفسه كونراد، وأصبح كارود.

هكذا تفرّق عديد الحملة الصليبية الأولى. علاوة على أن الأموال المرسلّة من أوروبا للحفاظ على ممالك أورشليم والأرض المقدّسة كانت تتضاءل تدريجياً، ولم يعد البابا والملوك والأمراء الذين يُطلب منهم بإلحاح المحافظة على فلسطين يجدون في ذلك

مفخرة لهم. ومن جهة أخرى ألم يستولِ الصليبيون على الكنوز
الأسطورية المدفونة هناك؟

كذلك كان الاعتقاد الشائع: هيكَل سليمان، الذي كانوا
يعتقدون أنه ما زال قائماً، يزخر بالذهب، حتى أن الصليبيين
الموجودين في المكان كانوا يعتقدون أن قُبّة صخرة الأقصى
والمسجد الأقصى بناهما سليمان!

سبع حملات صليبية أعقبت الأولى، ولكن من طرق مختلفة، لا
أودّ أن أرويهَا لكم بأدق التفاصيل فقد قام آخرون بذلك. لكن تذكروا
فقط أن الجنود الصليبيين وقادتهم عندما استولوا على مُدن فلسطين
أقدموا على ارتكاب فظاعات يرتجف لها من كانوا شهداءً عليها،
وأن العرب لم يروا فيهم إلا بهائم مؤذية تفوقهم الوحيد هو قيمتهم
القتالية وحميتهم في المعركة ولا شيء آخر.

كان بوسعي أن أستنتج من أعلى أسواري: أن العالم كله كان
كناية عن بركان يقذف جِمْمَه. هل رأيتم كيف تنبتق دائماً من أعماق
الصهارة البنيّة كرهة غازية هائلة؟ إن انحنيتم لرؤيتها انفجرت في
وجوهكم. كان هذا ما يحدث لي على الدوام، وما سوف يحدث
لي، وما سيحدث أيضاً وأيضاً.

وا أسفاه، لم يهتم أحد بذلك، لا في قصور القسطنطينية حيث
يُقدّم في مادب النبلاء الدجاج المحشي بالقمح والتوابل، ولا في دور
الفرسان المقيمين في أورشاليم، وصور، وأنطاكية، وسط ضحكات
المحظيات، والسّمك بصلصة الكّمون أو الحمام المشوي بالبهار.

لأن الطعام لذيد عند سادة الشرق الجدد، الذين لا يرون
فلسطين إلا بعيون المفترسين.

هكذا كانت النظرة في عام ١١٦٨ عندما حاصر عموري الأول،

وهو ملك آخر على أورشاليم، مدينة بيليس شمالي القاهرة. وسيأسأله المدافع عنها إن كان ينظر إلى بيليس كقطعة جبنة فيجيب «نعم، والقاهرة هي الزبدة».

عموري هذا مثل، بعد سنة، في الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول لعام ١١٦٩، أمام أبواب مصر، وانضم إليه أسطول بيزنطي، وحاصر مدينة دمياط ولم يتمكن من فتحها وعاد أدراجه يجرجر أذيال الفشل. وفي كانون الأول ١١٧٤ قضى نحبه ضحية الإسهال الحاد الذي أصيب به حتماً نتيجة قذيفة من... الجُبنة.

آنذاك كان يحكم أرض فرعون شاب في التاسعة والثلاثين من العمر اسمه ليس مجهولاً عندكم: صلاح الدين يوسف، يسميه الفرنجية سلاطين، وهو عند العرب «سيف مسلول من سيوف الإسلام».

سمعت تجاراً يتحدثون عنه ذات مساء من خريف العام ١١٧٠.
- كنتَ في مصر؟ لا بُدَّ أنك قمت فيها بصفقات جيدة.
- أبدأً، ردّ الآخر، سرعان ما غادرتها، لديهم هناك وزير جديد لا يعرف شيئاً عن البلاد، ويزعم أنه سيغير الأوضاع فيها، كل التجارات أصبحت صعبة.

- من هو هذا الوزير؟
- كرديّ، ولد في تكريت بالعراق، ولم يصل إلى السلطة إلا لأن عمّه الوزير السابق مات من التُّخمة. لم يبذل لي الرجل شيئاً. تصوّروا أنه أمر بإحراق بعض الأرمن أحياء في مصر لأنهم خدموا في الجيش، وكانوا معفيين من الجزية. كذلك أعدم بالسيف جنود لأنهم كانوا سود البشرة، يقال إن عددهم حوالي الخمسين.
ما يعني أن الصليبيين سوف يضطرون إلى قتال هذا الرجل.

- يجب تطهير الأرض من هؤلاء الكفار! صاح صلاح الدين .
 كان يتحدث عن الفرنجة الذين أسرهم جنوده البحريون وهم
 ينزلون على سواحل الجزيرة العربية . آنذاك كان رنيود دي شاتيون
 ورجاله ، البالغ عددهم مئتي مقاتل ، على مسيرة نهار للوصول إلى
 المدينة ، وفي الطريق سلبوا قافلة كانت متجهة إلى مكة . عمل
 تدنيسي مستنكر . كانت هذه المرة الأولى التي يقترب فيها الكفار من
 الأماكن المقدسة .

أمر «السيف المسلول من سيوف الإسلام» بنحر الأسرى في أول
 أيام عيد الأضحى الذي يذبح فيه المسلمون ما تيسر من بهيمة الأنعام
 تقرباً إلى الله تعالى .

على الرغم من كلام صلاح الدين عن الجهاد ضد الكفار ، أو
 من يصفهم بالكفار ، لم يقم بأي عملية عسكرية مهمة على مدى
 سنوات!

كان لديه سببان لذلك : الأول أنه كان يسعى لحكم العراق
 وسوريا بحيث يضع القسطنطينية بين فكي كماشة ، غير أنه لم يحظ
 بثقة الخليفة العباسي في بغداد .

السبب الثاني يتمثل في علاقاته بالصلبيين . كانت علاقات

مُلتبسة، وهذه تورية. والدليل على ذلك علاقته بريموند، كونت طرابلس، الذي عقد معه معاهدات سرية، والتي لن نعرف أبداً ما إذا كانت تنطوي على اعتناق الفرنجي الإسلام أم لا، نعم، لقد قرأتم، أنتم قراء جميع العصور، أن ريموند كان متهماً من قبل مواطنيه بأنه اعتنق دين النبي محمد. لكن الحقيقة ربما كانت في مكان آخر: كان ريموند يتطلع إلى اليوم الذي يتوصل فيه المسيحيون والمسلمون إلى العيش معاً في سلام.

جرت الأمور بخلاف ذلك.

بعد أربع سنوات على ما يمكن أن نسميه هدنة عجيبة، تخللتها مناوشات وتقلبات، كانت أعصاب الصليبيين على شفير الانهيار. في عام ١١٨٧، بعد أن استولى صلاح الدين على طبرية، قرّر الصليبيون التحرك والتخلص منه. غير أن شهر تموز كان قاتلاً جداً، وقد توقف الصليبيون العطاش في قرية حِطّين التي تحتوي على ينابيع كثيرة. كانوا مُنهكين، مُضعفين. وجرت المعركة مع المسلمين في تلال حِطّين.

كما كان متوقفاً مُنيي المسيحيون بهزيمة نكراء وكانت خسائرهم لا تُحصى. وقع في يد صلاح الدين ما لا يقلّ عن ثلاثة آلاف أسير، بينهم ملك أورشليم غي دي لوزينيان، وكذلك رينود دي شاتيون. عامل صلاح الدين الأول معاملة لاثقة لكنه أمر بقطع رأس الثاني! لم ينسَ السلطان أن هذا الفارس كان قد انتهك الهدنة التي عقدها قبل بعض الوقت مع الملك بلدوين الرابع. رينود هذا هو الذي سلب القافلة المتجهة من مصر إلى مكة. وجدير بالذكر أن صلاح الدين عرض على هذا الفارس قبل أن يأمر بقتله أن يعفو عنه إذا اعتنق الإسلام لكن الفرنجي رفض.

بعد معركة حطين لم يبق في فلسطين جيش فرنجي عملياً .
في الحادي عشر من شهر أيلول لعام ١١٨٧ مثل «السيف
المسلول من سيوف الإسلام» أمام أسواري، وهبت عاصفة من
العرب على بيوتي التي كان قد لجأ إليها عشرون ألفاً من الفرنجة
المرعوبين .

اتفق أن الرجل الذي كان من المفترض أن يدافع عني صديق
قديم لصالح الدين كان يُدعى باليان الثاني المعروف عند العرب
باسم باليان بن بارزان . وكان قد نجا من الموت في معركة حطين،
وحصل من صلاح الدين على براءة أمان وعاد إلى أورشليم لأخذ
زوجته وأولاده إلى طرابلس . لكن السلطان كان قد وضع عليه
شرطاً: أن يُقسم على أن يترك المدينة وألا يحمل السلاح ضد
المسلمين، غير أن سكان أورشليم المدعورين توصلوا إليه أن يبقى
لتأمين الدفاع عن المدينة وأحلّه البطريك من الوعد الذي قطعه
لصالح الدين .

غير أن باليان الثاني، الذي لا يزال يحتفظ بشيء من نفاذ
البصيرة، سرعان ما أدرك أن مسألة الدفاع جهد ضائع: ينقصه
الرجال، والمؤن، والمعدات . عندئذ ذهب إلى السلطان وأبلغه أن
السكان يفضلون تدمير المدينة وقتل أولادهم ونسائهم والقتال حتى
الموت على الاستسلام . ابتسم صلاح الدين وذُكر الفرنجي بالمجازر
التي ارتكبتها المسيحيون عام ١٠٩٩ . أكان ينبغي أن يتصرف بطريقة
أخرى؟

حبستُ أنفاسي .

ترأى لي حَمَام دم جديد .

كنتُ على خطأ .

في بادرة شهامة نادرة، وافق صلاح الدين على فرض شروطه وعرض أن يشتري كل مسيحي نفسه بعشرة دنانير الرجل، والمرأة والطفل بخمسة. لكن باليان لفت انتباهه إلى أن المدينة تُؤوي عشرين ألف فقير مُعَدَم لا يمكنهم أن يدفعوا هذا المبلغ بحالٍ من الأحوال. في المقابل يمكن للسلطات المسيحية أن تدفع مبلغاً إجمالياً. وافق صلاح الدين على مبلغ مئة ألف دينار لتحرير الجميع، لكن باليان كان يعلم أن هذا المبلغ غير متوفر. أخيراً اتفقا على تحرير سبعة آلاف في مقابل ٣٠ ألف دينار، وألقت الحامية سلاحها. وفي يوم الجمعة الثاني من تشرين الأول دخل «السيف المسلول من سيوف الإسلام» من أبوابي. مصادفة: كُنّا في السابع والعشرين من شهر رجب، ذكرى إسراء النبي إلى أورشاليم ومعرجه إلى السماء.

التقطتُ أنفاسي، لقد نجونا من مذبحه، من مذبحه إضافية.

تمكّن آلاف السكان من مغادرة المدينة: كل المسيحيين اللاتين تقريباً، بعد استثناء المسيحيين الأرثوذكس الذين لا يعترفون بسلطة القسطنطينية والذين سُمِحَ لهم بالبقاء. هنا حيث خاض المسيحيون، قبل ثمانين سنة، في دماء ضحاياهم لم يُنهب بيت ولم يُجرح إنسان. وإنفاذاً لأمر السلطان كان الحرس يجوبون الطرقات ويتفقدون الأبواب مانعين أي إهانة قد يتعرّض لها المسيحيون.

وليسمعي أولئك الذين لا يؤمنون بالعلامات السماوية، في ذلك اليوم كُشِفَت الشمس وغرق الشرق كله في الظلمات.

ارتاع الغرب لما علم بسقوط أورشاليم. لقد ضاعت كل المكتسبات التي حققتها الحملة الصليبية الثانية. واستعاد الكفرة السيطرة على قبر المسيح، المكان الأسطوري الذي صعد منه المسيح إلى السماء. عمل لا يُغتفر.

في عام ١١٨٨ أصدر البابا غريغوار الثامن مرسومه «على سماع هذا يرتجف»^(١).

أعلنت الحملة الصليبية الثالثة.

أنا أيضاً ارتجفت عندما علمتُ بأن ريشارد ملك إنكلترا والإمبراطور فريدريك بارباروسا يقودان جيشيهما .

ماذا سيحلّ بي في المواجهة بين الجبابرة التي يجري الاستعداد لها؟ يتحدثون عن مئة ألف رجل . . .

لقد أنقذتُ جزئياً، لا من قبل السماء التي لا أعرف لها راية، بل من تقلّب قوى هذا العالم الذي يتعدّر سبره .

في كانون الثاني من عام ١١٩٢ مثل ريشارد قلب الأسد أمام أسواري، أو ما تبقى منها. لكن عندما علم الإنكليزي أن صلاح الدين حصل على تعزيزات وحصّن المدينة عاد على أعقابها. في غضون ذلك التقى المسيحي والمسلم غير مرة تحت الخيم الباذخة وتبادلا الدعوة إلى اللوالم. أمر لا يكاد يُصدّق، لكنّه حقيقي، هذان الرجلان العظيمان اللذان كان يعتزم كل منهما القضاء على الآخر كانا يتبادلان الابتسامات وعبارات المجاملة قبل أن يتقاسما المأدبة نفسها. أخيراً، في أيلول ١١٩٢، عقدا معاهدة أبقى بموجبها تحت السيطرة الإسلامية بينما يسمح للحُجاج المسيحيين غير المسلحين بالقدوم لزيارتي. ويعود للمسيحيين السيطرة على شريط طويل من ساحل البحر الأبيض المتوسط يمتدّ من يافا إلى حيفا. وأصبحت عكا هي العاصمة الجديدة لمملكة الفرنجة.

بعد عام عاد الإنكليزي إلى أوروبا، وبعد ستة أشهر أخرى مات صلاح الدين.

(١) في الأصل باللاتينية: «Audita tremendi».

لقد رجحت كفة الواقعية، إن لم أقل الحسّ السليم .
حتى لو أخذ الصليبيون القدس فلن يستطيعوا الاحتفاظ بها .
والواقعية نفسها هي التي أملت على صلاح الدين أن يقول للإنكليزي
ذات يوم: «القدس (أورشاليم) لنا كما أنها لكم» . بسط التخلّص من
الوهم جناحيه الرماديين على المعسكرين . من وجهة نظر مُعيّنة، كنت
كالمرأة التي تبارز عاشقان للحصول عليها .
أكان الإيمان الديني هو الذي يحرك هؤلاء البارونات والأمراء؟
... أو أنّ أتيقن من ذلك .
يقين واحد: سوف أبقى دائماً تحت سيطرة المسلمين .

كان لصالح الدين سبعة عشر ولداً؛ ويمكن أن نتصور كيف ستكون خلافته. بعضهم كان جديراً بالتقدير، وبعضهم يُرثى له. على أنهم لم يحكموا طويلاً.

تشابك عجيب من الدسائس، والمكر، والخطط الشائنة، والخيانات، مشفوعة بالهذيان الشخصي لسادة هذا العالم، سوف تمحي تدريجياً الميزة المقدسة لحماية الأماكن المقدسة للعالم المسيحي، واليهودية، والإسلام. كنت قد فقدت مكانتي، فلم أعد سوى تذكارات لسلسلة من النزاعات والحروب.

في عام ١٢٠٢ استولت على البابا إينوسان الثالث الرغبة في تحرير الأماكن المقدسة.

وهذه بالضبط كانت أمنية هنري الرابع، ابن فريدريك بارباروسا، الذي كان قد غرق في مستنقع في قيليقيا.

تجمّع ثلاثون ألف فرنسي وخمسة آلاف فلامندي ومثلهم من الإيطاليين في البندقية مستعدين للرحيل، غير أن هدفهم الأول كان تحرير زارا وهو مرفأً بندقياً كان يحاصره الهنغاربيون.

في سن التسعين الشرعي، كان الدوق أنريكو داندول قد أعلن بأعلى الصوت أنه يريد فتح أورشاليم، ومقابل تحرير زارا المقدّر

ثمنه بخمسة وثمانين ماركاً ذهبياً تعهد الدوق نقل الصليبيين مجاناً بسفن بندقية... إلى مصر! ومن هناك يذهبون إلى فلسطين لتحرير أورشليم.

انتظرتُ. لكن فيما كان الصليبيون يتأهبون للذهاب وصل مطالب بعرش القسطنطينية، يدعى إسحق لانج، وعرض على الصليبيين ٣٥ ألف مارك ذهبي مقابل الاستيلاء على... القسطنطينية. علاوة على ذلك وعد بمساعدتهم لفتح مصر. قد يُظن أنه يحلم، لكنه لم يكن حلماً بل حقيقة: قبل الصليبيون وغيروا هدفهم. أقلعت السفن البندقية نحو القسطنطينية واستولوا على المدينة التي كانت بالفعل: حليفة المسلمين ضد المسيحيين اللاتين، وبالتالي عدوة الصليبيين. غير أن الأماكن المقدسة لبعضهم كانت هي نفسها الأماكن المقدسة للبعض الآخر... لكن التعصب القومي طغى على الإيمان، وكذلك الحس التجاري: كان البنادقة يتطلعون إلى التحكم بالتجارة البحرية للبحر الأسود.

أصبح إسحق إمبراطور بيزنطة، لكنه مات في عام ١٢٠٤ وجدّد خليفته ألكسي السياسة القديمة للإمبراطورية المسيحية الشرقية: رفض مساعدة الصليبيين، فاستشاطوا غضباً واحتلّوا المدينة ثانية وأعملوا فيها السلب والنهب.

أنا، لم أحرّر بعدُ ولم أكن أسوأ حالاً.

إذن، كانت الحملة الصليبية الرابعة قد انحرفت عن هدفها.

عمّ السخط فرنسا. وكان ثمة راع من ضواحي فاندوم، يُدعى إتيان، استبدّ به الغضب فجمع فقراء منطقته المشردّين والشحاذين وألهب مشاعرهم مُعلنًا أن ما عجز النبلاء عن فعله سوف يحققونه هم! نعم، سوف يذهبون في حملة صليبية! ويحرّرون أورشليم بعصيّهم!

تجمّعوا على طرقات بيكاردي ونورماندي. كانت تلك هي الحملة التي سمّيت بحملة الأطفال الصليبية. كانوا لا يملكون شروى نقير، ولم يتمكنوا من تجهيز سفينة واحدة. في النهاية عمل نبلاء إيل-دي-فرانس على تفريقهم ولم يسمع بهم أحد بعد ذلك. ويروي بعض المتشدقين أنهم بيعوا كعبيد في الإسكندرية...

كان الغرب لا يزال مهووساً بجنون الحرب الصليبية. في ألمانيا ألهب راهب، يُدعى نيقولا دي كولوني، المشاعر التي لم تكن تطلب إلا مَنْ يُشعلها. حشود فوضوية من الألمان من أوضاع اجتماعية شتى اجتازت جبال الألب وبلغت جنوى، ثم روما، وبيزا، وبرنديسي، باحثة عن سفن. هؤلاء أيضاً كانوا لا يملكون شروى نقير ولم يتمكنوا من إيجاد سفن. بقي بعضهم في المكان الذي وصلوا إليه وعاد الآخرون أدراجهم لكنهم ماتوا جوعاً في الطريق. كانت هذه ما سُمّي بالحملة الصليبية الألمانية.

كل شيء سوف يتغير مع إحدى الشخصيات الأكثر غرابة وشذوذاً في تاريخ العالم.

كان فريدريك روجيه، ابن الإمبراطور هنري الرابع دي هوهنستوفن، قد ترعرع في باليرمو، المدينة التي لم تنكر يوماً أصلها العربي والتي تضمّ جالية مسلمة كبيرة. مات الأب في مسين عام ١١٩٧ وبقي الابن في سيسيليا.

جَرّده أوصياء نصّابون من ثروته فنشأ كصبي فقير في كنف عائلة عربية في أحياء باليرمو الشعبية؛ وهكذا تعرّف على السكان المسيحيين واليهود، غير أن الإسلام كان هو الغالب على ثقافته بفضل قاضٍ علّمه وهو في السادسة من عمره الشريعة الإسلامية. لا غرو أن هذه الطفولة كانت غير مألوفة: هذا الذي سيصبح

إمبراطور ألمانيا يتكلم اللغة العربية كأبي شاب عربي! ورث أولاً لقب ملك سيسيليا، وبسط الأمن والنظام على الجزيرة.

بعينين خضراوين، وشعر غزير أشقر، تكوّنت له صورة أسطورية لدى مواطنيه. كانت صورة بطولية، وإن لم تقدّم إلا وجهاً أمرد، فرادة مريبة في حقبة من الزمن يتعيّن على القادة فيها أن يكونوا ملتحين. علاوة على ذلك، عندما تُوّج إمبراطوراً في عام ١٢١٥ كانت بادرتة الأولى ملء بلاطه اللامع بعدد من العلماء والفنانين العرب واليهود، من دون احتساب مثقف اسكتلندي سوف يصبح مترجم كتب الفيلسوف العربي ابن رُشد.

يمكن بسهولة تصوّر ما اعترى الأمراء من الدهشة، حتى أن البابا أخذ يتساءل ما إذا كان فريدريك مسيحياً حقاً. ومن أجل طمأنته وعده الإمبراطور بأنه سينظم حملة صليبية - واحدة زيادة - لاستعادة أورشاليم.

هذه القضية السياسية تحوّلت إلى مغامرة عندما وضع فريدريك في رأسه أن يحمل اللقب الرمزي الذي كان يحمله حتى الآن جان دي بريان الذي يحكم دولة صغيرة على الساحل الفلسطيني. وهو الذي سوف يتزوج الإمبراطور ابنته يولاند وريثة اللقب. دخل البابا بسذاجة في اللعبة، فهذا الزواج يمكن أن يُسرّع إطلاق الحملة الصليبية الموعودة، ورأى في فريدريك الحامي الشخصي للقبر المقدّس.

كان عُمر يولاند آنذاك خمس عشرة سنة، ولو حصل الزواج لاعتُبر لأخلاقياً، لكن في تلك الحقبة كانت الفتاة تعتبر صالحة للزواج ما إن تصل إلى سنّ البلوغ، خصوصاً إذا كانت موضوع رهان سياسي.

في عام ١٢٢٥ عقد فريدريك قرانه على يولاند في كاتدرائية برنيسي وقدم نفسه على أنه ملك أورشاليم. غير أن فريدريك لم يأخذ في الحسبان كما يجب مشاعر الريبة التي تخص شخصه. أولاً، كان يمضي وقتاً طويلاً جداً في مغازلة سيدات البلاط، ثم إنه لا يبدو مستعجلاً لإطلاق الحملة الصليبية التي وعد بها البابا قبل عشر سنوات.

سرعان ما تفاقم استياء البابا والعالم عامة من الإمبراطور: أكان فريدريك هو المسيح الدجال! حتى لقد نسبوا إليه مقالة هجائية يزعم فيها أن موسى ويسوع ومحمد لم يكونوا سوى غشاشين! عندئذ اتخذ البابا غريغوار التاسع قراراً مذهلاً: عزله عن الكنيسة.

لا يستطيع ملك معزول عن الكنيسة أن يقود حملة صليبية، ولا يحق له الاشتراك فيها. لكن هذا النوع من الحرّم لا يمكن أن يؤثر في من له طبع كطبع فريدريك الثاني دي هوهنستوفن. جمع جيشاً من الفرسان وأبحر من برنديزي ليلبغ يافا في السابع من أيلول عام ١٢٢٨.

كان الفرسان يتوقعون الاشتباك مع الكفار فور وصولهم. غير أن النشاط البارز الوحيد في المعسكر الإمبراطوري كان ذهاب وإياب الرُّسل بين فريدريك والملك الكامل الذي كان منذ حوالي عشر سنوات سلطان مصر وسوريا.

لم يعلم الفرسان الألمان شيئاً عن الرسائل المتبادلة بين الملكين، لأن فريدريك كان يكتب باللغة العربية، وكان من شأنهم أن يُذهلوا لو تمكنوا من فك رموز رسائله. في الرسالة الأولى مثلاً كتب الإمبراطور إلى الملك الكامل: «أنا صديقك، تعلم جيداً كم أنني أسمى على جميع أمراء الغرب».

أعجوبة لا تصدق! في الثامن والعشرين من شهر شباط لعام ١٢٢٩ وقّع فريدريك الإمبراطور والملك الكامل على معاهدة بموجبها يصبح الإمبراطور ملكاً على أورشاليم، وأن هذه تشمل بيت لحم ويافا، وتصل بينهما الطرق. أما الناصرة فتكون مدينة محصورة وسط أراضي السلطان. وليس للسلطان في أورشاليم إلا محيط قبة الصخرة والمسجد الأقصى. ومدة المعاهدة عشر سنوات تتجدد بعدها لتعزيزها.

هّلّ المسيحيون اللاتين للمعاهدة: أورشاليم ستعود مسيحية! وستكون جميع المزارات المتصلة بتاريخ يسوع تحت إشراف مسيحي. كل ذلك تم الحصول عليه من دون عنف البتّة. معجزة.

للأسف، لم يكن هذا هو رأي الفرسان والكهنة: هم يرون أن استعادة أورشاليم كان يجب أن تتحقق «بالقتال وسفك الدماء»، وكان ينبغي أن تتسبب في موت آلاف الكفار. واعتبروا هذه الهدنة نوعاً من الخيانة والمعصية.

لم أرَ في تاريخي الطويل مثلاً أكثر وضوحاً من هذا على التعصّب الأعمى.

لطالما أذهلني هذا القدر من حقد الإنسان على الإنسان. ألم يعلن صلاح الدين ذات يوم: «القدس لنا كما أنها لكم». لماذا هذا التكالب على امتلاكه بأي ثمن كما لو أنني شيء تافه، عبدة تُشترى، وتحقّر، وتُغتصب. كنت أنا أورشاليم، القدس، مدينة الأنبياء الثلاثة. أعتقد أن لا أحد يملك الحقيقة كلها، ولكن جزءاً منها، وإذن، هل من العبث جمع ثلاث حقائق وجعلها حقيقة واحدة لخير الكون وحده؟

لم يأخذ فريدريك في الحسبان ردود الفعل هذه ولا الشجب

العام لأولئك الذين يظنون أنهم يمتلكون السلطة الأخلاقية: في السابع والعشرين من آذار تحرّك نحو أورشاليم لكي يتوجّ ملكاً على المدينة. رفض نصف الفرسان اتباعه، وامتنع الفرنسيون منهم خاصة بدافع الشعور القومي. كانوا يأملون أن يجعلوا من أورشاليم مدينة تابعة لمملكة فرنسا؛ والآن ستصبح جزءاً من الإمبراطورية الألمانية. عندما أصبح الإمبراطور عندي سلّمه قاضي نابلس مفاتيح المدينة باسم الملك الكامل. كانت الشوارع فارغة: تجتّباً للتظاهرات، أمر القاضي السكان بالبقاء في منازلهم أو مغادرة المدينة.

كان من المقرر أن يجري التتويج في اليوم التالي. أقول إنه كان كئيباً؟ لا، كان شؤماً: لم يحضر أي كاهن، لأن البطريرك أخطر جميع الكهنة بأن فريدريك كان منبوذاً من الكنيسة. لم يحضر إلا الفرسان الألمان الذين لا يمكنهم طبعاً التغيب عن هذا الاحتفال الخطير.

كان فرسان الهيكل، التنظيم الكبير للغرب المسيحي في الأرض المقدسة، وحماة الحجاج، قد امتنعوا أيضاً عن الحضور. آنذاك كانوا مخلصين لسلطة البابا، غير مدركين أن الكرسي الرسولي سوف ينكرهم هم أيضاً.

كنت مذهولة، كان يمكن لفريدريك أن يصبح بطل الغرب: ولم يكن سوى منبوذ.

لقد أعاد أورشاليم إلى العالم المسيحي وحمى ممالك الصليبيين في فلسطين، لكنه فعل ذلك من دون إراقة قطرة دم، ومن دون أدنى المظاهر البطولية الحربية التي من المفترض أن يوحى بها الإيمان. لم يكن المسلمون أكثر تحمساً. ما الذي جلبه لهم هذا الشاب

الأصهب؟ لا شيء بصريح العبارة. لم يبالوا بفريدريك الثاني دي هوهنستوفن الذي كانت لديهم الجرأة ليقولوا إنه لا يساوي مثني درهم في السوق.

الثقة التي أوليتها لسكاني المسيحيين، واليهود، والمسلمين، هبطت إلى أدنى مستوى. الكائن البشري لا يريد أن يؤمن إلا بما اكتسبه بالقسوة والبهيمية.

في الأول من شهر أيار لعام ١٢٢٩ غادر فريدريك فلسطين. شهر نيسان الذي أمضاه في هذه المدينة كان الأخير لوقت طويل. الحمية الدينية للعالم خبت، لدى المسيحيين واليهود والمسلمين على السواء، في أوساط الشعب كما لدى زعمائه، مفسحة في المجال أمام متطلبات الأمن من جهة وأمام الطموحات السياسية وجنون الإنجازات العسكرية من جهة ثانية. لقد غادرتُ مُخيّلة هذا العالم.

تحصيناتي التي غدت كلا شيء لم تعد في وضع يسمح بالدفاع عنها. اعتقد المسيحيون أن بإمكانهم البقاء على وئام مع المسلمين، لكن عندما تدفّق على الشرق عشرة آلاف فارس تتاريّ، بقيادة باركاخان، أهلكوا تقريباً كل من وجدوه في طريقهم، ووصلوا إلى أورشليم في عام ١٢٤٤ حيث نبشوا قبور ملوك المدينة وأخرجوا جثامينهم وأحرقوها، وأحرقوا القبر المقدس بعد نهبه.

انطلقت حملة صليبية جديدة في عام ١٢٤٨ بقيادة لويس التاسع، القديس لويس عند الفرنسيين، وتوقفت في مصر التي كان الصليبيون قد فكروا في الانطلاق منها لبلوغ أورشليم.

بعد التتار أقبلت حشود أخرى من آسيا، جحافل مغول الإمبراطورية الخوارزمية الذين عاثوا فساداً بنحو أشد ترويعاً.

اجتاحوا كل آسيا تقريباً وتدققوا بعد ذلك على المشرق. نهبوا بغداد وقتلوا أكثر من ثمانين ألفاً من السكان، وقتلوا الخليفة، ثم انقضوا على دمشق، وتدققوا على فلسطين واندفعوا حتى غزة، وأوشكوا أن يبلغوا مصر لولا أن صدّهم المماليك الشجعان بقيادة بيبرس. خضع الشرق كله لسلطانهم.

لكن من هو المملوك؟ تساءلتُ، هو عبد صغير السن يُشترى في السوق ويُربى في إحدى ثكنات السلطان ليصبح جندياً. وإذن كان المماليك محاربين مُحنّكين لأن سيطرتهم على مدن الشرق الكبرى استمرت حتى ظهور القوى التي تسحقهم من عثمانيين وُفرس وبرتغاليين.

لا هم ولا قادتهم، السلاطين، كانوا يعرفون من الأديان سوى بعض المبادئ الأصلية، وكانوا يتحالفون وفقاً لأولوياتهم الآنية مع المسيحيين أو اليهود أو المسلمين.

وأنا؟ كانت التوترات السياسية المتتالية منذ قرون قد أفقرتني لدرجة لا تصدّق، ولم يبق داخل أسواري إلا حوالي مئة عائلة مسيحية، وأخال أنني رأيت عائلتين أو ثلاث عائلات يهودية ونحو عشر عائلات مسلمة.

إجمالاً، كان عدد السكان الذين يعيشون داخل أسواري أقل من ألفي نسمة! ماذا فعلوا بي؟ لقد قطعوني، ومزقوني، باسم الإيمان، باسم الله.

وأعلم أن الله في عليائه يبكي.

القسم الثاني

في عام ١٤٥٣ استولى العثمانيون على القسطنطينية. وبعد ستة قرون تقريباً يبدو هذا الحدث أشبه بعمل حربي باهر ومأثرة مجيدة. في الواقع كان الشرق قد أصبح منطقة تتعاقب عليها الحملات العسكرية بنحو شبه متواصل: تُشنّ فيها الحروب في كل مكان تقريباً. وتحوّلت المدن إلى أسواق بلا ضوابط؛ ولتختلّ فقط أنهم كانوا يشربون الخمر في الكنائس، لكي لا نتكلم إلا عن هذا الفارق، وفي المناطق التي يبدو أنها مستثناة من العمليات العسكرية يُمارس الابتزاز. ويذهب ضحية كل ذلك الحُجاج الأوروبيون الذين يتوافدون على أورشليم ويتعرّضون لعمليات السلب والاعتصاب، وكان عليهم بعد ذلك أن يدفعوا إتاوات للقاضي والمحافظ والإنكشارية الذين يحرسون كنيسة القيامة.

إيمان البعض يعود بالمال على آخرين.

في عهد السلطان العثماني سليمان، المعروف بالقانوني، والذي منح نفسه لقب إمبراطور، زاد عدد السكان كثيراً: أصبحوا يعدّون ستة عشر ألف نسمة داخل أسواري. غير أن الدسائس تكاثرت بين الطوائف، يغذيها التعصّب والهديان. كثير من الأهواء تغلي في الأدمغة، وكثير من المحرّمات والتعاليم الصادرة عن الأديان الثلاثة التي أصرّت على العيش في الخصومة والتضادّ.

أرمن وكاثوليك يحتمل بعضهم بعضاً، شيعة وسنة يسخر بعضهم من بعض على مرأى من الصوفية المتهاكمين؛ القلّة من اليهود الشرقيين^(١) واليهود الغربيين^(٢) الحاضرين ينظر بعضهم إلى بعض بعين الريبة. والسلطة الروحية للرؤساء الدينيين أصبحت وهمية، والسلطة المركزية غدت عاجزة.

كنت أنتمي إلى الجميع ولا يحكمني أحد.

في التاسع عشر من شهر كانون الأول لعام ١٥١٦ حضر السلطان العثماني سليم الأول ليتسلم رسمياً مفاتيح القدس الشريف. بعد أقل من قرنين، في عام ١٧٠٧، انتفض سكانى الفلسطينيون ضد الحكومة التركية؛ وكان أن أُعدم نقيبهم، ومندوبهم، محمد الحسيني، زعيم الانتفاضة، في اسطنبول. وفي عام ١٨٣١ وقعت أنا تحت سيطرة والى مصر محمد علي باشا، ولم يكن لهذا المولى العثماني غير المنضبط إلا هدف واحد: الحصول على استقلال مصر والتخلص من الوصاية. غير أن القوى الكبرى أوقفته عند حده وهزمته وسرعان ما عدت إلى الحضن العثماني. في عام ١٨٧٦ سمح الدستور العثماني بانتخاب أول نائب عن القدس، هو رئيس البلدية يوسف ضياء الخالدي. بعد ثلاث وعشرين سنة بعث الخالدي برسالة إلى تيودور هرتزل^(٣)، أبا الصهيونية، طالباً منه أن «يترك فلسطين

(١) في الأصل Séfarades.

(٢) في الأصل ashkénazes.

(٣) Theodor Herzl. هذا هو الاسم العبري الممنوح إلى عهد ختانه بنيامين زئيف، المعروف أيضاً بالعبرية باسم «رؤيا الدولة». لم يتعلم العبرية ولم يزر فلسطين في حياته. كان صحافياً نمساوياً مجرباً. شكل المنظمة الصهيونية وشجع الهجرة اليهودية إلى فلسطين. يُعتبر المؤسس الحقيقي للكيان الإسرائيلي (المترجم).

بسلام». وبصفته مقدسياً كتب إليه باللغة الفرنسية قائلاً: نحن، العرب والأتراك، نعتبر أنفسنا حراس الأماكن المقدسة للأديان الثلاثة، اليهودية والمسيحية والإسلام. وبعد، كيف يمكن لزعماء الصهيونية أن يتخيلوا أنهم سوف ينتزعون هذه الأماكن من الدينين الآخرين اللذين يمثلان الأكثرية الساحقة». سؤال لم يلق جواباً حتماً.

من جهتي، كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة «صهيونية». فيما بعد علمت أن الأمر يتعلق بأيدولوجية سياسية قومية تهدف إلى إقامة دولة لليهود. والعودة إلى صهيون تحيل على عودة الإسرائيليين المنفيين في بابل إلى أرض إسرائيل. وهذا المصطلح «صهيون» يدلّ في الوقت عينه على أماكن جغرافية وعلى كل ما يشخص حضور الله، بمن في ذلك أنا، أورشليم.

كانت فكرة احتلال اليهود لدولة قد ولدت بباريس، في شباط ١٨٩٥، في رأس صحافي يهودي مجري يُدعى تيودور هرتزل. في أثناء قضية الضابط درايفوس وتجريده من رتبته العسكرية سُمع الحشد يهتف «الموت لليهود»، وأدرك عندئذ أن اليهود يجب أن يتحكموا بمصيرهم وأن يكونوا في مأمن هو وطن قومي. وسرعان ما أُلّف كُتبياً بعنوان «دولة اليهود». عندئذ تحوّلت الصهيونية التي كانت حتى ذلك الحين مثلاً أعلى دينياً (حلم العودة إلى صهيون) إلى حركة سياسية.

المؤتمر الصهيوني الأول المنعقد في مدينة بال السويسرية في شهر آب لعام ١٨٩٧ يشكّل مرحلة بالغة الأهمية في تاريخ الصهيونية بسبب القرارات العملية التي اتخذها للسير بالمشروع.

في ما بعد، سيقول تيودور عن هذا المؤتمر: «في بال، أُسستُ الدولة اليهودية... إذا أردتم لن يكون هذا مجرد حلم».

عندي، لكلّ من المسيحيين والمسلمين مُلهموهم. في المرحلة التي كان الإنكشاريون مولجين فيها، ويا للمفارقة، بحفظ الأمن في حرم القبر المقدس، لأن الحجاج المسيحيين كانوا يتعاركون فيه، استشاط أحد القضاة غضباً على الكلاب، لأنه رأى واحداً منها شارداً قرب قبة الصخرة، فأمر بقتل جميع الكلاب في أورشليم. وكان على الأولاد أن يضعوا جيف الحيوانات البائسة بين يدي «كافر» على باب صهيون.

قليل من العائلات صمدت وسط هذا الصخب الروحي والجسدي. لا السنّ ولا الثروة أمكنهما أن يحفظا الروح أو الجسد من هذه الانحرافات. وأحد أسباب هذا العتة الجماعي كان بالتأكيد الشعور العام بأن نهاية العالم قد اقتربت.

ذات يوم، في بداية القرن العشرين، سوف يقول الكاتب آرثور كويستلر في معرض الكتابة عني: «وجه يهوه الغاضب يحوم على هذه الصخور الملتهبة التي كانت شاهداً على الكثير من أعمال القتل والاعتصاب والنهب التي لم يقع مثلها في أي مكان في العالم».

من هذه الفوضى القيامية الرهيبة انبثقت بضع عائلات عرفت كيف تنتهز فُرصها وتُعمل إرادتها: وكانت عائلات مسلمة بشكل أساسي. وكان للمسيحيين نصيب في هذه النهضة ولكن كأقلية، مثل اليهود، لأن أورشليم كانت خاضعة للعثمانيين. هذه العائلات تحمل أسماء: الصايغ، شهيد، عواد، وهم الذين حافظوا على استمرارية معينة. كنت بحاجة إليهم.

لكن ثمة حقيقة ثابتة: كانت الأديان الثلاثة تتمتع بحق المواطنة

حتى في تلك الحقبة المظلمة، ويُسمح للمساجد، والكنائس،
والكُنُس، أن تقيم شعائرها لأتباعها.

حركات تمرّد، حملات تأديبية، سلب ونهب، قطع رؤوس،
مَحوكة كلها بمنتهى الشطط والسوء، أصبحت عملة رائجة في جميع
الأراضي الخاضعة للسلطة العثمانية؛ لأن الإمبراطورية العثمانية
كانت تتفكك، وقد استمرّ هذا الوضع لفترة طويلة نظراً إلى التقلبات
العميقة التي أنهكت الغرب.

خلال ما يقرب من ثلاثة عقود دأبت أوروبا على أن تُرسل إليّ
عشرات آلاف المقاتلين الطيبين، وسخت بالرجال والمال بذريعة
استعادتي. لكن في نهاية المطاف تكشّفت الطموحات السياسية خلف
واجهة الأهداف الدينية. هنا زينت أوروبا بحوافز إيديولوجية اهتمامها
المتجدد بالشرق، وببي طبعاً.

في آن واحد تقريباً، في نهاية القرن التاسع عشر، بدأت ثلاث
من القوى الكبرى الأوروبية الأربع، روسيا وألمانيا وبريطانيا
العظمى، الاهتمام بي مجدّداً.

كان أولهم الروس... بدافع العداء للسامية.

شجع القيصر ألكسندر الثالث الذي وصف اليهود بأنهم «سرطان
اجتماعي» رحلات الحج إلى الأماكن المقدسة. ومن جهة ثانية كانت
روسيا المقدسة هي التي اخترعت ما يسمى باضطهاد اليهود، وكان
قيصرها يعتقد أن بلاده لن ينقذها إلا الطبقة الأرستقراطية والمذهب
الأورثوذكسي. وقد آلت هذه السياسة إلى بناء كنيسة القديس ألكسندر
نيفسكي المجاورة تماماً لكنيسة القيامة (أو القبر المقدس). كنيسة
ألكسندر نيفسكي في أورشليم؟

كان غليوم الثاني هو القيصر الثاني الذي يعكف على الاهتمام بمصيري. ولن أنسى دخوله الصاحب من باب يافا. بدا أكثر تبجحاً من طاووس بزّيه الأبيض الرسمي الاحتفالي، ممتطياً جواداً أسود أكثر زينة وبهرجة من محظية. كان يتنقل بحُيلاء على صهوة حصان في المدينة التي دخلها يسوع على ظهر حمار.

مهما يكن من أمر: ما كانت المراوغات الإمبراطورية الروسية والألمانية لتمرّ من دون أن تلتفت انتباه الإنكليز. آنذاك كان يسيطر على جميع الشخصيات السياسية الإنكليزية هاجس وحيد: طريق الهند! كانوا يسيطرون على مصر وعلى قناة السويس، غير أن تركيا كانت تمدّ سيطرتها حتى شمال - غرب سيناء، وكانت متحالفة مع ألمانيا، وكان القيصر قد اقترح بناء سكة حديد برلين - بغداد. وإذن كان لا بدّ من انتزاع سيناء من تركيا الموصوفة آنذاك بـ«رجل أوروبا المريض».

لكي يحقق الإنكليز مشروعهم كانوا بحاجة إلى خرائط دقيقة عن المنطقة، ولم يكن لدى هيئة الأركان مثل هذه الخرائط؛ ولم تكن لدى أحد أيضاً. عندئذ عهدوا بالمهمة إلى شاب كان قد اشترك في حفريات أثرية في المنطقة ويتفاهم جيداً مع السكان المحليين يدعى توماس إدوارد لورنس وكان من أوائل أعضاء جهاز المخابرات بصفة «ملازم أول - مترجم - مؤقت». فيما بعد سوف يكتب في لحظة صفاء: «كل من يقود بنجاح ثورة ضعفاء على أسيادهم لا بد أن يخرج منها أقدر من أي شخص في العالم ولن يستطيع بعد ذلك أن يستعيد الإحساس بأنه نظيف».

أما تيودور هرتزل فتابع تحقيق حلمه. في عام ١٩٠٣ علمت أنه ينوي إقامة مستوطنة يهودية في... مرتفعات وادي ريفت في أفريقيا

الشرقية «للخلاص من معاداة السامية والعنف، إلى أن يتحقق حلم إقامة وطن في فلسطين»^(١).

هذه الفكرة كانت قد طُرحت في الواقع من قِبَل الإنكليز (الذين لا تنقصهم الأفكار الحمقاء أبداً) إثر سلسلة من اللقاءات بين تيودور ووزير المستعمرات آنذاك جوزيف تشمبرلين. رفض البريطانيون إقامة وطن يهودي في الشرق الأوسط واقترحوا إقامة وطن لليهود في . . . شرق أفريقيا. وإذا كان بإمكان اليهود التحكم في الشؤون الدينية فإن الشؤون الأخرى كلها تخضع لسيطرة التاج البريطاني.

قرّر المؤتمر الصهيوني إرسال لجنة خاصة إلى أفريقيا لتقضي الأوضاع. غير أن غالبية الأعضاء اعترضت أخيراً على الاقتراح الإنكليزي باعتباره تراجعاً عن حلم التوطين في فلسطين. بعد عامين، في المؤتمر الصهيوني السابع الذي انعقد في عام ١٩٠٥، سقط مشروع إقامة وطن لليهود في أوغندا بتصويت الغالبية ضده. كانت قد مضت سنة على وفاة هرتزل عام ١٩٠٤.

بعد ذلك اندلعت الحرب. وقفت تركيا إلى جانب ألمانيا، بعد خلع السلطان^(٢) ووضع دستور جديد. وكانت تركيا منذ عام ١٩٠٨ يحكمها عملياً تنظيم الأتراك الشباب، وهو حركة ثورية تهدف إلى تحديث البلاد وتشارك في الميول مع الرايخ الألماني الذي كان قد تعسكر. أما أنا فقد أصبحت ضحية الدسائس ضد العثمانيين. شاهدت طرد الممثلين السياسيين والرعايا التابعين لفرنسا، وبريطانيا

(١) هذه الخطة التي طُرحت في المؤتمر السادس للمنظمة الصهيونية العالمية في بال الذي ترأسه هرتزل تعرف اليوم باسم مشروع أوغندا.

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني، خلع عن العرش في عام ١٩٠٨ إثر الثورة التي قام بها تنظيم تركيا الفتاة أو ما يعرف أيضاً باسم الأتراك الشباب (المرجم)

العظمى، ثم إيطاليا، وسياسة مكافحة مظاهر الأسلحة المرتبطة بالعثمة التي مارسها المحتلون الجدد بازدراء.

في الوقت نفسه كانت شرطة جمال باشا، الملقب بالسفاح، تجوب شوارعى نهاراً وليلاً بحثاً عن جواسيس محتملين يعملون لمصلحة البريطانيين. وكان يتم العثور على بعضهم طبعاً ورأيت أعضاء شبكة منهم أثناء تعذيبهم بنزع أظفارهم ثم تعليقهم على المشانق. كان جمال باشا قد عُيّن قائداً للجيش الرابع الذي أنشئ حديثاً. وكان هدفه المعلن عبور قناة السويس وتحرير مصر من السيطرة البريطانية.

كان لمخابرات القيصر السرية هدف رئيسي هو بريطانيا العظمى، ومن هنا التعاون الوثيق مع الأتراك. لكن إذا كانت الأهداف مشتركة (ومن ضمنها الدعوة إلى الجهاد) فالممارسة لم تكن بالأمر السهل. كانت تقنيات العمل مختلفة، والعملاء الألمان، المجندون غالباً في شرق أفريقيا، يجدون صعوبة في التأقلم مع محيطي. وكان إيمانهم بتفوق الألمان أمراً غير محتمل من قبل الأتراك، ولا سيما أنهم يحرصون على ألا يكتسبوا أهمية كبرى. هذا التطلب ينبع من رؤية تستتبع بدورها على المدى الطويل تعارضاً بين الجيش، الموجود في الميدان ويُحبذ رفقة السلاح مع الأتراك، وبين وزارة الخارجية الألمانية التي تفكر في توزيع للصلاحيات لمصلحة ألمانيا بعد الحرب، وهو ما دفعهم في اللحظة الأخيرة إلى الحيلولة دون اتفاق السلام المنفرد الذي حاولت اسطنبول إبرامه. كذلك نشأت خلافات في شأن المصالح الكلية التي كان يدور عليها الصراع: من بينها مصير السكان اليهود، الذين كان يمكن أن يقرر الأتراك مصيرهم على وجه السرعة، وبنحو مأساوي، لولا - وبألها من مفارقة

مدهشة - أن لجمت حماستهم. في الواقع كانت ألمانيا تفكر في سياستها الدولية، وهو ما يستخف به الأتراك.

هكذا نجا اليهود من العقاب التركي، كما نجت طائفتي الأرمنية - الكثيرة العدد جداً -. وابتداء من شهر نيسان لعام ١٩١٥ كانت شوارعى وساحاتى تعجّ بذكر مذابح أرمنيا والقوقاز. والغريب، مع أنني كنت في بعض الأماكن شبيهة باسطنبول أو إزمير، أن الأتراك لم يرتكبوا الفظائع نفسها التي ارتكبوها في أرضروم أو غيرها. حتى جمال باشا، المهتم بصورته في الخارج، لم يجعلهم يعانون إلا ما فرضه من صعوبات على غيرهم من مسيحيي المدينة. والدليل على هذا المصير المشترك أن البطريك الأرمني تقاسم حكم النفي لبضعة أشهر مع غيره من بطاركة المدينة.

حان الوقت المناسب لكي يبدأ الإنكليز في تنفيذ مخططهم لاحتلال فلسطين.

لكن البداهة فرضت نفسها: لن يُهزم الأتراك ما لم يثر العرب ضدهم. عندئذ لَوَّح الإنكليز بفكرة الاستقلال لشريف مكة والمدينة، حسين بن علي، حارس الأماكن الإسلامية المقدّسة والسلالة الهاشمية: عندما تُهزم تركيا، أكدوا له، يصبح كل من العراق، وسوريا، وفلسطين، مملكة مستقلة يحكمها أولاده.

خلال ثلاث سنوات، بمساعدة لورنس الغامض، أذكى الإنكليز الشعور القومي لدى زعماء الجزيرة العربية ولا سيما شريف مكة. وقد تلقى هذا تأكيداً رسمياً من المفوض السامي البريطاني في مصر بأن فلسطين ستكون دولة عربية برئاسة عربي.

عندئذ بدأت واحدة من أكثر ألعاب الخداع إثارة في أي وقت مضى.

هل العالم طاولة لعب؟ لم يفارق السؤال ذهني منذ قرون.
كانت السماء تمطر على لندن في ذلك اليوم السادس عشر من
شهر أيار لعام ١٩١٦.

وضع اللورد غري^(١)، وزير الخارجية، توقيعته على أسفل الورقة
الأخيرة ثم مدّ يده بالقلم إلى جاره، بول كامبون^(٢)، سفير فرنسا في
لندن.

- دورك، يا صديقي!

افتعل كامبون ابتسامة ووقع بالأحرف الأولى من اسمه صفحات
الوثيقة قبل أن يكتب اسمه كاملاً إلى جانب اسم الوزير. تأمل للحظة
الخطين، أحدهما جاف وعصبي؛ والآخر، لين وأنيق.

لا ريب في أنهما على صورة المستقبل! الأسوأ أو الأفضل.
هذه الاتفاقات الموقعة في منتهى السرية بين فرنسا وإنكلترا - مع
مباركة روسيا القيصرية - هل تفتح أبواب الجنة أم أبواب الجحيم؟

(١) Lord Grey

(٢) Paul Cambon

هتف وليام بويدن^(١)، مستشار اللورد غري، كما لو أنه قرأ أفكار الدبلوماسي الفرنسي:

- كلّ تهانيّ، جنتلمان! لقد أشرق يوم جديد على أمّتنا، لا نشكّ أبداً في أنه سيكون مجيداً.

واتجه في الحال نحو منضدة صغيرة عليها زجاجة شمبانيا كبيرة. قدّم كأساً إلى الوزير، وأخرى إلى السفير، وقدّم الكأس الثالثة إلى شاب ذي وجه نحيل، وشعر أشقر، وقوام فارغ، في الثالثة والعشرين من العمر على الأكثر. منذ دخولهم إلى مكتب اللورد غري لم ينس الشاب ببنت شفة. أكان القلق هو ما يترأى من عينيه الشديديتي الزرقة أم أنه الضجر، هو الذي كان عليه أن يتحمّل أسبوعاً لندنياً مطراً؟

- هيا، يا سيّد موري، هتف لورد غري، استرح! كان الأمر شاقاً، أعترف بذلك، لكن صبر مفاوضينا آتى أكله.

وافق الشاب، ببرود.

رفع الوزير كأسه:

- بصحة فرنسا! بصحة إنكلترا!

- بصحة فرنسا! بصحة إنكلترا!

جازف موري بالتدخّل:

- اسمحوا لي بسؤال: عندما تنتهي هذه الحرب، هل أنتم مقتنعون بأن العرب سيقون مكتوفي الأيدي؟

- أفترض، ردّ اللورد غري، أنك تُلّمح إلى الاتفاقيات التي وقّعناها منذ قليل؟

(١) William Boydens

أكد موري .

هذه الاتفاقيات التي يسميها مُدبروها اتفاقات «سايكس - بيكو»، باسمي الدبلوماسيين مارك سايكس وجورج بيكو اللذين تفاوضا عليها، يمكن تلخيصها بالآتي: بعد الحرب، تقاسم فرنسا وإنكلترا الكعكة العثمانية، على أن تكون بغداد والبصرة وضواحيهما من نصيب بريطانيا العظمى، وتكون سوريا الساحلية ولبنان وكيليكيا من نصيب فرنسا. أما ولاية الموصل فتقسم إلى قسمين، القسم الأول يضم مدينة الموصل ويكون غنيمة فرنسا، والقسم الثاني يضم مدينة كركوك وتغنمه إنكلترا. وتُنشأ منطقة دولية في فلسطين. ولم يُنسَ نصيب روسيا القيصرية فأعطيت مضيق البوسفور وأربع مقاطعات عثمانية قريبة من القوقاز.

في بضع ضربات من قلم الرصاص، وبغفلة من الشعوب المعنية، انتقلت إحدى مناطق العالم من يد محتلّ إلى يد محتلّ آخر. ارتسمت على شفتي لورد غري ابتسامة ساخرة:

- العرب، قلت؟ يا عزيزي، تعلمُ جيداً أن لا وجود للعرب كأمة، ومن جهة ثانية، إذا ما فعلنا ذلك على الوجه الصحيح فسيبقون على ما هم عليه: خليط من الأجزاء المتنافرة والعاجزة عن الالتحام. اعترض موري، مدهوشاً من هذا الاحتقار:

- عميلكم، النقيب لورنس، نجح مع ذلك في توحيدهم وأقنعهم بالقتال بدلاً منكم ضد العدو التركي في بلاد العرب؛ وهو ما فعلوه بشجاعة مذهلة.

- صحيح تماماً، وافق لورد غري.

- في المقابل، ألم تعدوهم بأن يحكموا الأراضي المحررة حكماً مستقلاً؟ أولم تؤكدوا لزعيمهم، حسين بن علي، شريف مكة،

أنه سيرأس الاتحاد العربي المُزمع إنشاؤه بعد التحرير؟ ألم تتعهد إنكلترا رسمياً بإعطاء فيصل، أكبر أبناء الشريف، كلاً من العراق وسوريا، وإعطاء الابن الآخر، عبد الله الأراضي الواقعة على الضفة الشرقية لنهر الأردن مع فلسطين أيضاً؟ كم من وعود أُعطيت باسم التاج البريطاني بضمّان فرنسا.

أنا... . تنحج سفير فرنسا وقال:

- وعود النقيب لورنس لا تُلزم أحداً سواه، حبّذا لو أخبرتنا أولاً لإمّ تريد أن تصل؟ فأنا لا أتابعك.

- لا أقصد إلا التذكير ببعض الوقائع، التي تبدو لي مُقلقة.

- مُقلقة؟

- نعم، سيدي، هذا الخط المرسوم على الرمل في مكاتب فورين أوفيس^(١) والكي دورسيه^(٢) لا يأخذ في الاعتبار الحقائق. من المحتمل جداً أن هذا الاتفاق الموقع من وراء ظهر العرب والذي يحرمهم من كل حقوقهم سوف يولد لديهم شعوراً رهيباً بالإحباط. كثيرون ماتوا، وآخرون بذلوا دماءهم في سبيل وعود قُطعت لهم، لن ينسوا، مهما بلغوا من البداوة.

بعد وقفة قصيرة، أوضح:

- نحن بصدد أن نضع في تلك المنطقة من العالم برميل بارود، بل الأسوأ، سلسلة من القنابل الموقوتة لم يشهد التاريخ مثيلاً لها.

- دعونا نتخيّل أن هذا هو الحال، ردّ اللورد غري، لكننا نحن

من يتحكّم بإشعال الفتيل.

(١) Foreign office، مقر وزارة الخارجية البريطانية (المترجم).

(٢) Quai d'Orsay، مقر وزارة الخارجية الفرنسية (المترجم).

- أتمنى أن تكون محقاً، سيدي الوزير، وإلا...

سكت برهة قبل أن يتابع:

- هذه الخطة سايكس - بيكو، مع احترامي لشخصك...

- نعم؟

- سوف تنفجر في وجوهنا...

ما عدا قلة من المظلمين، من أعضاء حكومتي رئيسي الوزراء البريطاني لويد جورج والفرنسي جورج كليمنصو، لم يعلم أحد شيئاً عن هذه الخطة، وخصوصاً الزعماء العرب الذين كانوا يقاتلون هناك على تخوم سوريا وفلسطين. وظلّ السرّ طيّ الكتمان حتى أن اسمي غري وكليمنصو طواهما النسيان لمصلحة الدبلوماسيين اللذين رسما الحدود المقررة في الاتفاق التمهيدي السير مارك سايكس^(١) وفرنسوا جورج - بيكو^(٢). كلاهما كان لديه طموح فائق الحد. كان سايكس أرسقراطياً يدّعي معرفة عميقة بالشرق الأوسط، وكان بيكو مفوضاً سامياً لسوريا وأرمينيا.

والحال أن الحدود التي رسماها كانت مختلفة عن الحدود المشار إليها أعلاه: علاوة على الأراضي المقررة للإنكليز والفرنسيين، اشتملت تلك الحدود على منطقة ثالثة، هي منطقتي،

(١) Sir Mark Sykes (١٨٧٩-١٩١٩) عقيد، وبارون من منطقة سيلدمر في بريطانيا. مستشار سياسي ودبلوماسي وعسكري ورخالة بريطاني، كان مختصاً بشؤون الشرق الأوسط (المترجم).

(٢) François Georges-Picot (١٨٧٠-١٩٥١)، محام ودبلوماسي فرنسي، من أعضاء «الحزب الاستعماري» الذي كان يضم أعيان فرنسا وهدفهم الضغط على الحكومة الفرنسية لتوسيع دائرة المناطق الخاضعة للاحتلال الفرنسي. عمل قنصلاً في بكين، ثم شغل منصب القنصل العام في بيروت قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى (المترجم).

فلسطين. كان من المقرر أن توضع هذه المنطقة الثالثة تحت إدارة دولية، ما عدا ميناءي عكا وحيفا، اللذين احتفظ بهما الإنكليز لأنفسهم.

لا داود، الشخصية المعقدة مع ذلك، ولا سليمان، الذي لا يقلّ تعقيداً، ولا صلاح الدين، الكردي الأكثر دهاءً، لم يهملوا علم النفس، سلاح الحرب المهمل غالباً. لكنهم سوف يخضعون لامتحان صعب لو كانوا مكلفين القيام بدور الحكم في لعبة الورق التي كانت تُلعب آنذاك، والتي أصبحتُ أنا، أورشاليم رهانها النهائي.

في تلك الحقبة كان الفرنسيون مسكونين، إن لم أقل مهوسين، بالرغبة في استعادة السيطرة على سوريا ولبنان، لأنهم يعتبرون أنفسهم أوصياء عليهما منذ القدم. في الواقع كانت فرنسا في مخيِّلة مواطنيها الحامية المباشرة للمسيحيين الموارنة في المنطقة؛ وكان عليها أن تحترم تلك المهمة شبه السماوية. يبقى أن نعرف ما إذا كان الموارنة يدركون هذا الواجب.

أما الإنكليز، بوصفهم سادة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وفقاً للعبارة التي كانوا فخورين جداً بها، فكان لديهم اقتناعان راسخان؛ الأول وجوب حماية طريق الهند الأسطورية مهما كلف الثمن، والثاني أن الحرب كانت تكلفهم مبالغ طائلة وأن مستعمراتهم القديمة، الولايات المتحدة الأمريكية، تبدو غير مبالية على نحو غريب بالنزاع الدولي القائم حالياً.

لكن لعلّ مشروع إعادة اليهود إلى موطنهم القديم يغيّر الرأي العام الأميركي المُشرب بالثقافة التوراتية.

في الواقع كانت الصهيونية تُحرز تقدماً هائلاً في الولايات

المتحدة. وكان أحد أكبر مناصري الصهيونية هو الرئيس الأميركي السابق تيودور روزفلت الذي كان قد أعلن - من قبل - تأييده لقيام «دولة يهودية حول أورشليم».

في عام ١٨٩٩ كان تأييد الجمهوريين اليهود له من القوة بحيث أنهم طبعوا منشورات بلغة اليديش^(١) دعماً لحملته الانتخابية لمنصب الحاكم.

على الرغم من أن روزفلت كان من أصل هولندي غير يهودي فقد كان يحتفظ بشمعدانين في ساغامورهيل، ملكيته الواقعة على الساحل الشمالي للونغ أيلاند، في ولاية نيويورك. شمعدانان من سبع شعَب بخلاف الحانوكية، (الشمعدانات المفرّعة المستخدمة في عيد الحانوك^(٢) وعددها تسعة (ثمانية لعدد أيام العيد، زائداً الشاماش^(٣) لإشعال الشمعدانات الأخرى). بقدر ما أتذكر فإن الشمعدانات ذات الشعَب السبع كانت على الدوام رموزاً يهودية، وكانت تستخدم في هيكل أورشليم.

وهناك مؤيدون مهمون آخرون للحركة الصهيونية وهم الإنجيليون. أفلا يؤكدون، وفقاً لنبوءة أشعيا: «أُنتج أرض في يوم واحد، أم تولد أمة في مرّة واحد، فإن صهيون ما إن تمخضت حتى ولد بنيتها»^(٤)، وعندهم أن عودة المسيح ستكون في إسرائيل بعد أن

(١) اليديشية أو اليبدية لغة يهود أوروبا (المترجم).

(٢) يُعرف بعيد الأنوار أيضاً. عيد يحتفل به اليهود لمدة ٨ أيام ابتداء من الخامس والعشرين من شهر كيسليف حسب التقويم العبري، مواعده يتراوح بين ٢٥ تشرين الثاني و٢٥ كانون الأول (المترجم).

(٣) Shamash أو شمش. الاسم الذي كان يُطلق على إله الشمس عند البابليين والآشوريين (المترجم).

(٤) نبوءة أشعيا، ٦٦/٧ - ٨ (المترجم).

يجتمع فيها الشعب اليهودي. وفي الأرض المقدسة ستدور المعركة النهائية بين الخالق وقوى الشرّ، عند تلة همرجدون^(١). وفي نهاية المعركة يعترفون بأن يسوع هو مسيحهم. وأسمح لنفسي بأن أقول إن مايك بنس، نائب الرئيس الأميركي الحالي، ينتمي إلى هذه الطائفة المسيحية الإنجيلية ومثلهم يعتبرني عاصمة الدولة العبرية. لكننا سنعاود الحديث عن ذلك بالتأكيد. مهما يكن من أمر فإن هذه الرؤية الألفية كان يمكن أن تجعلني أبتسم لو لم تكن مأساوية جداً.

علاوة على ذلك نجد عدداً كبيراً من الموالين للصهيونية في الأوساط السياسية الإنكليزية. وكان حاييم وايزمن المولود في روسيا، قد أقام علاقات ودية مع رئيس الوزراء السابق آرثر بلفور الذي أصبح وزيراً للخارجية، ومع رئيس الوزراء لويد جورج، ووزير البحرية ونستون تشرشل. وأعلن لويد جورج إثر لقاء له مع وايزمن: - أنتم تعلمون، عندما تصمت المدافع ستكون لكم أورشاليمكم. إنكم تدافعون عن قضية كبيرة.

في التاسع من تشرين الثاني لعام ١٩١٧ كتب بلفور إلى اللورد روتشيلد الرسالة التالية:

«عزيزي اللورد روتشيلد،

يسرّني أن أبلغكم باسم حكومة جلالته، الإعلان التالي الذي ينطوي على عطف على الأماني الصهيونية، إعلان عُرض على الحكومة وأقرّته:

«إنّ حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل

(١) في العبرانية، جبل مجدو. (المترجم).

عظيم جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بأي عمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى".
وسأكون ممتناً إذا ما أحطتم الاتحاد الصهيوني علماً بهذا التصريح".

المخلص

آرثر بلفور

في الحادي عشر من كانون الأول احتل الجنرال ألنبي أورشليم بعد عدة أيام من المعارك الضارية. أصبحت مرة أخرى مدينة جريحة، تائهة.

في اليوم نفسه كان نبيل عمران وزيد أيساف يتساءلان إن كان ثمة جرس خفيّ يقرع حُزناً على بلادهما. أظنكم فهمتم! هذان الرجلان كانا من أحفاد المدعوّ بسان عمران، الإسكافي، والمدعوّ سيمون، النجار. صحيح أن المشاكل كانت تتلخص قديماً في متاعب العوارض الخشبية.

لوّح نبيل بالصحيفة في يده وصاح:

- ما هذه القصة؟ من هو بلفور؟ من أين لك هذا المقال؟
- أرسله إليّ منذ بضعة شهور صديق مقيم في القاهرة، ما رأيك

فيه؟

- ما رأيي فيه؟ ردّ نبيل عمران، إنه عمل شائن! وطن قومي يهودي؟ مستحيل! هذه أرضنا! كيف أمكن لهذا الإنكليزي أن يسمح لنفسه بتقسيم ما لا يملكه؟

أوماً زيد كالمستسلم لحكم القدر.

- لأننا في نظر الإنكليز، والغرب عموماً، غير موجودين. هؤلاء القوم يتخيلون أن فلسطين أرض صحراوية، محرومة من كل حضارة. لقد أخفوا فكرة أن أجدادنا الفلسطينيين كانوا يعيشون هنا منذ أكثر من أربعة آلاف سنة ويفترضون أن السبعين ألف فلسطيني الذين يعمرّون مدننا وقرانا هم عبارة عن أشباح. مدارسنا، كنائسنا، مساجدنا، مكتباتنا العامة، حقولنا، معامل النسيج التي أقمناها، مزارعنا، كلها ذهبت مع الريح! في حين أن اليهود يمثلون بالكاد عشرة في المئة من السكان! ول هؤلاء العشرة في المئة يعطي الإنكليز نصف بلادنا؟ و... .

قوطع زيد بوصول رجل ثالث؛ صديقهما منذ الطفولة، مروان حرباوي.

- ماذا جرى لكما؟ ينتظرونكما في آخر الشارع! عوضاً عن الإجابة، ناوله نبيل المقال.

بعد أن تصفّح نبيل المقال، سأل كالمذهول:

- من هو هذا البلفور؟

- وزير الخارجية البريطاني، أوضح نبيل.

- أية عقرب لدغته؟ أهو يهودي؟

- لا، على ما أعلم، قال زيد، لم يفعل سوى تطبيق سياسة حكومته. خلف هذا المشروع حسابات نجهلها، ومع ذلك يجب أن لا نهوّل. أعيديا قراءة الرسالة بتمعّن، إنها تنصّ على أنه «لن يؤتى بأي عمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية، و... .»

- أنت تسبح في الأوهام، سخر مروان، انظر حواليك، لا يمر يوم من دون أن تصل عائلات يهودية من كل أرجاء العالم!

- هيّا، هيّا، اهدأ! قال زيد... لم يُحسم شيء بعد، في غضون بضعة أشهر سوف يتوّج الأمير فيصل، نجل شريف مكة، ملكاً على سوريا. فُضِيَ الأمر.

- وماذا بعد؟ قال نبيل.

- فلسطين سوف تخضع لسلطته، ووعده هذا البلفور سوف يعيش ما عاشته غالبية الوعود التي أغدقها السياسيون: سوف يضمحلّ. قطّب مروان حرباوي حاجبيه.

- ألا تظن أن الإنكليز سيعارضونه!

- لا يستطيعون ذلك، اعترض زيد، لقد قاتلت جيوش فيصل قتال الأسود إلى جانب الجنرال اللّنبّي وتحت إمرة ضابط إنكليزي نسيت اسمه...

- الأورنس؟ اقترح مروان.

- إن لم يكن لورنس، لا يهم، لقد تعهّد الحلفاء رسمياً بدعم استقلال العرب، والذين الذي في عنق الحكومة البريطانية تجاه فيصل هائل كما أننا سنساهم في تعزيز سلطته في الوقت المناسب.

- نحن؟ سأل نبيل مدهوشاً.

- نعم، نحن، الفلسطينيين، بعد ذلك سوف نؤسس الدولة التي حرّمنا التاريخ منها منذ قرون طويلة.

سأل مروان متهكماً:

- وماذا تفعل بهذه الرسالة التي كتبها هذا البلفور؟

- سوف تنتهي في سلّة النفايات! لن يسمح العالم أبداً بارتكاب

مثل هذه المظلمة، ثم إن أخواننا العرب لن يسمحوا بذلك، ولا نحن
طبعاً! سوف ترى. ألسنا الأكثرية على هذه الأرض؟ ما الذي نخشاه؟
ما دام التوازن السكاني قائماً لا أرى ما الذي يمكن أن يُحدث
مشكلة. علاوة على أن اليهود والمسيحيين والمسلمين يتعايشون
بسلام، ما السبب الموجب لتغيير الأوضاع؟
حلّ الصمت مكان الإجابة عن سؤال زيد.
أنا، أورشاليم، كنت أعرف الجواب.

(٢٢)

لعبة الخداع تابعت . والدليل هذه المقايضة التي التقتتها آذان لا تحفظ السر والتي جرت بين الإنكليزي لويد جورج ووزير الحرب الفرنسي جورج كليمنصو في لندن في الأول من كانون الأول لعام ١٩١٨ .

جورج كليمنصو:

- قل لي ماذا تريد؟

لويد جورج:

- أريد الموصل .

كليمنصو:

- سوف تحصل عليها ، شيء آخر؟

جورج:

- نعم ، أريد أورشاليم .

- سوف تنالها .

أبرم لويد جورج اتفاقاً سرياً مع كليمنصو: مقابل الموصل وأورشاليم منح فرنسا السيادة على سوريا كلها ، وكذلك الحقوق التي كان يمتلكها الألمان في إنتاج شركة البترول التركية . هكذا كان

الإنكليز يعتزمون أن يجعلوني ملكية لهم في الوقت الذي يعدون فيه فيصل بإعطائه فلسطين .

لم تعد مسألة تدويلي مطروحة .

في الثامن من شهر آذار لعام ١٩٢٠ أعلن المؤتمر السوري فيصل ملكاً على سوريا، سوريا الكبرى طبعاً، تلك التي تشمل فلسطين دائماً . علماً بأنه كان سيّد سوريا منذ دخوله إلى دمشق في العشرين من تشرين الأول ١٩١٨ .

أغضب هذا التطوّر الفرنسيين، الذين استنكروا بشدّة «مكر» الإنكليز، وعبّر العرب عن ابتهاجهم، فيما أوجس الصهاينة خيفة . وبحق أدان العرب وعد بلفور .

في الرابع من نيسان، بعد أقل من شهرين على تتويج فيصل، اندلعت أعمال عنف في القدس قام بها الوطنيون الفلسطينيون .

في الوقت نفسه وجد العرب أنفسهم في مواجهة القوات الفرنسية وحدها، وفي الرابع عشر من تموز ١٩٢٠ تقدّمت تلك القوات في سوريا وهزمت قوات فيصل، وفي الخامس والعشرين من الشهر نفسه دخل الفرنسيون دمشق .

ونُفي فيصل من البلاد .

- كلام زيد: « لقد تعهّد الحلفاء رسمياً بدعم استقلال العرب، والدّين الذي في ذمّة الحكومة البريطانية تجاه فيصل هائل » شُطب، ونُسي، وأُلقي في سلّة المهملات .

هل عدتُ إلى زمن الحملات الصليبية؟ لا، كنا في عصر القوى الاستعمارية الكبرى التي لم تحترم أي منها خطاباتها الكبرى عن حقوق الإنسان . كانت تتناشأ أراضي الشرق كما لو كانت قطع لحم .

كانوا يسمّونني «مكاناً مقدساً» لكنها كلمات جوفاء، لا شأن
البتة للدين في اعتباراتهم.

كنت مُهانة، وأعلم أن عدداً كبيراً من سكاني كانوا يشاطرونني
إحباطي.

كان سادة هذا العالم يجهلون ذلك، لكن هذا الإحباط سوف
يستمر لمدة طويلة، وسيتهي بهم المطاف إلى أن يدفعوا الثمن ذات
يوم.

* * *

الجليل، أيلول ١٩٢١.

كان الأب ميشال عزّام جالساً على مقعد يراقب الفلاحين
المنشغلين في الحقول. وضع يده على كتف صديقه صموئيل أباطر
وقال بابتسامة متوترة:

- بالتأكيد، إن مواطنيك يتعلمون بسرعة.

اكتفى أباطر بهزّ رأسه.

هما صديقان منذ ثلاثة أعوام. ولد ميشال في القدس منذ ثلاثين
عاماً تقريباً. أبوه وأجداده ولدوا في القدس هم أيضاً.

عندما بلغ الثامنة عشرة من العمر دخل في سلك الكهنوت. عُيّن
في دائرة إدارة الأملاك المقدّسة، وهي مؤسسة قديمة أنشئت في القرن
السادس عشر وتولّى مسؤولية رعاية مصالح الكنيسة الكاثوليكية في
فلسطين، ولا سيما حراسة الأماكن المقدسة في القدس.

كان مسار أباطر مختلفاً. كانت عائلته تنتمي إلى طائفة قديمة
وغير معروفة هي طائفة الرومانيويين، أي أنهم ليسوا من الأشكناز
ولا من السفارديم، استقروا في اليونان منذ القرن السادس قبل
الميلاد في عهد نبوخذنصر. وبمرور الزمن اندمجوا في طائفة

السفارديم في البلقان أو أقاموا في بلدان أخرى من بينها إسبانيا . بعد نفيهم عام ١٤٩٢ عادت عائلة أباطر إلى سالونيك حيث أقامت منذ ذلك الحين . حوالي منتصف القرن التاسع عشر قرّر جدّ صموئيل الاستقرار في فلسطين .

لم يكن الدافع إلى اتخاذ هذا القرار لا الطابع الديني ولا فكرة الأرض الموعودة بل الرغبة في الفرار من أوروبا التي كان يحسد أنها لن تكون متسامحة حيال اليهود وقد أثبت المستقبل أنه كان على حق .

ولد صموئيل في بيت لحم عام ١٨٨٦ . وبعد دراسة على درجات متفاوتة من النجاح أنشأ وهو المولع بالآداب مكتبة في القدس سرعان ما أصبحت ملتقى المثقفين من جميع المشارب . حياته إلى جانب الفلسطينيين ، مسلمين ومسيحيين ، جعلته ينظر لاشعورياً إلى هذا الشعب نظرة أكثر من متسامحة ، وبخلاف غالبية مواطنيه المهاجرين أراد أن يكون قبل كل شيء مدافعاً عن الحوار بين الطوائف ويدعو إلى التعامل بينهما . وليس من المستبعد أن تكون أصوله الرومانية تشجعه على هذه المقاربة . ألم يكن من المعتاد القول على سبيل الدُعاة إن بين البيزنطي والعربي أشياء مشتركة أكثر مما بينه وبين يهودي قادم من أوروبا الوسطى؟

تعرف صموئيل إلى ميشال عزّام في أحد تلك الاجتماعات التي كانت تعقد في المكتبة وتضم أشخاصاً من عدّة طوائف . وسرعان ما وجد الرجلان أنهما متفقان على الأمور الجوهرية ويتشاطران الفكرة الرئيسية : القدس يجب أن تبقى مدينة مفتوحة لا تنتمي إلى أي من الأنبياء إبراهيم ، يسوع ، ومحمد ؛ لكنها تنتمي إليهم جميعاً . ولم يكونا الوحيدين اللذين يجهران بهذه الفكرة .

وقد وجدا لدى رجل ثالث، مسلم، وإمام علاوة على ذلك، تأييداً حماسياً لهما. هذا الرجل كان يُدعى إبراهيم عمران. ولم يكن سوى الأخ الأكبر لنبييل عمران. ومثله كان ينحدر من عائلة عمران العريقة. وكما يمكنكم أن تتوقعوا، كان من نسل عمران ذاك الذي قطع في العام ٣٧ شريحة من لحم الخروف المشوي وقدمها لابنه سحر، ومن بسان الآخر الذي اعتنق ابنه الديانة الميثرائية، ومن ذلك؛ أيضاً وأيضاً، الذي غيّر اسمه ليصبح برتولوميو، والذي اعتنق المسيحية، وقرّر ذات يوم أن يترك فلسطين لكي يروي ظمأه للمغامرة؛ ومن آخرين كثر ولدوا على هذه الأرض.

في البدء كانوا وثنيين، ثم ميثرائيين، فمسيحيين، وأخيراً مسلمين. معتقدات عائلة عمران هذه كانت على صورتني. أنا أيضاً خضعت لكل هذه التأثيرات والمعتقدات. وأنا، في الواقع، لم أسبب أذى لنفسي. مَنْ يملك الحقيقة؟

أشار الكاهن إلى الناس الذين يفلحون الحقل وسأل:

- ماذا يُسمّون هذه «الأبرشية»؟

ضحك صموئيل:

- هذه ليست أبرشية بل جمعية. كيبوتز. قرية جماعية حيث

يعمل كل شخص لخير الآخرين.

- كم عدد العائلات التي تعيش هنا؟

- حوالي العشرين.

هزّ الفلسطيني رأسه واستطرد بلهجة تنمّ عن القلق:

- صموئيل، تحدثت أمور كثيرة، خطيرة جداً. قُتل مزارع عربي

في مزرعته بوادي جزرائيل.

- علمت بذلك. هذه مصيبة. أصبح العالم مجنوناً.

- لا يتعلّق الأمر بالعالم، اعترض ميشال، بل بالصهاينة.

أتذكر ما حدث منذ سنة؟ أصرّ بعضهم على أن يحتفلوا بما يسمّونه «ذكرى إعلان بلفور». كان الثاني من تشرين يوم سبت فقرروا أن ينظموا في الغد تظاهرات ضخمة في القدس. سرت شائعات تفيد بأنهم يريدون الاستيلاء على الحرم الإبراهيمي^(١) في مدينة الخليل. تعلم كيف انتهت القضية: مواجهات، معارك مخطط لها. وقد توجه المفتي سريعاً إلى مكتب الحاكم الإنكليزي وصاح في وجهه:

- نعم، أعلم، صاح، أن العرب لن يقبلوا أبداً أن تُعطى فلسطين لليهود. كن مطمئناً. الصهاينة - الذين أذكرك بأنني لا أنتمي إليهم - لن يأخذوا أراضيكم بالقوة.

- أنت تحلم، يا صدقي. كيف لا وكل شيء يوحى بأن حركتهم تسعى لبناء واقع قومي على أنقاض واقع آخر؟ كان يهّم بأن يتابع كلامه عندما ظهر رجل في حوالي الثلاثين من العمر، قويّ البنية، بوجه مصارع. كان يحمل في يده مجرفة ركزها في الأرض واتكأ على مقبضها.

- اسمحوا لي بأن أتدخل في حديثكما. اسمي دان ليفشتاين. لنكن موضوعيين، ولنعترف بأن هذه البلاد منذ أن امتلكها العرب أصبحت جدباء قاحلة، نحن... .

- جدباء! قاحلة! قاطعه ميشال عزّام. كيف تجرؤ على تأكيد هذا الزعم. لقد زرعنا مئات الآلاف من أشجار البرتقال وبساتين

(١) يعرف أيضاً باسم مقام الخليل، وكهف البطارقة. هناك يوجد القبر العائلي لإبراهيم أبي الأديان التوحيدية الثلاثة الكبرى. يُعتبر المركز الروحي لمدينة الخليل القديمة.

الزيتون التي نصدر نتاجها، كما أننا ننتج مشتقات الحليب وغير ذلك.

هزّ ليفشتاين كتفيه:

- قليل جداً...

- قليل جداً؟ هل تعلم أن برتقالنا من بساتين يافا يوضع على الموائد الأوروبية منذ عام ١٨٧٠؟ هل تعلم أن القطن يُزرع هنا منذ عام ١٨٦٠ وأنا في تسعينيات القرن الماضي زرعت الحنطة والقمح والشعير والذرة على أطراف صحراء النقب. هل يجب أن أكمل؟
- أكمل أرجوك، إذا كان ذلك يسرّك.

- لدينا خطوط بحرية منتظمة تربط بين فلسطين وأوروبا. التلغراف موجود منذ عام ١٨٦٤. السياحة في تقدّم مستمر، السياحة الدينية أولاً ثم الدنيوية. وكالة كوك^(١) افتتحت مكاتبها في القدس منذ أواخر الستينيات من القرن الماضي. في عام ١٨٩٠ أسّس الأب الدومينيكاني لاغرانبج المدرسة التوراتية في القدس التي استأنفت ووسّعت البحوث التوراتية.

التقط الكاهن أنفاسه وتابع:

- ابتداء من عام ١٨٩٠ شرعنا في بناء خط للسكة الحديدية من بئر السبع، وانتهى بناء خط يافا - القدس في عام ١٨٩٢.

حدّق في عينيّ اليهود وخلص إلى القول:

- اعترفوا بأن هذا عمل لا بأس به بالنسبة إلى أرض من دون شعب.

- وإذا سُئلتكم بأي حق تملكون هذه البلاد بماذا تجيبون؟ أجيال

(١) cook.

عديدة من بينكم تابعت على هذه الأرض ولم تفعلوا فيها شيئاً. شِتمتم أم أَيْتَم، إن الشعب اليهودي هو الشعب الذي اختاره الأبدى.

- سأجيبك، يا سيد ليفشتاين، أنتم تسألون العرب بأي حق يملكون هذه البلاد؟ سوف يجيبونكم بأنها جزء طبيعي من البلدان العربية. صحيح أنها لم تكن مهد الحضارة العربية، وإن كان لها نصيب منها، غير أن مقاماتنا الدينية ومدارسنا هي البرهان القاطع على أن هذا البلد هو اليوم عربي ومسلم بأكثرية سكانه مع المسيحيين طبعاً. اسمح لي أن أطرح مسألة أخرى: إذا كنتم تطالبون بحق العودة فلأنكم ذهبتم، مكرهين، مجبرين، وأياً كان الأمر فقد ذهبتم جميعكم. أما نحن فلم نغادر هذه الأرض أبداً. نحن نسكنها منذ أكثر من ألف وخمسة مئة سنة. أسلافنا كانوا يُسمّون فلسطينيين. وهذه البلاد تُسمّى فلسطين.

اعترض ليفشتاين:

- اسمح لي أن أذكرك بأنها لم تُسمّ فلسطين إلا بناء على طلب الإمبراطور الروماني هادريان.

- بالستينا، أعلم ذلك. وأسمح لنفسي أنا أيضاً بأن ألفت نظرك إلى أن هذه الكلمة هي من الجذر ذاته لاسم فيليستين.

واستطرد:

- وإذا كانت هذه البلاد مهد روحانيتكم، المكان الأصلي لتاريخكم، فالعرب يملكون حقاً آخر لا يمكن تجاهله: لقد نشروا فيها لغتهم وثقافتهم.

وأضاف بجفاء:

- حقكم، يا سيد ليفشتاين، أصبح لاغياً بمرور الزمن، أما حقنا فقائم ولا يجوز التصرف فيه.

- لقد نسيت أدوناي في كلامك، أيها الأب.

- ما شأن الإله ي هذه القضية؟

أخذ ليفشتاين يتلو:

- «وقال الربُّ لأبرام بعدما فارقه لوط: ارفع عينك وانظر من
الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، فهذه الأرض
كلها أهبها لك ولنسلك إلى الأبد»^(١).

رفع ميشال عزّام ذراعيه نحو السماء مغتاضاً:

- يا صديقي، إذا كنت تظن أن الله سمسار أراض فحديثنا ينتهي

هنا.

على نحو غريب، عكس المتوقع، قهقهه صموئيل بينما بدا
ليفشتاين مغتماً.

- أيها الأب، يجب أن تذهب لسماع المحاضرة التي سيلقيها
قريباً أخ لنا في الدين، ربما توضح لك نياتنا أفضل مما أستطيع أنا.
إنه يُدعى وايزمن، حايم وايزمن.

- الكيميائي... قال عزّام ساخراً

- كيميائي؟ تساءل صموئيل أباطر مندهشاً.

أكد عزّام:

- كيميائي حقاً. ابن تاجر أخشاب من قرية صغيرة في ضواحي
بينسك. انضم من صِغره إلى الحركة الصهيونية وهرب من روسيا
لدراسة العلوم في ألمانيا وسويسرا. عندما بلغ سنّ الأربعين أقام في
مانشستر حيث وجد وظيفة أستاذ في الجامعة. لعلّ الاكتشاف الذي
توصّل إليه ليس غريباً عن التأثير الذي مارسه، ولا يزال، على

(١) تكوين ١٣/٨-٩ (المترجم).

البريطانيين. هذا التأثير الذي سمح له بأن يوحى للورد بلفور بإصدار الإعلان الذي فتح باب الجحيم: وطن لليهود في فلسطين.

- أي اكتشاف؟ سأل أبايتر المندهب:

- اكتشاف طريقة متطورة للتخمير تسمح بصنع كميات ضخمة

من مادة الأستون، العنصر الأساسي في صنع المتفجرات ومنها مادة الـ ن ت. هذه ميزة عظيمة في زمن الحرب.

ولكم أن تتصوروا وجود عقد بين وايزمن والبريطانيين «أعط

تُعط»، براءة اختراعي مقابل فلسطين.

احتج ليفشتاين.

- ألا تعتقد أنكم تبالغون قليلاً؟

- أنت تعلم جيداً أنني لا اخترع شيئاً. يحدث لي أحياناً أن

أتناقش مع ضباط تابعين لجلالته في حيفا. أين سيقدم السيد وايزمن محاضراته؟

- في القدس، في غضون أسبوع. لم أطلع بعد على التاريخ

والمكان المحددين. لا أشك في أن أصدقاءك الضباط سوف يبلغونك.

وعاد ليفشتاين على أعقابه.

بعد صمت قصير، استأنف صموئيل كلامه.

- هل من الضروري أن أقول لك إنني بريء مما قاله هذا

الرجل؟ أنت تعلم ما هي رؤيتي للموقف. إن فكرة خلق أمة يهودية هنا فكرة طوباوية، لا شيء إلا لأن اليهود يعلمون أن هذه البلاد لا

يمكنها أبداً أن تحتويهم جميعهم.

- إذن، لماذا يأتون؟

- بالتأكيد لأن هذه الأرض، أرض أسلافهم، لا تزال راسخة

في أعماق ذاكرتهم. وكذلك، خصوصاً، للهرب من أوروبا حيث كانوا قد تعرّضوا للمذابح ولوحقوا. ألفت انتباهكم عَرَضاً إلى أن هذا هو الدافع الأول الجدي لمجيئهم إلى هنا. لكنني أبقى مقتنعاً بأن عدد اليهود المهاجرين إلى فلسطين لا يتجاوز المئتي ألف مهاجر على الأكثر. وفي اعتقادي أيضاً أنهم سيجدون أنفسهم مضطرين إلى الاختلاط بكم. واليهود على الرغم من ميلهم إلى العزلة تاريخياً سوف يكونون مُجبرين على التخلُّق بأخلاقكم وتبني عاداتكم والتكلم بلغتكم. غداً سيتكلم اليهود اللغة العربية ويتكلم العرب اللغة العبرية. أفهمت؟

- سمع الله منك، يا صديقي. لكنني لا أشاطرك تفاؤلك. أمس قُتِلَ عربي. غداً يُقتل يهودي. أمس كان القتل مجهولاً، وغداً قد يكون أنت أو أنا. يجب أن نوقف هذا التداعي للعنف. يجب أن نحاول رد جماعتك إلى الصواب ومن جهتي سوف أستعمل نفوذي لدى جماعتي.

- سأبذل جهدي، يا ميشال. لكن اعلم أنني صوتٌ ليس إلا.
- مع صوت صديقنا إبراهيم نصبح ثلاثة أصوات. هذا أفضل من الصمت. لا يسعنا أن نترك هذه البلاد تتحوّل إلى بركة دماء. سيكون ذلك من قبيل الإجمام.

صحح صموئيل

- بل أسوأ. سيكون ذلك تجديفاً ضدّ الأبدى.

لقد سمعت، أنا القدس، نقاشهم.

كيف يمكنني أن أصرخ في وجه أبياطر العزيز بأنه كان مخطئاً خطأً جسيماً عندما أكد قائلاً: لكنني أبقى مقتنعاً بأن عدد المهاجرين إلى فلسطين لا يتجاوز المئتي ألف مهاجر على الأكثر. في الفترة

١٨٠٠-١٨٦٠، في ظل الحكم العثماني، كان عدد سكان فلسطين حوالي ٢٠٠ ألف نسمة ٣٤ ألفاً منهم كانوا يهوداً وحوالي ٥٥ ألفاً كانوا مسيحيين، وكان عدد المسلمين ١١٠ آلاف، منهم ٦٥ ألفاً من البدو و٤٥ ألفاً من الحضر الوافدين من مصر وسوريا وتركيا.

عندما كان صموئيل يتكلم كنا في عام ١٩٢٠ وكان عدد اليهود قد تضاعف مرّة. اليوم، ونحن في العام ٢٠١٨ يبلغ عدد السكان ٨ ملايين نسمة لا يمثل الفلسطينيون سوى عشرين في المئة منهم. لكن لم يكن بوسعي، أنا القدس، إيصال هذه الأرقام إلى صانعي هذه المأساة التي كانت قيد التشكل. هل كنت أستطيع ذلك؛ أم كان ممنوعاً عليّ أن أفعل؟ أحياناً يجب أن تُترك للناس أوهامهم تحت طائلة جعل حياتهم لا تُطاق.

تشرين الأول ١٩٢١

قاعة البلدية مكتظة بالحضور.

في الصف الأول المفتي الحاج محمد أمين الحسيني، المميّز بين الحضور بثوبه الطويل وعمامته، وإلى يمينه السير رونالد ستورز، حاكم المدينة.

كان زيد أبيسان ونبيل عمران مهندسين على بعد بضعة أمتار من الشخصيات البارزة، وقربهما إبراهيم أخو عمران الذي جاء هو أيضاً بصحبة صموئيل أبطار وميشال عزّام.

لقى زيد نظرة جانبية على المفتي الذي رُقّي حديثاً إلى رتبة «مفتي فلسطين العام» بقرار من المفوض السامي للبلاد السير هربرت صموئيل. وهذا لقب فخري أخرج من قُبعة الإنكليزي المستديرة. في الواقع أراد مستر هربرت بهذه «الترقية» أن يُسائر واحدة من أقوى العائلات وأكثرها احتراماً في المجتمع العربي الفلسطيني منذ قرون. وكان معظم أفرادها قد تولّوا منصب المفتي خلال القسم الأكبر من القرنين الماضيين. فكرت حينها أن هذه «خدعة من البريطانيين».

كنت أعرف المفتي جيداً لأنه وُلِدَ هنا في ظل أسواري قبل ست وعشرين سنة تقريباً. في مطلع شبابه تعلم اللغة الفرنسية (آنذاك كانت

الفرنسية اللغة الأجنبية الأولى التي تدرّس ويجري التخاطب بها في الإمبراطورية التركية)، ودرس الفقه في جامعة الأزهر في القاهرة. جُنّد في الجيش العثماني برتبة ضابط، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عاد إلى بلاده ليشرع في النضال ضد بريطانيا العظمى دولة الانتداب القوية على فلسطين.

فجأة حدثت جلبة. وصل الدكتور حاييم وايزمن. قامه متوسطة. في الخامسة والأربعين من العمر. يرتدي بذلة داكنة. مشى حتى وصل إلى المنبر المعدّ له.

عندما رآه ميشال عزّام قال في نفسه إن هذا الرجل يعطي صورة زائفة عن لينين بلحيته الصغيرة وشاربه؛ شبهُ مردهً بلا ريب إلى أصوله البيوروسية.

حيّا اليهودي الحضور بالإنكليزية أولاً ثم باليديشية. ألقى نظرة مركزة على الحاكم ستورز، ثم وضع بعض الأوراق على المنضدة أمامه وبدأ كلامه.

«منذ عشرين قرناً، في هذا المكان عينه، كان لأسلافي عاصمتهم، ومنها أرسلوا إلى العالم الرسالة الكبيرة، مثل خبز ألقوه في اليمّ ويعيده اليمّ إلى نسلهم اليوم.

مع أنني ولدت في مناطق الشمال البعيدة إلا أنني لست في فلسطين أجنبياً في بلد أجنبي. الأمر نفسه ينطبق على جميع إخواني في الشتات. لقد دافع أسلافنا دفاع الأبطال عن حقوقهم في هذه المدينة المقدّسة، ولم يخسروا حقوقهم السياسية في فلسطين إلا بعد أن لاقوا مصيراً أفظع وأكثر دموية مما تعانیه أرمنيا اليوم. على أن أسلافنا لم يتخلّوا عن تلك الحقوق. وهم بعد أن خرجوا من

فلسطين، وطنهم القومي، خلقوا لأنفسهم فلسطين ثقافية صدت
ببسالة هجمات جميع الأعداء.

هكذا يمكننا القول إننا لا نأتي إلى فلسطين بل نعود إليها. نعود
إليها لكي نصل بين تقاليد الماضي المجيد وبين المستقبل، ولكي
ننمي فيها مرة أخرى مركزاً أخلاقياً وثقافياً يمكن أن ينبثق منه النظام
الجديد الذي يتطلع إليه العالم المتألم.

تسعى الصهيونية لتهيئة الظروف التي تسمح بتطوير هذه الأرض،
تطوير - شدد على الكلمة - لن يتحقق على نحو مُضَرَّ بالطوائف
الأخرى المقيمة في هذه البلاد؛ بل ينبغي أن يكون لمصلحتهم. في
فلسطين متسع لعدد أكبر من عدد السكان الحاليين، وعلى ذلك فليس
لتخوفات العرب، السرية أو العلنية، ما يبررها؛ إن خشيتكم من أن
يتم إقصاؤهم عن مواقعهم الحالية مردها إلى تفسير خاطئ لأهدافنا
ومقاصدنا مستوحى من المكائد الماكرة التي يحوكمها أعداؤنا
المشتركون. أخلاقياً ومادياً من المصلحة المشتركة لكل من اليهود
والعرب أن يعيشوا معاً في سلام وأخوة. لا تصدقوا أولئك الذين
يقولون لكم إن هدف الإسرائيليين هو الاستيلاء على السلطة السياسية
بعد الحرب. إنهم يكذبون عليكم. أكرّر: إنهم يكذبون عليكم.

في الشمال تدفع الأمة الأرمنية أضخم الإتاوات لعدوّ قاس،
وسياتي يوم تنتفض فيه بأنفة طلباً للعدالة والحق في العيش بحرية
على أرض مُطَهَّرة بدماء أعدائها. هذه الشعوب الثلاثة، العرب
واليهود والأرمن، هي الأكثر معاناة في العالم، وتستحق أن تحيا
حياة مستقلة، في سلام.

إن مذابح الأرمن في تركستان يجب أن تكون إنذاراً للجميع،
العرب واليهود والأرمن، وعليهم أن يتحدوا لكي يقاوموا بمختلف

الوسائل قوى الطغيان. وإذا ما توحدت فلسطين فسوف يفتح أمامها مستقبل عظيم مثل ماضيها، سوف تصبح صلة الوصل بين الشرق والغرب».

وختم وايزمن خطابه بهذه الكلمات: «لنبعث، في هذا المساء، برسالة حسن نية إلى أورشاليم، وستحمل إلى شعوبنا المعذبة الأمل في عالم أفضل»^(١).

بعد ذلك تُرجم الخطاب من أجل المفتي فقام على الفور وشكر وايزمن على تحديده مقاصد الصهانية وختم بهذه الكلمات: «لكم ما لنا من حقوق وعليكم ما علينا من واجبات».

- ها أنت ترى أن لا داعي للقلق، همس صموئيل في أذن ميشال عزّام.

- بالعكس، تدخّل الإمام، أنا أعتقد أن القلق لم يكن مرة أكبر منه الآن.

- ما السبب؟ سأل أبطار.

- سأجيبك بمثل عربي قديم «إذا اتفق الهر والفأر هلك البقال».

- ما يعني؟

- في الحالة الراهنة الفأر إنكليزي، والهرّ صهيوني، والبقال فلسطيني ويا للأسف.

لم أتمالك أن أبتسم. لم يكن بالإمكان إيجاد استعارة أفضل.

في أثناء خروجهم، وجد الثلاثي نبيل وزياد أبيساف، وكانا متجهّمين.

- بناء على سيمائكما، قال إبراهيم لأخيه نبيل، لديّ انطباع بأنكما، أنت وزياد، تشاركانني قلقي.

(١) عودة المتفيين، هنري لورنس Henry Laurens, Le retour des exilés.

هزّ نبيل رأسه .

- لا أعرف ما يقلق، لكن يمكنني أن أؤكد لك أن ما شهدناه مسخرة .

قال زياد أبيساف مؤكداً:

- السير هربرت صموئيل يهودي ونصير مطلق للقضية الصهيونية. لم يؤيد إقامة أولى الكيبوتزات فقط بل شجع أيضاً شراء الأراضي عن طريق الصندوق القومي اليهودي وتشكيل تنظيمات شبه عسكرية. لكن هناك ما هو أخطر من ذلك. لقد استغلّ نفوذه لدى الحكومة البريطانية من أجل الاعتراف بدولة لليهود في فلسطين، كما أنه قدّم دعماً غير مشروط لهذا الذي أغرقنا بكلام منمّق على صعيد الاتصالات التي أجراها بغية الحصول على إعلان بلفور. هل يمكننا أن نرجو خيراً من عُصبة كهذه؟

ظلّ صموئيل صامتاً. ماذا يقول؟ لا ريب في أن الفأر كان فلسطينياً والهزّ صهيونياً.

في الأسابيع التالية تكاثرت الحوادث حولي وذهب ضحيتها مئات الأشخاص الذين قُتلوا طعناً بالسكاكين أو بالرصاص. كنتُ قد أصبحت مجدداً ميدان قتال، لا باسم الإله الأوحد، كما في القرون الماضية، بل باسم النزعات القومية التي أفسحت المجال أمام الدين.

لا الله، ولا يَهُوه، ولا موسى، ولا محمّد، كانوا يدركون شيئاً عن هذه المأساة التي بدأت تلوح في الأفق. ولعل يسوع كان يتساءل إن لم يكن الوقت قد حان ليعود فيصلب ثانية.

في اعتقادي أن هؤلاء الأنبياء قد تمّ تجاوزهم. أعتقد أيضاً، لكن ربما كنت مثالية جداً، أن العديد من اليهود والمسلمين

والمسيحيين كانوا مقتنعين مثلي، بمن فيهم الأشخاص الثلاثة الذين أعجبتُ بهم أيّما إعجاب، أعني بهم صموئيل أبطار وميشال عزّام وإبراهيم عمران.

بعد خمس سنوات على خطاب وايزمن، وفي يوم شديد القيظ من عام ١٩٢٥، لمحتُ على رصيف مقهى أصدقائي الثلاثة مجتمعين كالعادة يحاولون إعادة صنع العالم.

- هل أبوح لكم بسرّ؟ قال صموئيل فجأة. هزّ الكاهن والإمام رأسيهما موافقين.

- كلما مررت أمام حائط المبكى^(١) يجتاجني سيل من الانفعالات. يعتريني الاضطراب وفي الوقت نفسه لا أتمالك عن الابتسام لفكرة أنني، أنا اليهودي، أنفعل أمام أنقاض مبنى سيّده رجل أدومي، هو الملك هيروودس، علاوة على أنه وثني، طلق امرأته لكي يتزوج امرأة أخيه. أمر عجيب، أليس كذلك؟

- لا، يا أخي، أجب الإمام، لا تنس أن حياة كل منا مكوّنة من رموز. من جهة ثانية أنا أفهمك، عندما أذهب للصلاة في مسجد القبة أشعر أنا أيضاً بهذه الإثارة.

التفت نحو ميشال وتابع:

- أفترض أن المسيحيين الذين يزورون القبر المقدس لا بد أنهم يعانون المشاعر نفسها مثلنا.

- قطعاً، أكّد البطريرك. الأمر كذلك. رموز، كلها رموز. لعنة؟ نعم؟ لا أدري. أطرح على نفسي هذا السؤال نظراً إلى ما يجري. احتفظ بيد المسلم في يده.

(١) Kotel. حائط المبكى، يُعزى إلى هيروودس توسيع الهيكل، وخصوصاً بناء حائط دعم يشكل حائط المبكى جزءاً متبقياً منه.

- مع ذلك، علينا أن نشكر القدرة الربانية كل مساء على أننا نعيش على أرض مقدسة، أرض فريدة وعظيمة. جدودك، أسلافنا، رأوا السماء نفسها التي نراها اليوم، وهذه السماء لا يملكها أحد منهم. السماء لا تُقسّم.

سكت برهة. شردت نظره ثم قال:

- يجب أن لا ندعهم يفعلون. هذه المدينة المقدسة يجب أن تبقى مقدسة للجميع.

طلب صموئيل أبطار كوباً من الليموناضة وأطلق زفرة طويلة.

- هل تعلمون ماذا أعتقد؟ أعتقد أن المدينة تجعل الناس مجانين.

- لِمَ تقول ذلك؟ سأل ميشال.

- يكفي أن نتأمل التاريخ. هل أجريتم يوماً جردة بأولئك الذين سعوا لاحتلالها؟
وأخذ يُعدّد:

- المصريون، الآشوريون، سرجون الثاني، سنحاريب، نبوخذ نصر، الإسكندر الكبير، بتوليمي، تيتوس، الصليبيون، صلاح الدين، العرب، العثمانيون، واليوم الإنكليز... ولا أذكر المنازعات بين الفلسطينيين والإسرائيليين! حتى لكأن مناجم الذهب والأحجار الكريمة أو النفط تغفو في ثرى مدينتنا.

- المناجم موجودة، علّق إبراهيم عمران، إنها تعاليم النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وموسى ويسوع.

- الحق معك، أيده ميشال، غير أن المسألة الأساسية هي: كيف نُحوّل الفردي إلى عمومي وخصوصاً كيف نفسر الرموز بما هي صور جامدة، بلا لحم ولا دم. صور لا أكثر... وأي رمز مهما كان

مقدّساً لا يستحقّ سفك الدماء دفاعاً عنه. فكّروا أنه في نظر بوذيّ أو أرواحيّ لن يكون حائط المبكى أبداً سوى رُكام من الحجارة، وقبّة الصخرة ما هي إلا بناء جميل، أما القبر المقدّس فليس سوى قبر من بين القبور. في المقابل لا يرى اليهودي أو المسلم أو المسيحي في نهر الغانج سوى أنه النهر الأكثر تلوثاً في العالم، وما بوذا إلا حالم وديع. لقد توصلت في تأملي إلى هذه الفكرة التي تساوي ما تساوي: في زمن الحرب ينتصر الموت على الناس؛ وفي زمن السلم الرموز هي التي تقتل.

ساد صمت طويل بعد كلام ميشال. لا شيء كان ليقطعه لولا صيحات المتظاهرين الفلسطينيين الذين اصطدموا بحاجز عسكري بريطاني.

وفيما استأذن عمران صديقيه بالذهاب قال بصوت خفيض:

- إنهم أقوياء جداً.

- عمّن تتكلم؟ سأل ميشال مندهشاً.

- عن الصهاينة طبعاً. لقد راقبتهم. إنهم حاذقون، متحدون، مهذبون، متضامنون، وهم علاوة على ذلك قريبون من السلطات الغربية لأنهم يعيشون في أوروبا. أما أبناء جلدتنا في البلدان العربية فيكتفون بكيل اللعنات وهم متحلّقون حول طبق من الحلوى. لقد سمعنا خطاب وايزمن. أخي لن يوافقني الرأي حتماً، لكنه شخصية متميزة، هو ليس الوحيد، لدى اليهود أيضاً شخصيات قوية مثل هذا البن غوريون الأمين العام الجديد لتجمّع الشغيلة في أرض إسرائيل^(١).

- يجب أن أعترف بأنك على حق، قال صموئيل، لكن ماذا بعد...

(١) في الأصل Eretz Israëل.

- إذن، ردّ الإمام، علينا أن نُنقِذَ القُدسَ بالسلاح الوحيد الجدير
بهذه المهمة: اللاعُف. ليس بالهجوم على يهود أبرياء، ومطاردتهم،
وقتلهم، نكسب تعاطف العالم. في النهاية هؤلاء المهاجرون ليسوا
هم المسؤولين حقاً بل أولئك الذين يتلاعبون بهم ويوهمونهم بأنهم
يأتون إلى أرض بلا شعب. هؤلاء هم المسؤولون الحقيقيون.

لم يكن عمران مخطئاً. كان الإنكليز يتظاهرون بأنهم يجلهون
تنامي مشاعر العداء بين اليهود والعرب. لكن اختبار القوى كان يبدو
دائماً. ونُدّر الحرب العالمية التي كانت تقترب تضع العالم كله أمام
تهديدات أخطر بكثير من تلك التي يمثلها النزاع الناشئ في فلسطين.
من، باستثناء اليهود أنفسهم، كان يهتمّ بمستقبلي فيما يخيم ظلاً هتلر
وستالين على العالم؟ ببطء، ولكن بالتأكيد، سوف أصبح رمزاً
للصهيونية الظاهرة.

بعد بضعة أسابيع، في أوائل الخريف، هاجم مسلّحون
بالسكاكين والعصيّ مستعمرة بتاح تكفاه شمال - شرق تل أبيب.
كانت المستعمرة قد أنشئت قبل سبعة عشر عاماً على يد حوالي ستين
من اليهود والرواد القادمين من أوروبا الوسطى بتحريض من المدعوّ
ستامبفر وهو مهاجر مجريّ قدم إلى فلسطين قبل حوالي أربعين سنة
وكان يحلم طوال حياته بولادة أرض فلسطين بحدودها الكاملة التي
وعد يهوّه بها شعبه.

قاوم المستوطنون وتمكنوا من إجبار المهاجمين على الفرار.
لكن الثمن كان باهظاً: مقتل أربعة مستوطنين وجرح اثني عشر
آخرين. وبلغت الاضطرابات مستعمرتي هيديرا وريهو فوت واشتعلت
النيران في منطقة الجليل وسالت فيها الدماء.

لم أسلم، أنا القُدس. ذات صباح وقع شجار بين صبيّين أحدث

حالة من الرعب لا تُعقل . في بضع لحظات شوهد أناس يركضون في جميع الاتجاهات وتجار يتركون متاجرهم من دون أن يعبأوا بإقفالها . واستدعى الأمر تدخّل مُنادين أخذوا يطمنون السكان .

لكن في غمرة هذه الاضطرابات رأيت أفعالاً نبيلة . في رام الله أنقذت عائلات يهودية بفضل الحماية التي وقّرها لهم أصدقاؤهم من المسلمين المدافعين عن قضيتهم .

في نابلس حدث العكس ، أجبر الفلسطينيون مئة وأربعين عائلة سامريّة تعيش في المنطقة منذ مئات السنين على مغادرة المدينة تحت التهديد بالقتل إن قاومت .

كان زيد أبيساف واقفاً على درج مدخل مزرعته في يافا والشمس تميل إلى الغروب ببطء ملقية انعكاسات بنفسجية على البحر .

لماذا يا الله؟ قبل أن تهبّ هذه العاصفة المجنونة كان الهدوء يسود هذه الأرض . لماذا يا الله؟ ما الذي حدث إذن حتى سرى رفضُ الآخر في عروق الناس؟

اغرورقت عينا الفلسطيني، واختفى المشهد الطبيعي خلف الدموع .

- لا ينبغي أن تبكي ، حبيبي .

انتفض زيد لدى سماعه صوت زوجته مُنى . مسح دموعه والتفت نحوها .

- لا شيء .

- اطمئن حبيبي .

- اطمئن . . . بينما فلسطين تنزف . إذا استمرّ هذا النزيف سيأتي يوم يكون فيه عدد الفلسطينيين في مصر ولبنان وسوريا والأردن أكبر من عددهم هنا . ثم إن عدداً من إخواننا بدأوا بمغادرة البلاد

مُحَبِّطِينَ، قلقين من رؤية المهاجرين الصهاينة يتكاثرون يوماً بعد يوم
ويُثيرون القلاقل في حياتهم اليومية. حتى أن بعضهم بات يتأسف
على المحتل التركي.

- أعلم ذلك. لكن... .

قاطعها:

- الإنكليز بصدد إشعال حريق هائل بمشروعهم لإقامة وطن
قومي لليهود. ما إن تُلقى الشرارة الأولى حتى ترينهم ينسحبون
ويتركوننا وجهاً لوجه مع المستوطنين الذين سيتضاعف عددهم في
هذه الأثناء.

لامست خدّه بلطف.

- الأسوأ ليس مؤكداً. انظر إلى مسارنا. عندما تلاقينا لم نكن
نتخيّل أبداً أننا سوف نتجاوز العقبات التي اعترضتنا، أنا القبطية
وأنت المسلم. ومع ذلك نحجنا. مضت خمس سنوات على زواجنا
ولدينا ولدان رائعان.

لم يتمالك أن ابتسم.

- يجب القول إنك قبطية استثنائية جداً. . أنت تؤمنين بإله
واحد، لكن لا تعرفين إن كان يسوع ابنه.

ألقت عليه في الحال نظرة متواطئة:

- أنت أيضاً مسلم استثنائي. تؤمن بإله واحد، لكنك لا تعرف
ما إذا كان محمّد هو رسوله.

هذه المرّة أخذ يضحك:

- لهذا نحن نؤمن بالدين نفسه.

بدأت أفهم الإنكليز منذ اليوم الذي فهمتُ فيه أخيراً أنهم يقولون عكس ما يفكرون تماماً. والدليل أنه في ذلك اليوم من أيام ١٩٢٥ كان يمكن أن نقرأ في جميع الصحف تقريباً الموزعة في فلسطين النصّ الآتي:

«يؤسفني أن أتبيّن أن الوثام الذي كنت أشد المتحمّسين لرؤيته سائداً بين أتباع مختلف الأديان والأعراف في فلسطين لم يتحقق حتى الآن. في المقام الأول يهمني أن أذكر مرة أخرى بسوء الفهم المؤسف الذي تسببت به العبارة الواردة في إعلان بلفور «إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين».

«سمعت بأن سكان فلسطين العرب لن يقبلوا أبداً بأن تُنتزع منهم بلادهم، وأماكنهم المقدسة، وتُعطى للأجانب، وأنهم لن يرضوا بإقامة حكومة يهودية تفرض القانون على الأكثرية المسلمة والمسيحية.

يقال أيضاً إنهم لا يمكنهم أن يفهموا كيف أن الحكومة البريطانية المعروفة عالمياً بميلها للعدالة أمكنها أن تنتهج سياسة كهذه. على ذلك أردّ قائلاً إن الحكومة البريطانية التي تضع فعلاً العدالة فوق كل شيء لم تصدّق يوماً ولم تقبل سياسة من هذا النوع.

علاوة على أن هذا ليس معنى إعلان بلفور. يمكن أن يكون المعنى قد التبس في الترجمة إلى العربية^(١).

كذلك، اسمحوا لي أن أذكركم بأن اليهود، وهم شعب متفرق في أنحاء العالم غير أن قلبه لم يكف عن الخفقان من أجل فلسطين، سيكون بإمكانهم إقامة وطنهم هنا؛ إن أعداداً منهم - في إطار الأرقام ومصالح السكان الحاليين - سيأتون إلى فلسطين لكي يسهموا بمواردهم وجهودهم في تنمية البلاد، لما فيه عظيم الفائدة لسكانها كافة.

إذا كان من الضروري اتخاذ إجراءات لإقناع السكان المسلمين والمسيحيين بأن هذه المبادئ سوف تُطبَّق فهذه الإجراءات سوف تُتخذ. وختاماً:

«إن الحكومة البريطانية المكلفة بانتداب هو لمصلحة جميع سكان فلسطين لا تريد أن تفرض نظاماً يراه السكان متناقضاً مع مصالحهم الدينية والسياسية والاقتصادية. وبناءً عليه سوف تعلق الهجرة خلال الوقت الضروري لتفحص الوضع».

كان يمكن لهذا النص أن يبدو مناسباً وصادقاً لو لم يكن موقعاً بيد... هربرت صموئيل. هذا الرجل المتهم بالانحياز يبدو أنه في مواجهة الاضطرابات والغضب المتصاعد لدى الفلسطينيين قرّر أن يهدئ الأجواء. وعلى كل حال فهو لا يخاطر بشيء في ما تعهد به: بعد شهر على هذا الإعلان، في الثلاثين من حزيران، حزم حقائبه سراً وعاد إلى لندن.

(١) في النصوص العربية العائدة لتلك الفترة كانت عبارة «إعلان بلفور قد تُرجمت عموماً بعبارة وعد بلفور».

طبعاً، كان من شأن هذا الإعلان استعداد المسؤولين الصهاينة في العالم، بينما كان الجنرال برنارد مونتغمري يُعلن في الوقت نفسه أن «اليهود يقتلون العرب، والعرب يقتلون اليهود، وسوف يستمرون في الاقتتال خلال قرون».

في الحادي عشر من تشرين الثاني ١٩٣٦ جاءت إلى فلسطين لجنة، سمّيت لجنة بيل، للتحقيق في أسباب هذا النزاع الذي يلهب الطائفتين. وبعد عودة اللجنة إلى بريطانيا أوصت بإلغاء الانتداب - باستثناء ممر حول القدس يمتد حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوب يافا - وتقسيم الأراضي الباقية تحت السلطة البريطانية بين دولة عربية ودولة يهودية. فشل المشروع. فقد وجد كل من اليهود والعرب أن هذا التقسيم مُخز. إذا طُبّق يخسر العرب الساحل، ما عدا يافا وغزة. أما الجليل، وأنا القدس، فنبقى تحت السيطرة البريطانية. إن التخلي عن جزء من البلاد مذلة لأهلها، لكن أن تعطى للغرباء المنطقة الأغنى اقتصادياً يعني الحكم بالموت على القرويين، والمزارعين، والصيادين، الفلسطينيين. ولم يكن العرب وحدهم من اعتبر أن هذه الخطة غير مقبولة: لقد رفضتها أيضاً الحركة التعديلية اليهودية التي رأى زعيمها جابوتينسكي أن بريطانيا سبق لها أن فصلت شرق الأردن عن أرض إسرائيل. ونادى كبار الأحرار بالويل والثبور: «إن الشعب اليهودي لم يتخلّ خلال آلاف السنين من المنفى عن حقه في أرض الأسلاف ولن يتخلّى عن شبر واحد من البلاد».

واندلعت الثورة العربية الكبرى، الانتفاضة الأولى، واستمرت ثلاث سنوات، وخلال هذه السنوات لم يتمكن من إخماد الثورة لا العشرون ألف جندي بريطاني الذين استُقدموا لتعزيز القوات

الموجودة، ولا الواحد وعشرون ألف مقاتل من الهاغانا^(١)، ولا الألف وخمس مئة من الإرعون^(٢).

- هل هذا حلّ؟ علّق ميشال عزّام وهو يضع كوب الشاي على صينية نحاسية منقوشة. هؤلاء القتلى الفلسطينيين؟ هؤلاء اليهود؟ هؤلاء الإنكليز.

وكرّر:

- هل هذا حلّ؟

- لا، طبعاً... ردّ صموئيل. فنحن غارقون في دوّامة لا نهاية لها. أول من أمس هوجمت حافلة على طريق نابلس - يافا. قُتل ثلاثة مسافرين يهود بالرصاص عن قُرب، وسُلب الآخرون. وليس أبعد من هذا الصباح سرت شائعة بأن ثلاثة حوارنة رُجموا في تل أبيب^(٣) وانتشر مواطنوهم في الشوارع وهم يصرخون أن الصهاينة يقتلون العرب. وفي بضع دقائق هجمت عصابات على المارّة اليهود مستهدفين الأكبر سنّاً. جنون.

كان ثمة واقعة مؤكدة: لقد استعدى الإنكلوساكسون كلاً من العرب - لأنهم أصدرو بياناً ثم نفذوه بإنشاء «وطن يهودي» في

(١) Haganah، كلمة عبرية تعني «دفاع». منظمة صهيونية سرية كانت مهمتها حماية اليهود والمهاجرين إلى فلسطين.

(٢) Irgoun، منظمة عسكرية يهودية أنشئت عام ١٩٣١. تعتبر الحركة الصهيونية الأولى المنشقة. يتشكل عديدها من عناصر البيطار Betar حركة الشبيبة في الحزب الثوري المعارض للصهيونية البطيئة و«الاقتصادية» للحركة العمالية وأنصارها.

(٣) الحوارنة كانوا عمالاً سوريين معظمهم دخلوا البلاد بطريقة غير شرعية وكانوا يعملون عادة حمّالين في المرافئ.

فلسطين - والصهاينة لأنهم حاولوا الحدّ من هجرة اليهود إلى فلسطين. وانقسموا بُعيد الحرب: كان الرئيس الأميركي ترومان يحب اليهود وضغط على رئيس الوزراء الإنكليزي أتلي لكي يسمح بدخول مئة ألف يهودي إلى فلسطين، فردّ أتلي الغاضب قائلاً إن الأميركيين لا يتمتعون بأي صلاحية لكي يتدخلوا في فلسطين ولم يأخذ مطالبهم بالاعتبار.

فجر يوم الخامس عشر من آذار استيقظ زيد أيساف كعادته على صياح الديك وفرك عينيه: على بُعد حوالي مئة متر من بستان الزيتون الذي يملكه كان سياج يسد الأفق. سياج؟ لكنه لم يكن موجوداً البارحة. خلفه ترتفع بيوت صغيرة بيضاء جديدة تماماً. اقترب. كانت فرق من العمال تعمل على إقامة جدران خشبية، وسقائف وقواطع. بيوت أخرى! لا ريب في أن هؤلاء الناس قد عملوا طوال الليل على ضوء كشافات تغذيها مجموعة مولّدات كهربائية محمولة على شاحنة.

نادى زوجته:

- مُنى! تعالي انظري! هناك ما يطير العقل! ننام في بلاد ونستيقظ في بلاد أخرى.

انضمت إليه المرأة الشابة ونظرت مذهولة:

- كيف أمكن ذلك؟

- هذا ما حدث. في ليلة واحدة خرجت ثلاث قرى من الأرض المجاورة. وما كان الزوجان يجهلانه كنتُ أنا أعرفه. العملية المسماة «أسوار وبرج» التي تقضي ببناء واحد وخمسين مجمعاً سكنياً كانت قد بدأت. وكان ينبغي أن يتم ذلك في إطار من الكتمان والمفاجأة سريعاً جداً لوضع الإنكليز والعرب أمام الأمر الواقع.

رفعت السلطات الإنكليزية ذراعيها نحو السماء وعلى غرار
بيلاطس البنطي غسلت يديها في مياه الأردن.

استأنفت الأسلحة التكلم بلغة الموت، وغدا دويّ الانفجارات
في الأرياف مألوفاً كنفيق الضفادع. أما أنا فبقيت مدينة هادئة مقارنة
بالعالم كله الذي كان يحترق وتسيل فيه الدماء. هادئة قياساً على
مدن كثيرة في حالة حرب. هادئة لأنني لم أكن عرضة للنيران الهائلة
التي كانت تلتهم الكرة الأرضية انطلاقاً من برلين. وجدنتي في وضع
معلق مستشعرة أن مصيري سوف يتقرّر في معارك الآخرين. كنت قد
أصبحت تاريخاً شبه مُجمّد، شبه صامت، منسوجاً بالشائعات
والتنقلات البطيئة أكثر منه بالتصريحات الراحدة والأعمال المتألّقة.

كانت مرحلة الحرب العالمية لحظة انقلاب حاسم لكنه مُلتبس.
كنت لا أزال ذلك الكيان الأرضي والقانوني الواحد نفسه، بلدية
واحدة تدير كيفما اتفق الحياة اليومية لجميع سكاني، أيّاً يكن
انتماؤهم الديني. كنت قد أصبحت مدينة مجزأة لكنها لم تقسّم بعد؛
مقطّعة لكنها لم تُفكّك بعد، متنافرة لكنها غير متباعدة. نعم، كنتُ
في وضع مُعلق.

في الرابع عشر من أيار كان عمران من ضمن عدد من
الأشخاص الذين لبّوا دعوة غي دي شايلاز، قنصل فرنسا العام في
القدس. كان ذلك قبل أقل من أسبوع على استسلام ألمانيا فكانوا
يحتفلون هذا المساء بـ«يوم النصر». غير أن البهجة المنتظرة لم تكن
على الموعد.

رجل قصير القامة، بيده كوب من الشامبانيا، اقترب فجأة من
عمران وسأله:

- ألا تشرب؟

أراه الإمام كأس عصير البرتقال الذي بيده .

- بلى . . .

- مشروب حزين . . .

- حزين مثل القديس .

ابتسم الرجل .

- صحيح ، عندما ننظر من حولنا نجد أن المدينة المقدسة ،

بخلاف لندن وباريس ، لم تريح الحرب . والاحتفالات التي تنظم

هزيلة مثل المشاركة الشعبية . والأعلام المرفوعة على المباني

الخاصة أقل مما ينبغي في مدينة يسكنها أكثر من مئة ألف نسمة .

هزّ عمران رأسه وشرب جرعة كبيرة .

- لهذا السبب ، بغضّ النظر عن كوني مسلماً صالحاً لا يحتسي

المشروبات الكحولية ، يناسبني عصير البرتقال .

كانت هذه اللحظة التي اختارها القنصل لكي يتدخل في

المحادثة :

- اسمح لي ، لقد سمعتكما . أنتما لا تحسان التعبير عن الجو

المخيّم هنا . الاحتفال الشعبي الرسمي الوحيد تمثل في نوع من

الانسحاب قام به خمسة عشر زماراً اسكتلندياً من أمام فندق الملك

داوود حيث مقرّ القيادة العامة البريطانية . أبدى الجمهور المحتشد

أمام الفندق حماسة أقل ما يمكن أن يقال فيها أنها غير مُفرطة ؛

ويجب الاعتراف أن هذه التظاهرة كانت رتيبة جداً . تلك هي غرابة

غداة الحرب التي نشاهدها في القدس .

وضع إبراهيم كوبه على الصينية التي يحملها خادم مرّ بجانبه

واستأذن مضيفه بالذهاب . كان يخبثق .

بعد بضع دقائق دخل إلى منزله غير البعيد عن باب هيرودس في
الحي المسلم .

استقبلته زوجته قلقة .

- أنت بخير؟

- طبعاً . لماذا هذا السؤال؟

- لأنك عدت باكراً . عادة هذا النوع من الاجتماعات يستغرق

مدة طويلة . لم تغب أكثر من ساعة .

استلقى إبراهيم على كنبه ، والتقط بصورة آلية مسبحته وأخذ

يسقط حباتها من بين إبهامه والسبابة .

- مُحبط . مُحبط جداً . يحتفلون بنهاية الحرب كما لو كانوا في

بلاد أخرى . غير مبالين كلياً بالمصير الذي ينتظرنا .

وسأل ، مغيراً الموضوع :

- هل من أخبار عن يسرى؟

- مرّت لرؤيتي بعد الظهر .

- هل هي بخير؟

- نعم ، يا عزيزي . كف عن القلق بشأنها . هل يجب أن أذكرك

بأنها في الثانية والثلاثين من العمر ، لم تعد طفلة .

- ولم تتزوج حتى الآن!

- أمر محزن ، أعلم . ماذا تريد أن تفعل في شأنها؟ لقد رفضت

جميع الخطاب الذين عرضناهم عليها .

- وستنهي عجوزاً عانساً! أكثر ما يقلقني بشكل خاص هو

العنف الذي يتحملة في ذاتها . بحسب قولها يجب إلقاء جميع

المهاجرين اليهود في البحر . أخشى أن تقع تحت تأثير المتطرفين

وترتكب عملاً جنونياً .

لامست زكية بحنان خد زوجها .

- يسرى تتكلم بصوت عال، ترمجر، لكنها لن تؤذي ذبابة .

تأفف إبراهيم غير متوهم وترك زوجته .

- أنا ذاهب لأنام . . . ما عدت قادراً على التفكير .

* * *

غداة تلك الحرب بقيت موضوع الرهان بين شعبيين .

الأول، الفلسطينيون، كانوا مقتنعين بأن وجودهم على هذه الأرض المسماة «مقدسة» منذ أكثر من ألف وأربع مئة سنة يعطيهم حقاً مطلقاً في امتلاكها . مطالبة، تبدو لي، أنا أورشاليم، مشروعة جداً . أسلافهم كانوا هنا، وكبروا هنا، وقبورهم ترسخ هذه البداهة .

الثاني، اليهود، كانوا يطالبون بـ«حق العودة» ويعتبرون أنفسهم ذرية إبراهيم الذي أعطاه الله هذه الأرض . ما يجعل تأكيدهم غير قابل للنقاش لأن اتهامهم يقتضي طلب التحكيم من يَهُوَه . إذن مع رؤية الفظائع التي خلفتها الحرب التي انتهت للتو يبدو أن لا أمل في أن الكلّي القدرة يعبأ بهذا العالم .

يقين واحد: سوف تنشب بين اليهود والفلسطينيين حرب تستمر حتى نهاية الأزمنة .

في التاسع والعشرين من تشرين الثاني لعام ١٩٤٧، بعد نقاش كثيف استمر شهرين وخيبة أمل كبيرة للفلسطينيين، أصدرت الأمم المتحدة القرار ١٨١ . ينص القرار على الانسحاب التدريجي للقوات المسلحة البريطانية وترسيم الحدود بين دولتين يهودية وعربية . وأما أنا القدس وضاحيتي القريبة فقد وضعت تحت وصاية الأمم المتحدة بوصفي «جسماً منفصلاً» . «جسم منفصل» كان هذا اسمي الجديد .

نقطة إيجابية: هذا الفصل من شأنه أن يضمن لجميع الطوائف حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة بأمان.

صوّت مع القرار ٣٣ دولة من بينها: الولايات المتحدة، الاتحاد السوفياتي، فرنسا، بلجيكا، كندا، بولونيا، وصوّت ضدّه ١٣ دولة: جميع الدول المسلمة واليونان وكوبا. وامتنع ١٣ ولا سيما بريطانيا العظمى. واعتمد القرار بغالبية الثلثين.

قبلت الوكالة اليهودية بالقرار، ورفضه العرب الفلسطينيون والدول العربية الذين قالوا إنه ينتهك أحكام ميثاق الأمم المتحدة التي تعترف بحق الشعب في تقرير مصيره.

عليّ مع ذلك أن أوضح أن البند الحادي عشر من هذا القرار ينصّ على: «وجوب السماح بالعودة في أقرب وقت ممكن للاجئين الراغبين في العودة إلى ديارهم والعيش بسلام مع جيرانهم، ووجوب دفع تعويضات عن ممتلكات الذين يقررون عدم العودة إلى ديارهم وكذلك عن كل فقدان أو خسارة أو ضرر للممتلكات».

في طراوة المسجد الأقصى أتم إبراهيم عمران صلاة المغرب. وفيما كان ينهض من الصلاة خطرت له هذه الآية من القرآن الكريم: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». هذا المسجد، كيف سيصبح؟ ما مصيره إذا ما احتلّ اليهود المدينة عسكرياً؟

البارحة أعلن لصديقيه ميشال وصموئيل: «سوف تريان أنه من الآن فصاعداً لن يتكلم العالم كله إلا عن مشاعر الحقد المتبادلة بين اليهود والعرب. يا لها من عدالة! عندما كان الإسبان يحرقون اليهود

على أكوام الحطب لأنهم يعتبرونهم عملاء الشيطان، مَنْ قَدَّم لهم المأوى؟ مَنْ سمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية؟ إلى أين لجأوا هرباً من اضطهاد الغربيين، من حملات المطاردة، من الإذلال، من الغيتوات؟ لجأوا إلينا. إلى العرب. قريباً، سوف ترون أنهم سيشيرون إلينا بالأصابع باعتبارنا ألد أعداء اليهود».

كان صموئيل أبطار قد اقترب منه وعانقه.

«الحق معك، يا صديقي. لكن ثق أنني لن أقبل أبداً بهذه الفكرة المشينة ما دمت حياً. أبداً.»

«من جهة ثانية، لاحظ ميشال عزّام، الأمر لا يتعلّق بالدين، بل باحتلال أراضٍ.»

«نعم، لكن المنتصر يحطّم المهزوم أيّاً يكن ويجعله يركع».
وأنا، القدس، كنت أعرف من سيكون المنتصر.

* * *

على مرأى من زوجته القلقة سحب زيد أيساف نفساً عميقاً ألهب جمر نرجيلته المتأجج.

أخيراً خفضت سامية عينها، كانت ترغب في إيجاد الكلمات المطمئنة لكنها عجزت عن ذلك. أشفقتُ عليها. منذ صدور الإعلان أصبحتُ جوهر كل المطامع. كان مقاتلون يبرزون فجأة ويتقاتلون للاحتفاظ بي قبل أن يسقطوا كأطفال مخلّعي الأوصال. أتذكر أحدهم وكان يُدعى عبد القادر الحسيني. كان قد أنهى دراسته الثانوية في القدس والتحق بالجامعة الأميركية في بيروت، إلا أنه لم يمكث بها طويلاً إذ تم إبعاده بعد سنة بسبب ميوله الوطنية. تسجّل في الجامعة الأميركية في القاهرة وتخرّج فيها حاملاً شهادة في

الكيمياء، وفور عودته إلى فلسطين انخرط في المقاومة. لجأ إلى منطقة الخليل حيث انضم إلى المقاومين، وكان البريطانيون يبحثون عنه بحثاً حثيثاً. وسرعان ما أدرك أن مفتاحي لا يوجد إلا في بعض منازل أو في احتلال حي معزول، لكن في الطريق المعقّرة الصاعدة نحو عبر التلال المشرفة على قرية القسطل الصغيرة. من أجل ذلك أعلن لرفقائه: «سوف نخنق القدس». وهذا ما كان يحاوله فعلاً. كانت حياة مئة ألف يهودي محاصرين داخل أسواري تتوقف على حوالي ثلاثين شاحنة كان يتعيّن على الهاغانا أن تدخلها إليهم يومياً بعد انتزاعها من برائن عبد القادر ومسّحيه. في النهاية تمكن المقاتلون اليهود من إيصال تلك الشاحنات. وبعد توضّحات جسيمة تمكنوا من احتلال القسطل حيث سقط عبد القادر قتيلاً^(١).

في اليوم التالي كنت شاهدة على حدث شنيع. تعرّضت دير ياسين، وهي قرية قريبة مني لناحية الغرب، لهجوم نفّذه مسلحو الإرغون الذين قتلوا بدم بارد حوالي مئة من القرويين. ومع أن بن غوريون نفسه استنكر تلك المذبحة إلا أن بعض المتطرّفين الصهاينة أنكروا وقوعها. بالعكس، أعلنوا، ويعلنون اليوم أيضاً، أن العرب كانوا مسؤولين عن تقنية «الكذبة الكبيرة» بُغية صرف الانتباه عن الفظاعات التي كانوا يرتكبونها. وقد وصفوا، ويصفون، مأساة دير ياسين بـ«الخرافة»، والأسطورة الهادفة إلى تنشئة أجيال من الأطفال العرب لكي يصبحوا إرهابيين جاهزين لشنّ الحرب على إسرائيل. وهم يشيعون أن هذه القرية لم تكن سوى وكر محصّن لمثيري الشغب والخارجين على القانون.

(١) عبد القادر أحد أبطال رواية أوه أورشليم. Ô Jerusalem

هذا كذب. لقد رأيت كل شيء. كانت مذبحه. ولست وحدي
من يؤكد ذلك. كان ذلك أيضاً رأي الهاغانا والوكالة اليهودية.

في بهو متحف الفن الحديث المزدهم بالحضور كان تلاميذ
الضباط في المدرسة الحربية التابعة لتنظيم الهاغانا يجدون صعوبة
متزايدة في ضبط الجمهور. فهذا اليوم الجمعة الرابع عشر من أيار
١٩٤٨ لم يكن كغيره من الأيام لأنه يُصادف عند اليهود يوم الخامس
من شهر إيار^(١) للعام ٥٧٠٨ في التقويم العبري.

كانت جدران القاعة الصغيرة مغطاة بلوحات: الكتب العبريون
يتعرفون إلى اليهودي الحامل لوحَي الشريعة، للرسم مارك شاغال،
أو البوغروم لمينكوفسكي^(٢). لكن الجميع من دون استثناء كانوا
يعرفون من هو الرجل الملتحي وسط الجدار الأكبر يكتنف صورته
علمان أبيضان بشريطين أزرقين ونجمتي داود! إنه تيودور هرتزل، أبو
الصهيونية.

جلس دافيد بن غورين تحت إطار الصورة، يحيط به أعضاء
المجلس القومي اليهودي الأربعة عشر، وكل النخبة في الدولة
اليهودية الناشئة.

في الساعة السادسة عشرة تماماً، وقف بن غوريون وأخذ يقرأ
بصوت جهوري:

«إن أرض إسرائيل هي مسقط رأس الشعب اليهودي. هنا أسس
هويته الروحية، والدينية، والقومية. هنا حقق استقلاله وخلق ثقافة
ذات مضمون قومي وكوني، هنا كتب التوراة وقدمها إلى العالم. إن

(١) في الأصل Lyar.

(٢) لوحة تصوّر اضطهاد اليهود في روسيا القيصرية (المرجم).

الشعب اليهودي الذي أجبر على العيش في المنفى ظلّ وفياً لأرض إسرائيل في جميع بلدان الشتات، ولم يكفّ يوماً عن الصلاة والأمل في العودة إليها لكي يستعيد حرّيته القومية.

بدافع من هذا الرابط التاريخي، ناضل اليهود عبر العصور من أجل العودة إلى أرض أسلافهم، وإقامة دولتهم. في غضون العقود الأخيرة عادوا بكثافة. استصلحوا الأراضي غير المزروعة، أحيوا لغتهم، بنوا مُدنًا وقرى وأنشأوا فيها مجتمعاً شجاعاً ونامياً يمتلك حياته الاقتصادية والثقافية الخاصة. لقد سعوا للسلام مع استعدادهم الدائم للدفاع عن النفس. وعمّموا منافع التقدم على جميع سكان البلاد، واستعدوا لنيل الاستقلال المطلق. في عام ١٨٩٧ أعلن المؤتمر الصهيوني الأول، المستوحى من رؤية تيودور هرتزل للدولة اليهودية، حق الشعب اليهودي في تحقيق النهضة القومية في بلاده...».

امتدّ صوت بن غوريون إلى ما وراء تل أبيب، بعيداً عن الدولة الجديدة، نحو العالم العربي المذهول.

ما كاد الخطاب ينتهي حتى عمّت التظاهرات شوارع دمشق وبغداد والإسكندرية والقاهرة وبيروت، وهاجم المتظاهرون المحلات التجارية التي يملكها اليهود وحطموها وأشعلوا النيران فيها.

كانوا يهتفون في كل مكان بالكلمة التي أصبحت رمزاً: دير ياسين، دير ياسين.

صباح اليوم الخامس عشر من أيار، أعلنت سوريا ولبنان والأردن والعراق ومصر الحرب على إسرائيل.

في الأحياء اليهودية كنت شاهدة على مظاهر البهجة، كانوا

يرقصون، يبكون، يضحكون شاكرين الأزلّي. وفي الأحياء العربية كانت أصوات النحيب مرتفعة دليلاً على الحداد.

في اليوم التالي بزغ الفجر على جُرح مفتوح ينبعث منه مزيج من المعاناة والابتهاج.

ومثل قاطع طريق، غادر البلاد آخر مفوض سام إنكليزي. كل البلدان العربية في المنطقة، مصر، سوريا، الأردن، لبنان، العراق، بدأت العمليات الانتقامية. والنتيجة: إعلان الهدنة في عام ١٩٤٩، وخرجت إسرائيل من النزاع أقوى مما كانت عليه قبله. كان يكفي أن أرهف السمع لأعرف أن العالم يغلي من السخط وأن الشعور بالحرمان والإحباط سوف يدوم ما دامت العدالة غير متحققة.

من حيفا إلى تل أبيب، ومن يافا إلى رام الله، ومن مرج ابن عامر^(١) إلى رمال النقب، كان يمكن سماع هدير بركان في أحشاء فلسطين. وعن قريب يُفرغ جِمْمه ويفتك بأرواح كل الناس في المنطقة.

ما كنت أتخيّل أن ريح البغضاء التي بدأت تعصف آنذاك سوف يستمر عصفها على مدى عقود في ما بعد، بل على مدى القرون الآتية، إن لم تحصل معجزة.

في الحادي عشر من حزيران ١٩٤٨، انتزع مجلس الأمن هُدنة لمدة شهر من المتحاربين، وفي الثاني عشر من الشهر نفسه وصل إلى فلسطين وفد يمثل الأمم المتحدة برئاسة شخصية سويدية وقورة وحيادية، الكونت فولك برنادوت، يرافقه حوالي مئة مراقب أميركي وبلجيكي وفرنسي وسويدي. في الأيام التالية أرسل تقريراً مُندراً جاء

(١) في الأصل jezreel، يزرعئيل حسب تسميته في التوراة (المترجم).

فيه «بصفتي وسيطاً، لديّ اقتناع بأن جهودنا لا يمكن أن تستمر بنجاح إلا إذا وجد حلّ للجانب الأكثر إلحاحاً للمشكلة التي تطرحها أكبر كارثة إنسانية تمسّ سبع مئة وخمسين ألف لاجئ فلسطيني محرومين من جميع الحقوق. إن وضع هؤلاء اللاجئين بائس جداً. ثلاثون في المئة منهم أطفال أعمارهم أقل من خمس سنوات ويعيشون من دون غذاء تقريباً ما عدا بعض المؤن من الطحين».

وأضاف: «سيكون مسيئاً للمبادئ الأولية منع هؤلاء الأبرياء ضحايا النزاع من العودة إلى ديارهم. بينما يتدقّق المهاجرون اليهود على فلسطين ويهددون بصورة دائمة بالحلول محل النازحين العرب المتأصلين في هذه الأرض منذ قرون».

اتهم الصهاينة الكونت برنادوت بالعداء للسامية. وفي السابع عشر من أيلول أقدم أعضاء في منظمتي الهاغانا والإرغون على اغتياله مطلقين النار عليه داخل سيارته عند اجتيازه حاجزاً إسرائيلياً. واندلعت الاشتباكات مجدداً بصورة أكثر عنفاً.

شيئاً فشيئاً كان يتحقق على مرأى مني حلم تيودور هرتزل بإقامة دولة يهودية، لكن بأي ثمن؟ كنت أشاهد مرور مئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال على دروب المنفى. كم كان عددهم؟ ٧٠٠ ألف؟ ٧٥٠ ألفاً؟ وفي ما بعد سيناhez الخمسة ملايين لاجئ فلسطيني.

أطلق على هذا التمزق اسم «النكبة»، الكارثة. عندما أفكر في هذه الجموع المغادرة أظن أنني أعيش مرة أخرى في زمن سنحاريب، ونبوخذنصر، وبطليموس الأول أو أنطوخيوس، يكرّر التاريخ في اتجاه معاكس تلك المأساة. شعب يحلّ محلّ شعب آخر على دروب المنفى.

في نيسان ١٩٤٩ أُعلنت الهدنة بين المتحاربين. تم تقسيمي إلى

قسمين: قسيمي الغربي خاضع للسيطرة الإسرائيلية، وقسيمي الشرقي وُضِع تحت السيطرة الأردنية. وأُطلق على خط التماس هذا اسم «الخط الأخضر». وكنت أنا لأسميه الخط الأحمر. أحمر بكل هذه الدماء التي سالت والتي ستسيل.

فجأة خيّم مناخ خانق، ثقل ذكّرني بأسوأ اللحظات منذ أن وجدتُ. انتصبت جدران في الرؤوس، حتى هنا حيث لا تُرى.

لكنني كنت أعلم أن لا شيء قد انتهى.

وأن لا شيء سينتهي أبداً.

أدركت أيضاً أن العالم الأمثل لا يمكن أن يولد إلا عندما يستطيع كل شخص فيه أن يفهم ألم الآخر.

بعد سبع سنوات نشبت حرب جديدة. قررت كل من إنكلترا وفرنسا، وكذلك إسرائيل، الهجوم على مصر. السبب؟ منذ عام ١٩٥٢ حكم وادي النيل رجل يُدعى جمال عبد الناصر. بعد أن أخرج الإنكليز الذين يحتلون مصر منذ حوالي سبعين عاماً، وفي إطار خطة لاستصلاح مساحات شاسعة من الأراضي الصحراوية والحاجة إلى المياه لتحقيق ذلك، أراد بناء سد على نهر النيل لتنظيم توزيع مياهه. ومن شأن عملية التنظيم هذه أن تلبّي حاجات المزارعين من مياه الري وتوليد الكهرباء. اختيرت منطقة أسوان مكاناً للسد المزمع إنشاؤه. وطلب عبد الناصر المساعدة المادية والفنية من الولايات المتحدة الأميركية التي رفضت الطلب. عندئذ قرّر سيد مصر الجديد، وقد قطع الأمل في المساعدة الغربية، أن يؤمّم شركة قناة السويس التي تمكنه عائداتها من تمويل بناء السد.

اعتبر هذا التدبير عملاً لا يمكن التسامح معه من قبل إنكلترا التي كانت تريد أن تستعيد موطئ قدم لها في هذه البلاد التي طردت

منها قبل أربع سنوات تقريباً، كما أثار غضب فرنسا المساهم الرئيسي في رأسمال شركة قناة السويس. أما إسرائيل؟ فكانت مستاءة جداً من وصول هذا العقيد في الجيش المصري إلى قمة السلطة. ولم يكن التخلص منه بأسرع وقت ليسوء المسؤولين الإسرائيليين.

بدأت العمليات الحربية في التاسع والعشرين من تشرين الأول ١٩٥٦ بتدخل الطيران الإسرائيلي في سيناء. وفي اليوم التالي، وفقاً للاتفاق السري المبرم في مدينة سيفر الفرنسية، وجهت فرنسا وإنكلترا إنذاراً إلى كل من مصر وإسرائيل بوقف القتال بينهما. وبحجة الرفض المصري للإنذار دخلت الدولتان في النزاع. تم القضاء على الطيران المصري مما سمح للإسرائيليين بالاستيلاء على سيناء وغزة. وفي الوقت نفسه انطلق الأسطول الفرنسي - البريطاني من مالطة باتجاه بورسعيد.

بينما كانت العمليات الحربية مستمرة تصاعدت ردود الفعل الدولية. اجتمع مجلس الأمن الدولي في الأول من تشرين الثاني وطلب وقف العمليات ضد مصر. وافق الإسرائيليون (تطبيقاً حرفياً لاتفاق سيفر الشهير) بينما تابع الفرنسيون والبريطانيون العمليات الحربية: في الخامس من تشرين الثاني احتل مظلون بورسعيد وبدأوا الزحف نحو القناة. غير أن الضغط الدولي كان قد ازداد قوة. ضرب الدبلوماسيون الأميركيون والسوفييات بقوة على الطاولة في مجلس الأمن وأجبروا بريطانيا العظمى وفرنسا على وقف القتال.

انتهت أزمة السويس بفشل دبلوماسي ذريع وكانت نتيجتها الوحيدة تحوّل عبدالناصر إلى بطل في نظر الملايين من العرب. يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، كنت أشاهد بأمّ العين بروز خلافات جديدة بشأن المصير الذي يريده لي العالم.

غداة صدور قرار الأمم المتحدة ١٨١ أنشئت اللجنة الدولية للتوفيق من أجل فلسطين. كانت مؤلفة من ثلاث دول هي: تركيا والولايات المتحدة وفرنسا. كان كلود بريار دييوازانجر، الذي يتولى المباحثات باسم فرنسا، على علاقة بمنتهى السوء مع المندوب الأميركي مارك اتريدج. في الواقع كان هذا الأخير يدافع عن موقف الولايات المتحدة التي ترى أن تقسيم مدينة القدس بين إسرائيل وشرق الأردن قابل للتطبيق. بينما كانت الحكومة الفرنسية تستبعد أن يكون إنقاذ الأماكن المقدسة مؤكداً إلا عن طريق تدويل مدينة القدس، موضحة أن هذا الحل وحده يحول دون استيلاء الإسرائيليين على المدينة القديمة. وكانت فرنسا مقتنعة بأنني إذا ما بقيت مقسمة فإن احتلال المدينة سوف يبدو على أنه انتصار إسرائيلي على الفريق العربي أما في حالة التدويل فهذا الاحتلال سيكون «اعتداء على الأماكن المقدسة والأمم المتحدة».

مع ذلك كانت الولايات المتحدة تدافع رسمياً عن التقسيم. بعد بضعة أشهر قرّر المندوب الفرنسي في لجنة التوفيق تأييد الأفكار الأميركية والتراجع عن «جعل القدس كياناً دولياً بحضر المعنى». في المقابل اقترح تدويل الأماكن المقدسة فقط بحيث تصبح من اختصاص الأمم المتحدة وحدها.

في الوقائع كنت مدينة حدودية، مقسومة وفقاً لمحور شمالي - جنوبي بين الإسرائيليين والأردنيين. وكانت مناطق جبل المشارف^(١)، الواقعة على مسافة حوالي كيلومتر واحد جنوب شرق

(١) Scopus. كما في الأصل. يسمّى أيضاً جبل المشهد أو جبل الصوانة. يقع شمال شرق القدس. ارتفاعه ٨٢٦ متراً. يسميه غير العرب جبل سكوبس (المترجم).

المدينة القديمة، والمقر السابق للحكومة البريطانية، تدار من قبل الأمم المتحدة. وقد نظمت تقسيم المدينة المقدسة وأضفت عليه الصفة الرسمية اتفاقية الهدنة الإسرائيلية العربية الموقعة في رودس في الثالث من نيسان ١٩٤٩ برعاية الأمم المتحدة.

كان يمكنني الاعتقاد أن القضية قد سُويت. لكن في التاسع من كانون الأول، وعلى الرغم من المعارضة القوية التي أبدتها إسرائيل وكذلك الأردن، أكدت الجمعية العامة للأمم المتحدة عزمها على أن تخضعني لنظام دولي دائم. صوت على القرار ٣٨ عضواً، وعارضه ١٤ وامتنع ٧ أعضاء. وقد صوت مع القرار معظم الدول الكاثوليكية والمسلمة والشيوعية؛ وصوتت دول أخرى ضد القرار من بينها الولايات المتحدة وإسرائيل والمملكة المتحدة.

فكرة أن أكون «دولية» ولا أنتمي إلى طرف مُعين راقَت لي، كما أنها لم تزعج أصدقائي الثلاثة، إبراهيم، وصموئيل، وميشال. عندما أُبلغ الخبر إلى الكاهن فتح قنينة نبيذ أبيض مُنتج من أعناب الطيبة^(١). اكتفى إبراهيم بتبليل شفثيه بالخمرة، شكلياً ليس إلا. وعندما رفع كأسه سمعته يقول: «بصحة القدس، عاصمة العالم».

انقبض قلبي.

مات إبراهيم عمران بعد عامين، وتبعه صديقه بعد قليل. وفيما كنت أشاهد جنازاتهم خطرت على بالي فكرة: لقد ذهبوا مع الأمل بأنني لن أنتمي إلى أحد أبداً.

في السادس من حزيران ١٩٥٧ تبخّر هذا الأمل.

(١) الطيبة قرية فلسطينية تقع في الضفة الغربية على مسافة ٣٠ كلم شمال القدس و١٢ كلم شمال شرق رام الله. تمتاز بأنها بلدة مسيحية منذ الأيام الأولى للديانة المسيحية.

قبل ثلاثة أشهر قُتِل ثلاثة جنود إسرائيليّين على يد فدائيّين فلسطينيين قرب الحدود السورية وحبس الشرق الأوسط كله أنفاسه. كيف سيكون رد الفعل الإسرائيليّ؟

رئيس الوزراء ليفي أشكول، الذي خلف بن غوريون، اختار الردّ حيث لا يُنتظر. قام الطيران الإسرائيليّ بغارة على قرية سامو الأردنية كانت حصيلتها ١٨ قتيلاً و١٣٤ جريحاً.

في السادس من نيسان حدث اشتباك جوي أسفر عن إسقاط ست طائرات ميراج سورية فوق دمشق.

في هذه الأثناء تحرّكت الآلة الجهنمية بأقصى سرعتها. في الثاني والعشرين من أيار ١٩٦٧ أعلن الرئيس جمال عبد الناصر، الذي يحكم مصر منذ خمسة عشر عاماً، إغلاق مضيق تيران. فما كان من الأمين العام للأمم المتحدة إلا أن سارع في الحضور إلى القاهرة محاولاً إقناع الرئيس المصري بالتراجع عن قراره. تناقشا. خفّف ناصر من شروطه. حسناً، قال، في انتظار تسوية حُبيّة مع الإسرائيليّين نسمح بمرور السفن الإسرائيلية باتجاه إيلات، لكن شريطة ألا تنقل أسلحة أو معدات استراتيجية.

«غير مقبول أبداً! احتجّ على الفور رئيس الوزراء الإسرائيليّ، هذا الإغلاق ينتهك القوانين الدولية ويشكّل اعتداء على إسرائيل!» احتجاج سرعان ما انضمّ إليه الرئيس الأميركيّ جونسون.

كل من اقترب من عبد الناصر في تلك الأوقات المتوترة لاحظ عصبيته المفرطة. لعله كان يرى مثلي فرسان نهاية العالم يلوحون في الأفق.

هل يتراجع؟ يُعيّد الأسلحة؟ يخدع حتى النهاية؟
في الثامن والعشرين من أيار ١٩٦٧، عقد مؤتمراً صحفياً أمام

حوالي مئة صحافي. بدا وكأنه شاخ فجأة؛ كان صوته أجش،
وابتسامته المشرقة عادة تشبه تكشيرة.

في الثلاثين من الشهر نفسه وصل العاهل الأردني الحسين إلى
القاهرة، وعلى غرار ما فعله الرئيس السوري نور الدين الأتاسي،
وَقَّع مع الرئيس معاهدة دفاع مشترك.

في الخامس من حزيران، دخل موشي دايان ومناحيم بيغن
الحكومة الإسرائيلية.

في السادس من حزيران، اجتاحت الدبابات الإسرائيلية بقيادة
إسحق رابين قطاع غزة، وفي اليوم التالي أصبحت على مسافة أربعين
كيلومتراً من قناة السويس.

في الوقت نفسه، خاض الجيش الإسرائيلي معركة ضد الجيش
الأردني وسط شوارع. وفي لحظة هزيان رأيت في صورة مزدوجة
السطح الجيش الروماني بقيادة تيتوس يخرج من بين الأموات وأشباح
نبوخذ نصر، وصلاح الدين، وبلدوين، وكل الآخرين.

في الثامن، سقط القسم العربي بيد الإسرائيليين، وكما في لعبة
الأوتاد، سقطت أريحا، ثم الضفة الغربية كلها، واضطرّ الحسين
«الملك الصغير» إلى وقف القتال.

في الثامن أيضاً، تقدّم الإسرائيليون نحو سوريا.

عندما توقفت الاشتباكات كانت إسرائيل تسيطر على شبه جزيرة
سيناء كلها، حتى قناة السويس، وعلى قطاع غزة والضفة الغربية،
ومرتفعات الجولان الاستراتيجية في سوريا.

أما أنا، القدس، فأصبحت في أيدي اليهود، كما كنت في زمن
داود وسليمان مع فارق أننا لم نعد في ذلك الزمن.

كان ثمة نسوة يبكين من الفرح، ورجال يلوحون بعلم عليه رسم

نجمة داود. كانوا يتبادلون التهاني، ويرقصون، فيما تتردد في كل مكان تقريباً أصداً أغاني الفرحة.

وكان أولاد يغنون «هافانا ناغيتا»^(١) مشكلين دوائر، وآخرون، أكثر خشوعاً، يتلون جُملاً من المزمور ١١٨: «من عند الرب كان ذلك، وهو عجيبٌ في أعيننا».

في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الثلاثين، فتح الجيش الإسرائيلي ثغرة في مدينتي القديمة عبر باب الأسود، ونزل مظليون عند حائط المبكى الذي كان المؤمنون اليهود ممنوعين من الوصول إليه منذ تسع عشرة سنة.

بعد ساعات التحق بهم رئيس الوزراء ليفي أشكول، ووزير الدفاع موشي دايان، ورئيس الأركان إسحق رابين، وكان لواء ناحال^(٢) والمغنية نعومي شيمر، ينشدون أغنية «أورشليم الذهبية»^(٣) ويخترق عنان السماء.

كان أحمد أبيساف، ابن زيد ومُنى، ينظر من نافذة شقته في المدينة القديمة بعين الريبة إلى مظاهر الابتهاج. تمتم، بصوت مُتهدِّج:

- أحمد الله لأنه لم يُتَّح لوالديّ رؤية هذا المشهد. شدّت زوجته قبضتها. إذا كانت قد بذلت جهداً خارقاً للسيطرة

(١) أغنية شعبية يهودية تعني: «دعونا نحتفل». كتبت كلمات الأغنية عام ١٩١٧ احتفالاً بانتصار بريطانيا في الحرب العالمية الأولى واحتلالها فلسطين وإعلان وعد بلفور (المترجم).

(٢) أحد ألوية النخبة في الجيش الإسرائيلي أسسه دافيد بن غوريون عام ١٩٤٨ (المترجم).

(٣) في الأصل «yeroushalayim chelzav».

على هذا العنف، الذي لطالما وبّخها والدها عليه، أعني الغضب، فإنها لم تكف عن التذمر في داخلها. وذلك لسبب وجيه إذ إنها لم تكن سوى يُسرى، ابنة إبراهيم عمران، تلك التي ظنّ إبراهيم قبل اثنتين وعشرين سنة أنها ستبقى عزباء. كان ذلك دون الأخذ في الحسبان لما يُسمّى القدر. كانت يسرى على مقربة من أحمد دائماً لأن العائلتين كانتا مترابطتين لكنها لم تعره أي انتباه: كان أصغر منها بتسع سنوات. وذات مساء فيما كانوا يحتفلون بذكرى ميلاد إبراهيم تلاقت نظراتهما. كانت قد تلاقت مراراً. لكن في هذه الليلة ومضت عيناها، من دون علم منها تقريباً، واضطرم كيائها كله. وهذا الاضطرام استمال فؤاد أحمد. وبعد شهر تزوجا. وكان ذلك في الثالث من كانون الثاني ١٩٤٦.

كان بالقرب منهما ابنهما عُمر، الذي احتفل حديثاً ببلوغه العشرين من العمر، وقد لزم الصمت. وأخته فيروز، التي تصغره بعامين، وقد جفت الدموع في عينيها.

- هذا كابوس، قالت. بعد النكبة، وقعت النكسة، ما الذي

سيحلّ بنا؟

- نحن أحياء، أجا ب والدها، نحن هنا، وسنبقى، متجذرين

هنا كالزعر والزيتون.

- أنت تهذي، يا أبي، متجذرين في أي شيء؟ سوف يأخذون

منا كل شيء، كل شيء.

- وماذا ستفعلين، ؟ سأل عُمر، تهربين؟ تهربين مثل أولئك

الذين ذهبوا في عام ٤٨ والذين يحتضرون اليوم في المخيمات؟

تعيشين كالمشردين؟

- أخوك على حق، قالت يُسرى، على الأقل، هنا نحافظ على

كرامتنا. لا أريد لأحفادي أن يكبروا في مُدن الصفيح، مهانين
محترقين من الجميع، نحن لا نملك الخيار.
هزّت فيروز رأسها.

- الآن، وقد أصبحوا أسياد البلاد بلا منازع، أتظنّ أن الصهاينة
سيتركوننا نعيش؟ هنا سنعيش مُهانين. هنا سيصبح أولادنا مُحترقين،
أفضل أن أعيش في مُخيّم، لكن واقفة، على أن أعيش هنا، راحة.
- اسكتي! يا ابنتي! صاح أحمد، لا أريد أن أسمعك بعد
الآن، سوف نعيد بناء القرى المدمّرة حجراً حجراً!
خيّم الصمت مجدداً، إلى أن تابع الأب قائلاً:

- اسمعيني جيداً، منذ زمن بعيد، كان بإمكان جدك أن يغادر
القدس غير أنه اختار بكامل الوعي، مثل أبيه، وجده، ومثلي. لقد
اخترت فلسطين لكي أبقى فيها، متجذراً كالزعر والزيتون. لقد
اخترت. الآن عمري خمسة وأربعون عاماً ولا أدري كم من السنوات
سأبقى حياً. لكنني مقتنع بشيء واحد: عندما أموت أريد أن أدفن في
ظل الأقصى، وليس في أي مكان آخر.
قالت فيروز:

- من دون الإساءة إليك يا أبي، أذكرك بأن اليهود يقولون مثلما
تقول، مع فارق وحيد هو الموت قرب حائط المبكى. وهم يعتبرون
أن المدينة لهم ولهم حق العودة إليها.
أيّد أحمد:

- ذات يوم حكى لي جدك ما قاله لأحد المستوطنين. هذا ما
قاله له: إذا كنتم تطالبون بحق العودة فلأنكم غادرتم. مُكرهين،
مُجبرين، غير أنكم ذهبتم. أما نحن فلم نغادر هذه الأرض أبداً.

نحن نسكنها منذ أكثر من ألف وخمسة مئة سنة. كان أسلافنا يدعون فلسطينيين.

وأشار بإصبعه نحو الجمهور الراقص.

- لن ينعموا بالسلام أبداً ما داموا لا يقبلون بأن تكون هذه المدينة المقدّسة مدينتنا، كما أنها مدينة الآخرين. وأن تكون مدينة المسيحيين أيضاً. مدينة مفتوحة على العالم. وإلا فإن أولادكم، وأولاد أولادنا، سوف يقتتلون. بالعصيّ أو بالحجارة، وبما يتوقّر لهم، سوف يقتتلون، لكنهم سوف يقتتلون من أجل القدس. وكرّر:

- لن ينعموا بالسلام أبداً.

عندما غادر الشرفة، كان المكان قد غرق في الظلام.

أسبوعاً بعد أسبوع كان آلاف المهاجرين لا يزالون يسلكون طريق المنفى، بعضهم يذهب نحو الأردن، وبعضهم الآخر نحو البلدان المجاورة، بينما كان ٥٠ ألف سوري ينزحون من هضبة الجولان ليجدوا ملجأ لهم داخل سوريا.

كان المجتمع الدولي قد أوصى بتدويلي، حتى أن الوثيقة كان قد تم توقيعها تحت إشراف الأمم المتحدة في الثالث من نيسان ١٩٤٩. والحال أن الحرب التي انتهت للتوّ، والتي سُمّيت «حرب الأيام الستة» جعلت هذه الوثيقة بحكم اللاغية. لقد أصبحت من الآن فصاعداً تحت السيادة الوحيدة لطائفة.

أطلقت زفرة. وماذا بعد؟

في الحادي عشر من حزيران ١٩٦٧ بدأت السلطات الإسرائيلية بتدمير أحد أحيائي المعروفة باسم «حيّ المغاربة» المحاذي لحائط المبكى. في المساء أُجلبى السكان العرب بالقوة وبدأت الجرافات

عملها. تحوّل الحي إلى ساحة واسعة في أثناء الليل وانتهى العمل فيها صباحاً بإشراف خمسة عشر مقاولاً إسرائيلياً في قطاع البناء موكلين من قبل رئيس البلدية تيدي كوليک.

في نيسان ١٩٦٨ نشر وزير المالية يمرسوم استملاك ٢٩ أكر^(١) في المنطقة الجنوبية من مدينتي القديمة «من أجل المصلحة العامة» أي من أجل السماح ببناء مساكن لعائلات يهودية. شمل الاستملاك مئات المباني وأكثر من ستة آلاف فلسطيني طردوا من بيوتهم. وأزيل العديد من الورش والدكاكين. في عام ١٩٧٣ صدّق الكنيست على تعديل «قانون أملاك الغائبين» الصادر في عام ١٩٥٠، لكن هذا التعديل يخصني أنا. كانت بنود التعديل تتعلق بالأملاك العائدة إلى فلسطينيين الذين أُجبروا على الفرار أو طردوا من البلاد أثناء حرب ١٩٤٨، فجأة اعتُبرت أملاكهم عائدة إلى «مواطني بلد عدو». وقد أُعطي مدير الاستملاكات المعيّن من قبل الحكومة صلاحيات مطلقة في القيام بأعمال الهدم، وطرد أصحاب الأرض أو سكان البيت ونقله إلى ملكية مواطن يهودي.

هكذا وجد العديد من الفلسطينيين أنفسهم مجردين بين ليلة وضحاها من ملكية بيوتهم ولا يحق لهم بيعها أو توريثها أو تحويلها إلى آخر.

بعد ثلاث عشرة سنة من الاستيلاء عليّ قرّرت الحكومة الإسرائيلية تعديل وضعي القانوني كـ «مدينة مقدّسة» بإصدار قانون «أساسي»، أعلنت بموجبه عاصمة موحدة «واحدة غير قابلة للتقسيم» للدولة العبرية. قانون «أساسي» لأنه عند الإعلان عن قيام الدولة عام

(١) Acres. الأكر مقياس للمساحة يساوي نحو أربعة آلاف متر مربع (المترجم).

١٩٤٨ رأى دافيد بن غوريون أنه من غير المفيد إعطاء البلاد دستوراً. على هذا النحو لا يفقد دعم رجال الدين الذين يرون أنه لا يمكن لدولة يهودية أن تمتلك دستوراً غير الشريعة اليهودية، هالاخا. كذلك لم تتم الإشارة إلى أية حدود.

منذ ذلك الحين بات فلسطينيو المدينة يعاملون على أنهم «مقيمون» وليس كسكان شرعيين.

في الثامن والعشرين من آب ١٩٨٠ حثّ القرار ٤٧٨ الصادر عن مجلس الأمن إسرائيل على الإنسحاب من الأراضي الفلسطينية التي تحتلها منذ عام ١٩٦٧ بما فيها قسيمي الشرقي، واعتبر القانون «الأساسي» انتهاكاً للقانون الدولي. كما طلب من السفارات السبع عشرة القائمة في القدس الشرقية بالانسحاب منها، وقد انصاعت للقرار كلها أو تقريباً. ونظراً إلى عدم توافر الأموال اللازمة بقيت سفارات كوستاريكا والبرتغال والسلفادور حتى عام ٢٠٠٥.

غير أن ذلك لم يغيّر في الأمر شيئاً سوى أنني بمرور الوقت شاهدت تناقص عدد العائلات الفلسطينية التي تعيش عندي منذ قرون.

كان وجهي يتغير باستمرار كما حصل مرات لا تحصى في الماضي، وأخشى أن ما صنع ثرائي في وقت ما، أعني المزيج الديني والثقافي، سوف يختفي. إن فاتحيّ الجدد يصرفونني بصيغة المفرد.

أنا، التي لم أنس كلمة واحدة من كلمات محمود عمران، أتساءل عن تماسكها المنطقي: «أولادكم، وأولاد أولادنا سوف يقتتلون، بالعصي أو الحجارة، وبما يقع في أيديهم، لكنهم سوف يقتتلون من أجل القدس».

كيف أمكن هذا؟ ولكن المستقبل سوف يعطيه سيباً .

في أيار ١٩٨٧ تمكّن ستة معتقلين بتهمة قتل ثلاثة إسرائيليين من الفرار من سجن غزّة. وفي السادس من تشرين الأول اكتشف مكانهم. قُتلوا على الفور، ودمّر البيت الذي كانوا فيه بالجرافات، كان هؤلاء الرجال أبطالاً وشهداء في نظر الفلسطينيين .
التوتر الذي كان سائداً اشتدّ فجأة .

يوم الجمعة العاشر من آب، تلبية لدعوة منظمة الجهاد الإسلامي، نفّذت مدينة غزّة إضراباً شاملاً . المحلات، المتاجر، محطات الوقود، الشوارع لم تعد سوى ممرّات طويلة محفوفة بستائر من حديد .

بعد أسبوع، في أثناء اجتماع حاشد ضمّ عشرات آلاف المتظاهرين أمام الجامعة الإسلامية، وجّه الشيخ عبد العزيز عودة، أحد مسؤولي الجهاد، نداء من أجل الثأر لشهداء السادس من تشرين الأول. وخلال مواجهات مع الجيش الإسرائيلي سقط من المتظاهرين عشرون جريحاً بالرصاص .
زادت السماء اكفهراراً، وغدت ألوان الشفق حمراء دامية، وامتدّ الهياج .

في القدس، بعد أداء الصلاة، اشتبك ألفان من المؤمنين المسلمين مع قوّات الشرطة الإسرائيلية. في الخليل نُصبت المتاريس بين الطائفتين . في بيت لحم أُقفلت الجامعة احتجاجاً على مقتل طالب على يد شرطي إسرائيلي .

كانت أرض فلسطين تشتعل، ولا أحد من المعسكرين بدا قادراً على السيطرة على الحريق .

في العاشر من تشرين الثاني، قُتلت في غزّة تلميذة فلسطينية

برصاص مستوطن تعرّض لهجوم من رُماة الحجارة. في اليوم نفسه أعلن الحاكم العسكري عن إبعاد الشيخ عبد العزيز عودة. ردّت الجهاد بتنظيم تحركات جديدة وأعلنت الإضراب العام في الواحد والعشرين من الشهر نفسه.

كانت الأراضي المحتلة كلها تنزلق لا محالة في دوامة قاتلة.

في الخامس والعشرين، وصل عضو في جبهة التحرير الفلسطينية من لبنان إلى فلسطين خلسة بواسطة آلة طائرة وحطّ في الجليل الأعلى. تمكّن من التسلل إلى معسكر للجيش الإسرائيلي وقتل ستة جنود قبل أن يُقتل. في الأول من كانون الأول، قُتل تاجر إسرائيلي جاء إلى غزة لشراء بضائع بطعنات خنجر. في السادس، قُتل مدنيّ إسرائيلي في ظروف مشابهة.

عندئذ فرض الجيش الإسرائيلي منع التجول، لكن كان قد فات الأوان. كانت الانتفاضة الأولى قد انطلقت ولا شيء يمكن إيقافها. في الثامن من كانون الأول، صدمت مقطورة يقودها إسرائيلي عمداً سيارة تاكسي تقلّ سبعة عمال من مخيم اللاجئين في جباليا شمال غزّة، قُتل منهم أربعة على الفور. كان بينهم المدعوّ فريد أبيسان.

ليلاً، أُقيمت متاريس في كل مكان تقريباً في غزة، وفي اليوم التالي تعرّضت دورية إسرائيلية لمضايقة الجمهور فأطلق الجنود النار وقتلوا حوالي عشرة فلسطينيين.

كان المقلاع قد أصبح السلاح المفضل في أيدي آلاف المراهقين الفلسطينيين، وكان عمرُ بعض المشاغبين أقل من عشر سنوات. وكما بفعل رقية سحرية مؤذية انعكست الرواية التوراتية، كان داود قد أصبح فلسطينياً. ولما تبين للقوات الإسرائيلية المنهكة

أنها عاجزة عن الإمساك بالوضع في الشارع الفلسطيني أعلنت حالة الحصار ومنع التجوّل. لا هذا ولا تلك أُخذ بعين الاعتبار.

أصبح العصيان المدني هو الكلمة الرئيسية: مقاطعة البضائع الإسرائيلية، الاقتصار على فتح المتاجر لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات في اليوم. الطلب إلى عمال المشاغل والورش الالتزام بالإضراب الوطني، وفي المقابل العمل بالنظام الكامل في الأيام الأخرى لتوسيع نطاق المقاطعة. عدم دفع الغرامات المفروضة من قِبَل المحاكم الإسرائيلية على المعتقلين أو أقربائهم. دعوة الموظفين المدنيين والشرطة الفلسطينيين إلى الاستقالة. وقد استجاب لهذه الدعوة مئتا موظف من أصل ثلاث مئة في غزّة.

جرى اعتقال آلاف الفلسطينيين الذين تتراوح أعمار غالبيتهم بين خمس عشرة وأربع وعشرين سنة. في أثناء التحقيق معهم كانوا يصرخون في وجه سجانهم معلنين رفضهم لما يتعرّضون له من إهانات يومية، ومن الساعات الطويلة التي يقضونها منتظرين أمام نقاط التفتيش، وطريقة تفتيشهم بالوقوف، وإبعاد الساقين، ورفع الأيدي إلى أعلى، ومصادرة بطاقات الهوية من دون مبرر، وحملات الدهم الليلية، والتصرّفات السادية لبعض العسكريين».

في الثاني والعشرين من كانون الأول ١٩٨٧ اجتمع مجلس الأمن الدولي بدعوة من الجامعة العربية وصوّت بالإجماع على القرار ٦٠٥ استناداً إلى ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنسان. أعرب المجلس عن أسفه لاستعمال الأسلحة النارية من قِبَل الجيش الإسرائيلي الذي أدّى إلى مقتل مدنيين أبرياء، وأكد أن اتفاقات جنيف يجب أن تُطبّق في الأراضي المحتلة. وخلافاً للمعتاد لم تستعمل الإدارة الأميركية حق النقض.

لا بل أدلى الناطق باسم البيت الأبيض بتصريح ينتقد «قسوة التدابير الأمنية غير المقبولة والإفراط في استعمال السلاح الناري» في تفريق المتظاهرين.
ومرّت الشهور.

بدلاً من الرصاص الحقيقي استُعمل الرصاص المطاط غير أنه لم يقلل عدد القتلى في صفوف الفلسطينيين: في شباط ١٩٨٨ ارتفعت الحصيلة إلى خمسة وسبعين قتيلاً.

في الثامن من آذار، تسلّل ثلاثة من رجال فتح إلى إسرائيل عبر الحدود المصرية، وتمكنوا من السيطرة على حافلة تقلّ موظفين في مفاعل ديمونة النووي. أقام الجيش حواجز على الطرقات واعترض الحافلة. احتجز الفدائيون ثمانية رهائن، لكن وحدة من قوات النخبة الإسرائيلية اقتحمت الحافلة. والحصيلة خمسة قتلى من بينهم مدنيان.

وشيئاً فشيئاً غيرت الانتفاضة وجهها، وتحوّلت إلى حرب عصابات في المدن. واشتدّ العنف، وأخلت التظاهرات الحاشدة التي كانت تجري في البداية المكان لمعارك شوارع تخوضها فرق الصّدام التي كانت تناوش العسكريين بقذف الحجارة، دائماً الحجارة، ولكن بقنابل المولوتوف أيضاً.

هذا الغليان استمر مدة لا تقل عن ثلاث سنوات.

ثلاث سنواتٍ طوال.

أشلاء بشرية تغطي شوارعِي وساحاتي. المدافعون عن الأقصى، بمن فيهم الذين لجأوا إلى السطح، قُتلوا جميعاً وسالت الدماء في شوارعِي. لم أُحصِ عدد القتلى من العرب، لكن وفقاً لبعض المصادر ناهز الستين ألف قتيلاً.

«أولادكم، وأولاد أولادنا سوف يقتلون، بالعصي أو الحجارة،
وبما يقع في أيديهم، لكنهم سوف يقتلون من أجل القدس».
تنبؤ محمود عمران ما زال يؤرقني.

تجسّد مرة أخرى في الثامن والعشرين من أيلول ٢٠٠٠. في ذلك اليوم شاهدت زعيم المعارضة الإسرائيلية أرييل شارون يدخل ساحة المسجد الأقصى، جبل الهيكل، بحماية نحو ألفين من الجنود الإسرائيليين اعتبر العرب هذا الحدث استفزازاً. ووقعت اشتباكات بين الجنود والفلسطينيين المحتجين قُتل فيها سبعة منهم وذلك في مدينتي القديمة. وعمّت الاضطرابات الضفة الغربية وغزة. وفي الثلاثين من الشهر نفسه قُتل الفتى محمد الدرّة، البالغ من العمر اثني عشر عاماً، برصاص الجنود الإسرائيليين وهو في حضن أبيه الذي كان يحاول حمايته. إنه التصعيد، كما في أسوأ أيام حرب المكابيين. لم يتوقف الرعب إلا بعد ست سنوات في عام ٢٠٠٦. أحصيتُ مقتل ألف إسرائيلي وثلاثة آلاف فلسطيني.

نتيجة هذه المذابح قرّرت السلطات الإسرائيلية إقامة «جدار الفصل» من أجل حماية مواطنيها. اتبع الجدار ما يُسمى عادة «الخط الأخضر» لكنه يتوغل عميقاً داخل الضفة الغربية لكي يشمل العديد من المستوطنات الإسرائيلية الكبرى.

وهكذا رأيت أنا، القدس، بلادي ممزقة إلى قسمين على حوالي ٧٠٠ كيلومتر.

لم أر طوال وجودي هذه الأراض المقدسة مشوّهة إلى هذا الحد. ذات مساء راودني هذا التفكير الذي أغرقني في تعاسة لا اسم لها: إذا نظر إليها من السماء، أي من الطائفتين حاصرت الأخرى؟ هل تسير الأمور نحو التهدة؟ للأسف لا.

لم تكذ تمضي سنتان على نهاية الانتفاضة الثانية حتى اندلعت الحرب بين السجن المفتوح على السماء غزة وإسرائيل . كانت تلك عملية «الرصاص المصبوب» . عندما انتهت في عام ٢٠٠٩ بلغ عدد الضحايا ١٥٠٠ قتيل فلسطيني، معظمهم من المدنيين و ٣٢٨٥ جريحاً . ومن الجانب الإسرائيلي عشرة قتلى و١١٣ جريحاً من الجنود الإسرائيليين، وأكثر من ٨٤ جريحاً مدنياً .

ثمة تشابكات يحدثها الإنسان أسوأ نتائجها أنها تفلت من سيطرته عليها .

في الرابع عشر من تشرين الثاني ٢٠١٢ نفذت السلطات الإسرائيلية عملية «عمود الدفاع» .

بعد سبعة أيام من الضربات الجوية تم التوصل إلى وقف لإطلاق النار بوساطة الحكومة المصرية . وكما في الهجوم السابق كان الهدف المعلن من قبل الحكومة الإسرائيلية هو وضع حد لإطلاق الصواريخ من قطاع غزة وتدمير المواقع التي تخزن فيها القذائف الصاروخية ذات المدى الطويل والمتوسط . وكانت الحصيلة ١٧٧ قتيلاً في غزة خلال أسبوع واحد، بينهم ٢٦ طفلاً على الأقل وإصابة ١٢٠٠ مدني فلسطيني بجروح . في الجانب الإسرائيلي قُتل جنديان وأربعة مدنيين .

يوم الأحد التاسع من كانون الثاني ٢٠١١ في الساعة الخامسة صباحاً وصلت الجرافات الإسرائيلية إلى موقع فندق شبرد وسط حيّ الشيخ جراح في القدس الشرقية . دُمّرت الجرافات الجناح الأيمن من المبنى أمام سكان الحيّ وجاء مناضلون فلسطينيون وإسرائيليون للاحتجاج على الهدم . قبل بعض الوقت كان مالك المبنى الثري اليهودي الأميركي ايرفينغ موسكوفيتش قد قرّر أن يبني مكان الفندق القديم عشرين مسكناً لعائلات يهودية متديّنة بالاشتراك مع منظمة

أثيريت كوهانيم^(١). هذه المساكن غير شرعية في نظر القانون الدولي الذي لا يعترف بضم القدس الشرقية إلى إسرائيل. في عام ٢٠١٥ بدأ شكل جديد من الحرب: الهجمات بالسلاح الأبيض. كان منفذو هذه الهجمات من الشبان الفلسطينيين المعزولين في الغالب. وقد أدت هذه الهجمات إلى مقتل ٢٦ إسرائيلياً وأكثر من ١٦٥ فلسطينياً سقطوا جراء العمليات الانتقامية الإسرائيلية، غير أننا لم نكن قد بلغنا نهاية طريق الأشواك والدماء.

بارك الله دونالد ترامب.

في يوم الاثنين هذا، يوم الاحتفال بالذكرى السبعين لقيام الدولة الإسرائيلية، كانت رايات كبيرة تمجد الرئيس الخامس والأربعين للولايات المتحدة الأميركية تزين شوارع وساحاتي وجدراني. إنه الرجل الذي تحققت من خلاله المعجزة التي لم يعد الإسرائيليون ينتظرون حصولها، ألا وهي رؤية السفارة الأميركية قائمة داخل أسوار.

في يوم الأحد هذا أثناء الاستقبال الذي أقيم في وزارة الخارجية الإسرائيلية على شرف إيفانكا ترامب وجاريد كوشنر، ابنة الرئيس الأميركي وصهره، أطنب رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو في المديح: «دونالد ترامب يصنع التاريخ»، أعلن ذلك قبل أن يدعو السفراء الاثني والثلاثين الذين حضروا في المناسبة إلى نقل مقرات سفاراتهم إلى القدس الشرقية أسوة بالسفارة الأميركية.

(١) Ateret Cohanim (تاج الكهنة، بالعبرية). منظمة يهودية استيطانية تأسست عام ١٩٧٨ مهمتها تكوين أكثرية من السكان اليهود في المدينة القديمة وأحياء القدس الشرقية.

على بُعد بضعة كيلومترات من مكان الاحتفال كان الغضب يهدد.

بدأ سكان غزة غير القابلين للاختزال حقاً «مسيرة العودة الكبرى». بحلول الليل سقط منهم ١١٠ قتلى و ٣٠٠٠٠ جريح أصيبوا بالرصاص الحي أو المطاطي أو قنابل الغاز المسيل للدموع. وأعادوا الكرة الجمعة بعد الجمعة. كل يوم جمعة يتجمعون بالآلاف أمام جدار الفصل. يدخل قسم منهم في المنطقة العازلة التي يمنع دخولها الجيش الإسرائيلي لكي يقتربوا من الأسوار. في الخط الأمامي تُحرق الدواب لتشويش رؤية الجنود الإسرائيليين، وتُقذف الحجارة على القوات الموجودة في الجانب الآخر. وتُطلق طائرات ورقية موصولة بخرق مشتعلة نحو الجانب الإسرائيلي من الجدار. وهم يتظاهرون في مجال حيوي بالنسبة إليهم: المنطقة الحدودية التي تتحكم إسرائيل فيها بحق الحياة والموت؛ عرضها كيلومتر واحد وطولها أربعون كيلومتراً تشكل قطعة الأرض الزراعية الأخيرة في القطاع؛ مساحة ثلاثة آلاف هكتار من الأراضي الزراعية يطلق زاحال النار عليها في فضاء مفتوح.

ما الذي يطالب به هؤلاء الناس؟ الشيء نفسه الذي طالب به أصدقائي نبيل عمران، وأبيساف، وصموئيل أبطار وغيرهم: دولة واحدة على كامل أرض فلسطين، ينعم فيها الجميع بالحقوق ذاتها: يهود ومسيحيون ومسلمون.

«القومية التي لا تحافظ على حقوق الإنسان تشوّه نفسها بنفسها بالعنف، حذار، يا رفاقي، من هذا الانحراف!»

الرجل الذي أطلق هذا التحذير من على مقعده في الكنيسة ليل ١٨ - ١٩ تموز ٢٠١٨ لم يكن نائباً من اليسار ولا من أقصى اليسار،

ولا أحد نواب القائمة العربية الموحدة. إنه بني بيغن، البالغ من العمر ٧٥ عاماً، وهو ابن مناحيم بيغن، المؤسس التاريخي لليكود. لقد رفض التصويت على القانون المسمّى «قانون الدولة القومية» الذي اقترحه بنيامين نتنياهو وحزبه.

للأسف، صوّت مع هذا القانون ٦٢ نائباً وعارضه ٥٥ وامتنع عن التصويت اثنان. ماذا يعني النص المصدّق عليه؟ «أن إسرائيل دولة قومية للشعب اليهودي وفيها يقوم بممارسة حقه الطبيعي والثقافي والديني والتاريخي لتقرير المصير». ولا يعترف بحق تقرير المصير إلا لليهود وحدهم وينزع عن اللغة العربية صفتها كلغة رسمية إلى جانب اللغة العبرية.

كان بجوار بني بيغن نائب عربي، يناهز الخمسين من العمر، كثيف اللحية السوداء، رفع قبضته احتجاجاً وصاح غاضباً:
- لا، فضيحة، تمييز عنصري!

قال ذلك وترك مقاعد الكنيسة يتبعه عدد من رفاقه. ما اسمه؟ كريم أبيساف. ابن محمود ويُسرى أبيساف، وهما ابنا زيد ومُنِي. وجميعهم أقرباء أباً عن جدّ.

عندما خرج من مبنى الكنيست جلس على أدراج المدخل واضعاً رأسه بين يديه وفي ذاكرته يتتابع تاريخ شعبه الذي حوّله هذا القانون إلى مواطنين من الدرجة الثانية هم ومئة وعشرين ألف درزي وسبعين ألف مسيحي. وتذكر كلمات صديقه، الكاتب اليهودي، عاموس أوز، الذي قال له منذ بعض الوقت: «يجب أن نهدم الأماكن المقدسة حجراً حجراً ونقلها إلى اسكندينايا لمدة قرن وعدم إعادتها مرة أخرى إلا عندما يتعلّم الناس العيش معاً في القدس».

كما تذكّر كلمات شمعون بيريز، المتوفي قبل أربع سنوات:

«يبقى أن جبل الهيكل يصعب تقسيمه. الحرم وحائط المبكى، وقبة الصخرة، والمسجد الأقصى والسور الغربي جزء من كل واحد: لا أحد يمكنه احتكار المقدّس وأكثر من ذلك فإن القدس هي شعلة أكثر من كونها مدينة، ولا أحد يمكنه تقسيم شعلة».

أنا لطالما بكيت أمواتي الإسرائيليين عدّة مرات! تعرّضوا للمذابح والنفي ضحية وحشية نبوخذنصر وقائده العسكري نبوزرادان. كيف يمكنني ألا أذرف الدموع نفسها أمام هؤلاء الضحايا الفلسطينيين؟

متى كان ذلك؟ أمس؟

من؟ الصليبيون؟ شهر-باراز، «الخنزير الملكي»؟

ألن تكون حياتي إذن إلّا عودة متجددة أبدية؟

على مدى ألف سنة كنت يهودية حصراً؛ ثم مسيحية طوال أربع مئة سنة، ثم مسلمة خلال ألف وثلاث مئة سنة. ولا أحد من هذه الأديان الثلاثة استولى عليّ من دون سيف، أو منجنيق، أو مدفع.

ربما يأتي الوقت الذي يلوم فيه المجتمع الدولي نفسه بمرارة لأنه أغمض عينيه، من دون أن يكون قادراً على أن يفعل شيئاً غير إحلال ظلم مكان ظلم آخر. عندئذ سوف يرفع الفلسطينيون رأسهم من عمق منفاهم، وقد تخلّى عنهم الجميع، ويرددون هم أيضاً شكوى اليهودي - التائه: «العام المقبل في القدس».

لقد استقبلت وثنيي كنعان منذ ثلاثة آلاف سنة، كما استقبلت من خلفوهم، ذرية إبراهيم، وأتباع يسوع وأتباع النبي محمد. قدّمت الأمن داخل أسواري لكل الباحثين عن ملجأ لقضاء الليل هم وأزواجهم وأولادهم. لم أطلب منهم سوى شيء واحد: أن يحترموني وأن يحبوني. وضمنت لهم نسلًا كثير العدد، بغضّ النظر عن إيمانهم.

من هم الذين أسَّسوني؟

الناس، تقولون. طبعاً، وستذكرون داود، وسليمان، وهيرودس وغيرهم. لكن عليكم أن تتحلَّوا بشيء من الأريحية حيال مجهولين ومنسيين، حيال اليوسيين، والفلسطينيين، والأدوميين، أولئك الذين شيّدوا مساكني الأولى المندثرة حالياً.

في الحقيقة أنا رؤية تمتدّ في مخيلة الناس. حتى أولئك الذين لم يزوروني قط يتخيلون داود يرقص أمام تابوت العهد؛ ومحمداً يضع قدمه على الصخرة المقدسة قبيل المعراج إلى السماء؟ ويسوع يجر صليبه حتى الجُلجلة قبل أن يرتفع إلى السماء.

لكنّ لي وجهاً آخر.

أنا آل أبيساف، وعمران، وفسكور، وبسانو، وربّي نشمان، ويوشع، وإبراهيم، ويسوع، ومحمد. أنا عاصمة العالم. ذات يوم سوف تتذكرون.

هذا الكتاب

بعد قرون من الصمت، قرّرتُ، أنا القُدُسُ، أن أتكلّم لأروي قصتي الحقيقية، لا تلك التي يشيعها المُمالِثون لي، أولئك السُدج الذين يتخيّلون أن لا مناص لي من أن أكون لواحدٍ منهم؛ والذين ينظرون إليّ كعروس يستطيعون أن يضعوها في قفص أو كبغّي تسلّم نفسها لمن يدفع أكثر. أنا القُدس.

أنا الوحيدة، المقدّسة، الكاملة، وفي حجارتي تهتز الحقائق الأبدية الثلاث؛ كل واحدة منها مُكملة للأخرى، وغير قابلة للانفصال.

لا تهمني الانتقادات التي لن يفوتها أن تثير مشاعري، ولا شك في أنني بلغت السنّ التي ما عدت أخشى معها الإهانة، والسخرية، بين الرُشد هذه حيث ما عدتُ أخشى شيئاً - هل يجب أن أعترف بذلك؟

